أمين مازن

مسار

2

مســـارب

أمين مازن

مسارب 2

الايداع والتسلسل

رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية ـ بنغازى : 3373 / 1998

التنضيد والرقن الاليكترونى : ادارة التجهيز والطبع بالمؤسسة العامة للصحافة

الطبع : مطابع الثورة العربية ـ طرابلس

منشورات : مـــازن

الغلاف : الفنان محمد رضا

عيسى يوسف [illegible]

الإهــــداء

لمن بالصبر والزهد والاباء

كانت خير عون لما يحمل هذا السفر

من حضور الفعل والقول،لها وللأبناء

فاطمة ، عائشة ، طارق ، فيصل ، كوثر ، ملاك ، أشرف ، رباب

أمضى هذا الاهداء

تجربة قلم .. وملحمة جيل

ووثيقة عرفان

يعـــاتبنى فـي الدِّيْن قـــومي وإنما
ديوني في أشـيـاءَ تكسِـبُـهمْ حـمْـدا
أسُـــدٌ به مــاقــد أخلُّوا وضـيــعــوا
ثغـورَ حـقـوقٍ مـا أطاقـوا لهـا سـدًّا
وفي جَــفْنـة مــا يُغْلَقُ البــابُ دونهـا
مكللة لحــمــاً مـــدفـــقـــة ثُرْدا
وفي فـــرسٍ نهْــدٍ عــتـيقٍ جــعلتُــهُ
حـجـاباً لبـيـتي ثم أَخـدمْـتُـهُ عـبْـدا
وإن الــذي بـيـنـي وبـين بـنـي أبـي
وبين بني عــمى لمخـــتلفٌ جــدًّا
فـإن أكلوا لحـمي ، وفـرْتُ لحـومـهم
وان هدمـوا مـجدى بنيْتُ لهـم مـجـدا
وإن ضـيـعوا غـيـبي حـفِظت غـيـوبهم
وإن هم هُووا غـيِّي هوِيتُ لهـم رُشْــدا
وإن زجـــروا طيـــراً بنـحس تمر بى
زجــرت لهـمِ طيــراً تمرُّ بهـم ســعــدا
ولا أحـــمل الحـــقــد القـديم عليـــهم
وليسِ رئيسُ القـومِ من يحـمِلُ الحـقْـدَا
لهـم جُلُّ مـــالي إن تتـــابعَ لى غِـنى
وإن قل مـــالى لمْ أكـلِّفْــهُـمُ رفْـــدا

« المقنع الكندي »*

*- المقنّع الكندي : هو محمد بن عميرة أو محمد بن ظفر بن عمير الكندي (ت نحو 70 هـ ـ 690) .. شاعر مقل من شعراء الاسلام ، لقب بالمقنع لأنه لا يمشى إلا مقنعاً .

بالامتنان كله وبالتقدير كله أسجل موفور الشكر والعرفان للأخوة :
ـ الدكتور محمد أحمد وريث الذي رافق العمل مراجعة وتجويدا .
ـ الفنان الشاب عادل بلعيد شيتاو الذي اختص بالنواحي الفنية .
ـ الأخوين : فتحي الترهوني ، فتحي أبوربعية (تجهيز المرحلة الأولى) .

قراءة أولى

محمد الفقيه صالح

تكاد بؤرة السرد في هذا الجزء من « مسارب » الأديب الناقد « أمين مازن أن تنصرف بالكامل إلى محاولة القبض على صيرورة التكوين الثقافي والسياسى

سواء على صعيد تجربته كمثقف كاتب ، أو على الصعيد الوطنى العام . في مدى زمنى يمتد منذ اواخر عشرية الخمسينات الى نهاية الستينات وضمن إطار مكانى في مدينة طرابلس ، يتمثل أساساً في عدد من المقاهى والنوادى الرياضية ومقرات الصحف ومؤسسة الاذاعة ، فضلا عن أروقة المجلس التشريعى الذي عمل به كاتبنا عدة سنوات .

ويمثل هذا الانشغال الكلي بالشأن الثقافي والسياسى ، في هذا الجزء من متن سيرة كاتبنا الذاتية ، تحولاً واضحاً من رصد تأثيرات البيئة الاجتماعية التقليدية وأعرافها الصارمة على صباه وطفولته ، كما لمسناها في الجزء الأول الى رصد بدايات التكوين الذاتي الثقافي ، في هذا الجزء حيث تتسع دائرة الحرية الفردية والمغامرة الشخصية نسبياً وذلك بالتوازي مع الانتقال في المكان من بلدة صغيرة في الصحراء ، هى بلدة هون

، الي مدينة كبيرة (بالمقاييس الليبية طبعاً) هى مدينة طرابلس .

غير ان هذا الهامش الفردى والشخصى الذي توفره المدينة الحديثة تحدد هو الآخر بشرط تاريخى تمثل أساساً في عملية بناء الدولة الوطنية الليبية الحديثة على أرضية اقتصادية - اجتماعية شديدة الضعف والهشاشة ، لم تلبث ان تزعزت باكتشاف النفط وتصديره ، وماترتب على ذلك من انقلاب شامل في تلك البنية ، أدى - فيما أدى إلى تصدع الأسس التى تستند اليها الثقافة التقليدية السائدة آنذاك والتسريع ببروز ملامح ثقافة حديثة تساوقت مع نمو قطاع الخدمات في الاقتصاد الوطنى نمواً سرطانيا مشوها ، ومع استنزاف الأرياف والبوادى من خلال تدفق الهجرة الي المدن ، ومع انتشار التعليم واتساع دائرة الفئات الاجتماعية الوسطى .

ومن هنا يتداخل في هذا الجزء من مسارب - ويتزامن تكوين كاتبنا الثقافي كمثقف فرد ، مع تشكل الثقافة الوطنية الحديثة في بلادنا منذ اواسط الخمسينيات اى يتداخل الخاص بالعام ، والذاتى بالموضوعى ، والثقافي بالسياسى ، بحيث يغدو من الصعب قراءة تجربة كاتبنا بمعزل عن تجربة جيله من المثقفين الوطنيين ، وخاصة من جهة الانشغال بسؤال الكيان والهوية الوطنية ، او من حيث التمزق والتشتت بين متطلبات السؤال الثقافي ومايستدعيه من مراكمة وانجاز ، وبين مقتضيات الشأن

السياسي اليومي والحاحه وما يتطلبه من جاهزية وحركية لاتتيح للمستهدف الثقافي التخمر والنضيح اللازمين وبالتالي التحقق الفعال .

بل اكاد اقول انه من المستحيل مقاربة مجمل هذه التجربة الثقافية والسياسية على الصعيدين الفردى والجماعي - واستنطاق قوانينها الداخلية ، واستلهام عبرها ودروسها ، بمعزل عن مقتضيات الشرط التاريخى الخصوصى لتكوين الثقافة الليبية الحديثة على هامش مراكز الثقافة العربية المعاصرة في المشرق ، وفي اطار تحول البنية الاقتصادية - الاجتماعية الليبية في بنية ريعية نفطية استهلاكية ويبدو ان هذا التداخل والترابط العضوى بين الذاتي والموضوعى في المتن السردى هو الذي جر لغة السرد الى الاعتماد كلياً على ضمير الغائب ، ليس فيما يتعلق بالمروى المفارق فحسب أى بسرد الاحداث والمواقف المرتبطة بشخصيات اخرى ، بل حتى فيما يتصل بالمروى المتماهى بالراوى او السارد نفسه . وكأن كاتبنا بحديثه عن ذاته من خلال ضمير الغائب يتوخى الايحاء باندغام الذات في السياق الثقافي والسياسى الوطنى العام .

.فهل يعكس هذا الاندغام تأثير الفكر التقدمي الاشتراكي على كاتبنا بالفهم السكونى الذي ساد في بلادنا العربية ابان الخمسينيات والستينيات ، والقائم على الاعلاء من شأن « العام ش و « الموضوع » على حساب « الذات » ؟ أم تراه يعكس طبقة

اعمق في وعى كاتبنا ترجع الى خلفيات البيئة التقليدية في مراتع الطفولة والصبا ببلدة « هون حيث تذوب ذاتيه الفرد في هوية الجماعة ؟ أم أن الامر مزيج من المنبعين تتواشج فيه مكونات البيئة التقليدية مع الفهم السكوني للفكر الاشتراكى. بحيث يتقاطعان في خانة تهميش الذات وتحويل الانظار بعيداً عن منابعها الداخلية وما تنطوي عليه من اسرار واغوار ومجاهل. وفي ظنى ان هذا « التهميش » يوفر للذات كنا آمنا دافئاً هو اشبه بالرحم ، يحمى من اية زعازع او انواء ويؤمن اتساقها وتناغمها مع الحس العام .

اياً كان الامر ، فلا يزال كاتبنا ـ في هذا الجزء ايضاً ـ اميناً لتقاليد السيرة الذاتية في الادب العربى ، من حيث التخارج عن الذات والانصراف الي السياسى والثقافي العام ، الا فيما ندر ، توخياً فيما يبدو ـ للمستهدف الاعتبارى من كتابة السيرة على حساب البوح النفسي والعاطفي ، والاستبطان الوجدانى للتجربة الذتية . والدليل على ذلك ان كاتبنا حتى حينما تطرق لجوانب شخصية مثل زواجه او عندما تعرض لبعض التجارب الشخصية جدا والحساسة ، لم يمس هذه الجوانب سوى مس خفيف رفيق هو اقرب ـ في حقيقة الامر ـ الى التكتم منه الى البوح والجراءة .

وبعد ..

فإن أهمية هذا الجزء من « مسارب » لاتكمن فقط في رصده

تجربة وخبرة احد ابرز مثقفي جيل ما بعد الحرب من كتابنا وادبائنا المعاصرين ولا في محاولته رسم ملامح بعض الرموز الوطنية والثقافية لذلك الجيل ولجيل الستيتيات الذي تلاه ، بل ـ وبالاساس ـ فيما ينطوى ـ عليه من إبراز لمعالم مجتمع مدنى ليبي ، بدأ منذ اواخر الخمسينيات في النشوء ، وتنامى خلال عشرية الستينيات ، متمثلاً في الصحافة الاهلية ، والحركة النقابية ، والنوادى الرياضية ، ثم التشكيلات السياسية المحدودة التى عرفتها بلادنا آنذاك . وهى تجربة اسهمت ـ دون ريب في تنمية الوعي الوطني القومي وتجذيره في بلادنا ، وفي اتساع دائرة المشاركة الطوعية في الشأن العام وخاصة في اوساط القطاعات الاجتماعية الحديثة .

ومن هنا تبدو هذه السيرة / الشهادة في أحد مستوياتها ضرباً من ضروب قراءة التجربة الثقافية السياسية الحديثة في بلادنا ، ومراجعتها ، ومحاولة صياغة ما لايزال مبعثراً من أطرافها ورموزها وأسئلتها وإنجازاتها وإخفاقاتها . وهى شهادة لاتدعى الإحاطة بكل التفاصيل والخلفيات والشخصيات ، ولاتزعم – فيما أرى – أن ما أتت به من تأملات وأحكام واستخلاصات يمثل القول الفصل في هذا الصدد . إذ إنها محكومة بحدود ما كان لصيقاً بصاحبها ذاتياً وموضوعيا ويكفيها مجداً أنها تأتى اسهاماً جاداً في إضاءة ذاكرتنا الوطنية .

■ ■

1

لم يكن المكان، من حيث المساحة، صالحاً للقيام بأي دور فهو لايتجاوز بضعة أمتار مربعة، لا تتسع إلا لعدد قليل من الناس، لا يتجاوز عددهم العشرات .

يحتوى على حجرة صغيرة أطلق عليها تجاوزاً اسم «صالة »، تؤدي إلى أخرى أقل مساحة استغلت مقهى ، وثالثة صغيرة للغاية اتخذت مقراً للإدارة .

لكن موقعه كان شيئاً آخر ، فهو يقع على ثلاثة شوارع، أقلها كان ملاصقاً لمجلس الولاية الذي يرتاده الكثيرون، في حين كان مدخله الآخر يؤدى إلى شارع البلدية والذي تقع به أكثر من مؤسسة . أما المدخل الأساس فكان مواجهاً لمقر «البوليس » الاتحادي، وإدارة المهاجرة، ومجموعة من العمارات التجارية، أشهرها المقهى التجاري ونادى الاتحاد، وهو أحد المنافذ المؤدية إلى شارع الشط .

فوق ذلك المدخل والمبنى المتواضعين، رفعت لوحة كتب عليها، وهي السوداء، باللون الأبيض نادي الشباب الليبي الثقافي الرياضي .

والمرء لايتجنى إذا قال إن الكتابة ليست لافتة للنظر كما أن الجالسين لا يوحون بأي شئ مهم . إن بعضهم يلحظ في أحيان

كثيرة أمام « براكة » الحاج مصطفى التي تتوسط الميدان حيث يشتد الخلاف ويحتد الخصام إثر كل مباراة في كرة القدم، خاصة حين يكون فريق المدينة أحد الفرق المتنافسة، وهو الفريق الذي لايكتفي الحاج مصطفى بالوقوف إلى جانبه في الميدان، بل يسخر بيته ومصدر رزقه له وللاعبيه ومشجعيه الذين يأتون صباح مساء إذ يصر الحاج على تزيين « واجهة البراكة » بصور الفريق، بمن فيهم المهدي الذي انسحب وانضم إلى الاتحاد لأن الحاج يؤمن بضرورة عودته ذات يوم إلى فريق المدينة مهما طال الزمن – «الطير يقول وكرى وكرى» .

هكذا يردد الحاج إذا ما نوقش في أمر الصور من قبل تلك الأعداد الكبيرة من البشر ممن يقفون أمام مقصفه، ومن بينهم عدد من الذين يجلسون أمام هذه الناصية، في معظم المساءات الصيفية، يتحدثون عن أخبار الكرة وعن المباريات الودية التي كثيراً ما تقام خارج الموسم .

أما المترددون على المكان في الصباح فقد كانوا يوحون بأنه مجرد مقهى من المقاهي الشعبية، وربما خرج بعض الموظفين من المجلس وعادوا حاملين بعض الشطائر من هناك .

هو يلمح ذلك باستمرار نتيجة تردده على مبنى المهاجرة وزيارة المدير «أبوبكر » الذي انتقل في ذات الفترة من مصراته . كان أبعد ما يدور في الخلد أن يلج هذا المكان .

كيف تم ذلك ؟

تلك قصة من قصص القلق الذي ملأ النفس ذات صيف اتضح فيه عبث الاقتصار في التفكير حول مشكلات القرية والحي والمدينة، والوقوف بالقراءة أمام أعمدة الفكر التقليدي، لا فرق في ذلك بين من واصل رحلة الدراسة حتى بلغ مدارج الجامعة وبين من وقف دون ذلك، فلاشئ منهجياً يذكر كان ذا صلة بالحياة، فالسائد على الدوام هو ذلك الذي يبعد كثيراً عن حركة الحياة .

قبل هذه القضايا شبه الكبيرة، أو إلى جانبها بالأصح، كانت هناك أمور أقرب إلى حياة الناس وإلى أمورهم اليومية، من ذلك مسألة التعريف أو البطاقة الشخصية التي لم تقرر بعد، فكان همّ الكثيرين، كيف يكون لديهم تعريف يمكن بواسطته توكيد الاسم والعنوان، إذ لا يمكن القيام بأي معاملة بدون التعريف من قبل شخص له محل أو «عتبة» كما يقولون .

كلام كثير قاله ذلك الذي دخل المدينة في فترة مبكرة، وحاول الشغيوى والمقدود إدخاله في سلك التعليم بالكيفية التي دخلا بها، وتعذر ذلك لأن الزمن قد تغير، فاضطر إلى سلوك طريق آخر، تمثل في العمل مع «سي عبد المجيد»، واتخذ من عنوانه المرقم بـ119 شارع المأمون سبيلاً لاستلام رسائل عديد الأقارب من الذين لم تكن لهم أماكن معروفة، واكتشف مشكلة عدم وجود التعريف لتسيير أعمال سي عبدالمجيد مع «بنك روما» أو «بنك بار كليز»، فذهب مع أحمد إلى النادى

الأهلي وسدد الاشتراك وحمل في جيبه التعريف، وصار يشجع غيره على القيام بذات العمل حتى لايظل بلا هوية، من جهته لم يلتفت لهذه الجزئية لأن المجلس صرف تعاريف لموظفيه، مع أنه كان من المنحازين للأهلي والمعجبين بتمريرات الخمسي وسعد ورجب . مخالفاً بذلك أبناء العشيرة المشجعين للاتحاد .

كان المجئ إلى نادى الشباب مختلفاً عن ذلك . فقد كانت هناك أخبار جديدة عن أشياء بدأت تتحرك في المدينة . ظهرت علاماتها الأولى عند إعادة تشكيل المجلس وظهور الهاشمى والحاج رمضان المعروفين بصلتهما بالعمل الوطني .

والأستاذ عبدالله الذي منح رخصة المحاماة بعيدا عن سلطات الولاية، والشيخ على الذي تأثر بكتاباته وبموقفه الشجاع أمام الوالى، فقد قيل إنهم اجتمعوا بذلك النادى، حين جاء محمود (الكركوبى) فتحدث عن ذلك الاجتماع المهم، المتصل برئاسة المجلس .

هو يذكر الكركوبى منذ أن كان بالأشغال العامة في بداية العمل الوظيفي، ويذكر خطه الجميل، وتعاطفه مع المجموعة الرافضة للعناصر الايطالية، وهو الآن يتكلم عن الاجتماع وعن شؤون الرئاسة وأمور كثيرة هو في أمس الحاجة إلى معرفتها، فهو من موظفى المجلس، ولم يعد لديه من يسند ظهره، عليه أن يؤمن مستقبله، لقد تغيرت الأمور، وضمت المنطقة لولاية أخرى، ونصح من الرمرام بالتسجيل في نفوس طرابلس وقد

نفذ هذه المهمة، لكنه يحتاج إلى علاقة ما بالمكتب، على الأقل بالنسبة للإجازة والعطل وقضاء أيام العيد . بكل المقاييس هو يحتاج إلى ذلك المكان وإلى النادى بالذات، الغريب أنه عندما طرح الأمر، أمر الانتساب إلى أحد النوادي على ابن عمته، سي عثمان كانت الاشارة لهذا المكان، وهو على أى حال قريب من الهيأة، ومن المطعم الإنجليزى الذي يعمل به الصديق على . وهو يضم مجموعة من الشباب وله فريق كرة سلة وكذلك القدم والسباحة ورئيسه الجديد (محمود) إنسان طيب، هكذا قال عثمان، وقد اتصل بمحمود في الخصوص .

لكنه سلك طريقاً آخر، فقد جاء ذات مساء وبعد التحية والاستقبال طلب الاطلاع على قانون النادى مبدياً رغبته في الانتساب، وحين مكن من ذلك كان أهم مالفت النظر، أن الرياضة، قد أضيفت بخط الخبر، والتعليل أن الإلحاق تم من الدوائر الأمنية لأن النوادى رياضية بالأساس، فالتجمع لايكون إلا من أجل الرياضة، وقد اشترط النص عليها كي تمنح الرخصة !

هذا التحفظ هو الغاية المنشودة، فليس المستهدف الرياضة ولا لعبة من لعبها، خاصة وأن آثار البرد المزمن لاتسمح بأى نشاط، وإنما المستهدف هو ذلك الذي يخشى، وتفرض الرياضة من أجله .

لم تستغرق المسألة كبير وقت، فقد عرف الجميع أنه قريب، سي عثمان، وأن له مجموعة من الاهتمامات، ملئت استمارة

العضوية وسلمت الصور، ومنحت البطاقة، وحين حمل البطاقة أحس بأنه يمتلك شيئاً مختلفاً لا يحمل اسم الولاية ولاتوقيع المسؤول ولا ختم الجهة الرسمية، إنه مكان فرضت عليه الرياضة فرضاً، ومادامت الرياضة قد فرضت فلابد أن يكون الهدف أكبر بكثير، هدفا تعرفه السلطات، وربما تحاول أن توقفه أو تحد منه .

– الجدران مكسوة بمجموعة من اللوحات التي تشكل معرضاً لأحد الفنانين الشباب، عناوينها متصلة بالتفجير الذري الفرنسي والطائرة التي أودت بحياة الشهيدة معيتيقة وعناوين أخرى كثيرة من بينها صورة للمواطن العربي الأول الذي ترك الرئاسة من أجل الوحدة العربية، فاكتسب مكانة متميزة في وجدان المدركين لمرض الرئاسة في الوطن العربي .

تتوسط الصالة الصغيرة لوحة كبيرة، علقت عليها صحيفة حائطية أطلق عليها (اليقظة) يتقدم اليها الموجودون جماعة بعد أخرى يقرؤون المادة بتمعن ويناقشون كل جملة وكل اسم . اكتشف أن المقال الافتتاحي يتناول مأساة معيتيقة وقصيدة عن ثورة العراق ومواد أخرى متفرقة . لم تكن الصحيفة مجرد نشاط بسيط كذلك الذي يقوم به بعض الطلبة، ولكنها تتناول أموراً في غاية الأهمية .

وكان الذين يكتبونها يسعون لترسيخ ما يكتبونه وإلى تقديمه لمن يقرأ، الأهداف تتجاوز القراءة، كما أن القراءة لا تتم

بعفوية ولكنها تسعى إلى تحقيق غرض ما هو الفهم بالدرجة الأولى .

أعداد من الموجودين تقرأ متفاعلة، مع تلك الحروف المتقدة غضباً وثورة على الاستعمار وأعوانه، والأحلاف وأنصارها . وأخرى تتابع صامتة وقلقة وثالثة تراقب هؤلاء وهؤلاء، والحديث يدور حول مختلف الشؤون وعلى الأخص عند الغروب، حيث يخرج بعض العاملين في الإذاعة من شارع الزاوية ويقفلون راجعين بعد تعاملهم مع قسمي التمثيل والأحاديث المتداخلين كل التداخل مع قسم الموسيقا، فيبدو المكان جزءاً لايتجزأ من ذلك العالم الذي عرف البدايات الأولى لتحقيق المردود المادى من هذه الأنشطة التي كانت إلى وقت قريب تتم من باب الهواية، وإذا بها الآن تطرق باب الاحتراف خاصة عند المناسبات الدينية والوطنية حين يعلو الحديث عن أسماء محددة استفادت وأخرى استبعدت، وثالثة قدمت جزءا مما نالت بهذا القسم أو ذاك . انها لعبة المصالح التي أخذت بداياتها الأولى تتكون .

- لم تكن ثمة رهبة تنبعث من المكان، ولم تثر المخاوف عديد الأسماء التي بدت واضحة في وجودها من غير الوسط، وربما لم يتعذر اكتشاف مهمتها المتصلة بالرقابة . وذلك لأن المستهدف هو اقتحام ذلك العالم، هو تكوين قاعدة تتجاوز الآفاق المحدودة التي عرفها عبر القرابة والسكن والعلاقات الموروثة . فما يزال

لديه الحنين إلى الجيل الذي هو منه، بكل تفاصيله البسيطة، بكل طموحاته . صحيح أن الارتباط بالمحيط متوفر، ولا توجد مشكلة في المكان، لكن الضيق يتجلى في البقاء المستمر داخل وسط قروى محدود ينتقل مع المرء أينما كان .

استشعر جمالية «الهندام» المتكون من «جاكيت »أبيض، وبنطلون أزرق غامق، وأن الاختيار كان موفقاً حين لم يستمع إلى نصيحة مرافقه الذي أشار بأن اللون لا يحتمل ويحتاج إلى عناية خاصة، فقد أثار المظهر اهتمام عديد الجالسين، عندما سئل عما إذا كان يستطيع عقد ربطة العنق بنفسه استغرب أن يكون هناك من لايعرف، على أنه تذكر كلمة ذلك القريب الذي قال له منذ سنين بعيدة وقبل السفر من هناك - أقعد نعلمك تسافر وما تلقانيش .

حسناً فعلت ياسنوسى العكشى هكذا قال في نفسه حين بدأ المزاح بين الجالسين تجاه الملابس والاختيارات . ليبدأ الحديث عن مسابقة القصة القصيرة للكتاب الناشئين التي أعلن عنها النادى منذ مدة، وعن الجديد في الإذاعة وما تكتبه الصحف والعديد من الأمور المتصلة بفريق السلة وهي اللعبة الحديثة نسبياً .

كانت لوحة الإعلانات ماتزال تحمل الإعلان المتضمن دعوة الأعضاء إلى حضور حفل التوديع الذي أقيم لأحمد رئيس النادى السابق الذي انضم إلى الكلية العسكرية في بنغازي وسافر قبل أن يلج المكان . يبدو أن المجموعة لاتريد نزع الإعلان

لشدة الارتباط بذلك المسافر . الذي كان موضع إعجابهم وتقديرهم جميعاً ، وما يزال الشوق اليه يملأ النفوس . أحزنه ألا يكون قد عرف ذلك الزميل . غير أنه عند الحديث عن المكان الذي يعمل فيه وجد نفسه على معرفة به ، فقد ألتقاه مرات عديدة إذ كان المختص الوحيد بالبيع لكل من يريد جهاز «راديو» أو ثلاجة بواسطة التقسيط الذي عرف طريقه إلى حياة الناس ، كما أنه من أصدقاء أبناء سي عبد المجيد . على أن الأمر لم يكن متوقفاً على المشاعر الشخصية ، وليست الرغبة في معرفة المسافر تتصل بالجانب الخاص ولكنه نتاج أمور أخرى وأسئلة أكثر تفصيلاً :

- هل كان دخول رئيس النادي للكلية العسكرية مجرد خيار شخصي ، أو لدور النادى ذاته ؟وبتحديد أوضح : هل هناك من يشير على البعض بهذه التوجهات ، خاصة عندما وجد التكيتك وسالم والدوس في سلك الشرطة؟ وبعد أن قص لطفى قصة التأسيس من البداية .

- كان لطفى شديد الإعجاب بكتاب «الله والإنسان» لمصطفى محمود وكان يعاني أزمة فكرية حادة ، بيد أنه بالمقابل شديد الاهتمام بموهبته الفنية وعلى المشاركة في المسلسلات الإذاعية ، بعد أن تأسست الإذاعة كجزء من مصلحة المطبوعات الاتحادية التي أنيطت بأحد الصحفيين وزودت بعدد من ذوى الخبرة وجرى الإعلان عن قبول بعض المذيعين .

- لاحظ أنه غدا مثار اهتمام الكثيرين، على صعيد المؤسسة، ولوجود مكان شاغر بمجلس الإدارة فوتح في إمكان الانضمام إلى المجلس، ولأنه جاء برغبة خاصة لم يجد بداً من القبول، وأن التخلّي عن المكان الذي وجده له سي عثمان في لجان الهيأة الرياضية العليا وبثلاثة جنيهات شهرياً، فقد فضل العمل بمجلس الإدارة وهو تطوعي ولايجوز لصاحبه أن يعمل في الهيأة الرياضية العليا . لكن قانون النادى كان ينص على أن يكون العنصر المختار من أعضاء الاحتياط، وهذا ما قيل له بعد أن قبل المهمة التي بدت وكأنها مخالفة، ولكن الذين أقدموا على الإجراء لهم مبرراتهم على ما يبدو، وهو لم يبح بجزئية الهيأة الرياضية، فقط كانت الأحداث تتوالى بسرعة، والتطورات الجارية في الوطن العربي لها تأثيرها على الداخل بقوة شديدة، والتطور الاقتصادى المحلي له دوره، وهو يعيش في قلب الأحداث ويلحظ أثرها أكثر من غيره . والواقع الخاص يبدو بين مد وجزر، قد تتغير الصور، وقد يختلف المواطن لكنه قائم كسمة عامة، والمكان خلية متحركة تضج بالداخلين والخارجين كل بطريقته وكل بأسلوبه، أسرّ البهليل ذلك الشاب الطويل أنه بصدد التخلى عن السكرتارية لتسند إليه في وقت آخر، وأن العضوية مقدمة فقط، فالبهليل لم يكن راغباً في أي شئ إلا التعاون مع المجموعة وسد الطريق أمام بعض من جعله يقبل، هكذا قال سرا، فهو مع الجماعة وليس ضدهم، شرح

صدره ذلك الجو الأخوى المشبع بالانفتاح والرغبة في العمل الجاد وإعطاء الفرصة لكل من لديه قدرة . أدرك أن المدينة مفتوحة للجميع واستنكر ما يسمع عن انغلاق الناس في أماكن كثيرة . اكتشف أن الخلل في الأشخاص قبل كل شئ.

كان يقرأ كتاباً يتناول حياة (أبو شادى في المهجر) عندما اقترب منه أبرز الشباب الحاضرين وأبدى تعليقاً غير جيد بصدد ذلك الكتاب على اعتبار أنه يمثل ثقافة منعزلة عن الواقع وعن القضايا التي تهم الجميع، كان شديد الضيق ببعض الممارسات الجارية في الإذاعة والتحيز الذي يشوب بعض القرارات، وانعدام العدالة في توزيع الأدوار وقبول الإنتاج من المتعاونين، كان عضواً في الفرقة الليبية الحديثة التي انضمت بموجب اتفاق مكتوب لأن تسمية النادى ذات دلالة، وبعد تاريخى، لابدّ للمخلصين أن يسعوا لتعميقه كما يقول لطفى فهو - كما يصف نفسه - من أسرة اعتادت أن تقول الحق، وبالتالى فهو لا ينكر دور الذين ساندوا النادي بمن فيهم السيد عبدالله الذي توسط لدى الحراسة بحيث أمكن الخروج من زنقة الخمام الصغير. لقد اختير الاسم ليكون امتداداً لنادى ليبيا في مصر الذي تعطل دوره، بل إن القانون وضعه الطلبة الدارسون هناك والذين عادوا مبعدين عقب المعاهدة الأمريكية وتسوية الخلاف بين السلطات الليبية والمصرية، ووقف النشاط المعادى ! وذلك قبل تأسيس الجامعة الليبية وتضاؤل الدور المصرى .

اتضح أكثر فأكثر أن النادى مشروع نشاط وطنى داخلى، وذلك سواءً مما توفر من المعلومات أو من تردد بعض العناصر، وأن اختياره أيضا مرتبط بهذه المسألة، وعلى الأخص ذلك الذي اقترب منه وحاول الوقوف على عوالمه الفكرية .

كانت القراءة المفضلة منصرفة إلى الأدب والسير والمذكرات السياسة، ومحاولة الكتابة متمثلة في الشعر التقليدي، فيما كان أبرز الموجودين منصرفاً إلى القصة . كما أن النشاط الثقافي متمثل في الندوات، بالإضافة إلى الجريدة، ويومها طرح موضوع دور النادي في المجتمع، وكذلك العكس كانت إدارة النادى قد اتصلت بالعناصر المعروفة للمشاركة في الموسم الثقافى، لكن الحجة في الاعتذار انطلقت من صغر المكان، والحقيقة هي حساسية الموقف، فتقرر الاعتماد على المنتسبين أو الذين لهم موقف مبدئى من الواقع، وقد أثيرت يومئذ مشكلة منتوجاتنا المحلية وتحدث حولها بدقة شديدة كامل الذي أحزنه ما كان ينفق لترويج منتوجات الصابون الأجنبي على حساب الصابون المحلي وعديد من الصناعات الاستهلاكية المشابهة، لم يكن الموضوع مهما لعديد من الموجودين لتأخر مستوى الوعي، ولكن مقدم الندوة تحدث بحماس حتى ليبدو ولمن لا يعرفه وكأنه صاحب مصلحة مباشرة وليس مجرد موظف بسيط يسكن في بيت جماعي يطلقون عليه تجاوزاً اسم فندق . ثمة صوت ارتفع عند التعقيب وبلهجة شعبية مبسطة

ألأ مستقبل للناس بدون صناعة وطنية تستوعب رجال الغد، لأن الدولة لن تستطيع تشغيل كل الناس ولا أمل لهم في الرزق مالم تكن هناك مصانع تشغلهم، فالمشكلة إذن مشكلة الجميع والدفاع عنها مشكلة الجميع .

- اتضح أن الثقافة ليست في الأمور الأدبية وحسب، وأن الشعر ليس فقط ذلك الذي كتبه منذ سنين طويلة أمثال البارودى وشوقي وليس أيضاً الذي تنشره مجلة الأديب «ولاحتى أبو شادى وأبو ماضى»، ولكن الثقافة تهتم بالصناعة وتهتم بالسلع والعمال ومن الضرورى أن يقرأ المرء كل شئ عن تلك العوالم والقضايا .

ولهذا استشعر مسؤولية تكليفه بالإشراف على النشاط الثقافي المتمثل في الصحيفة وفي بعض الندوات لأن المهتمين في الصحيفة لايعرفون هذه الأمور ولا يعيشون هذه المواجع، وهو أيضاً لم يكون الفكرة الكاملة عن مثل هذه القضايا على أنها مشكلات قائمة وتهم الناس جميعاً، كما طرحت في النقاش العام والجانبى وهو أكثر أهمية .

- كانت الثورة العراقية قد تفجرت، وأحداث لبنان قد وقعت وارتفع الحديث عن الأدب الهادف والفكر الملتزم ، وتأكد أن الشارع العربي مقبل على بعض الأحداث .

إن فن القصة القصيرة هو المسيطر، وكان ثمة إنتاج قد قدم لمسابقة الكتاب الناشئين مما استوجب تشكيل لجنة للتقييم

فعرض الأمر على الهيأة الإدارية، وقد هاله أن يجد نفسه معزولاً عن الواقع، ولم يكن يعرف أحداً من أولئك الذين دار حولهم النقاش لتولي مسؤولية التقييم، كان الذين دفع بهم أبعد الناس عن فن القصة بالرغم من أنهم ينشرون كلاماً يطلقون عليه اسم قصة، ذلك أن القصة تحتاج إلى معايير فنية تقوم بواسطتها وشروط أساسية لابد أن تتوفر، كما تحدث عبدالرازق في اجتماع الهيئة وجاراه في ذلك محمود، وبدا له أنهما يكتبان شيئاً من هذا النوع لكن المفاجأة كانت في أنهما مجرد قارئين ومتابعين، زود النادى بمجموعة من الكتب وكذلك الروايات والدراسات النقدية، وتم وضع قواعد للإعارة، وحددت فترة للقراءة اليومية ويحاول البعض إعارة ما لديهم، فانشغل الجميع بالقراءة والمناقشة، ولوجود فارق فقد قرر مواصلة المسيرة بحزم لتعويض ما فات واللحاق بمن وجدهم قد سبقوا .

أحد المترددين كان يمارس نشاطاً نقابياً من خلال المطبعة المملوكة لأحد الايطاليين يلاحظ عليه الاندفاع بل التهور في موقفه ويبدو على هيأة الاستعراضي أكثر منه صاحب موقف حقيقي، كان يحرص على حمل بعض الكتب الغربية، ويتحدث عن قضايا تتجاوز الواقع العمالى إلى حد الحديث عن التفجير والعمل السرى، لم يستشعر الارتياح نحو مواقفه، فهو على أحسن الفروض غير سوى عقلياً إذ لا يعقل أن يوجد من يعمل سياسياً بهذه الكيفية وعلى هذا المستوى من التهور .

تلك هي الأسئلة التي حاصرته لدى اقتراب ذلك الفتى منه والذي يبدو عند الحديث وكأنه يعض شفته السفلى وكثيراً ما يبدو لمن يقف أمامه وكأنه ينظر إلى مكان آخر . وقد يتبادر إلى الذهن أنه يحذر من جهة ما حين يتحدث، ولكن حين لايكون ثمة أحد يتضح أن الأمر يتصل بالنظر قبل أى شئ آخر وأصراراً على التظاهر في كل الأمور.

لم تكن ثمة مسؤوليات عائلية، فالشباب فرصة فريدة، والوظيفة ذات المرتب المعقول الذي خصص للمطالب الشخصية.

هكذا تقرر حين استقر بالمدينة إذ لاخوف على الوالد بعد أن عين مرة أخرى بالمجلس، وأضحت المزرعة تدر دخلاً جيداً فبالإمكان المعيشة بدون التزامات، فصار من الضرورى أن يكون مكتبة جيدة تختلف عما كان يقرأ، فعمد إلى شراء القديم والجديد وتم اختيار أصغر الحجرات ليقرأ ليلاً من غير ازعاج لعديد الأقارب الذين اتخذوا البيت استراحة لهم مكنتهم من اجتياز من كانوا على خلاف معه، كان يعود متأثراً بما سمع وقرأ واستوعب، وهو يحتاج إلى مناقشة أحد ما فلا يجد من لديه المستوى المطلوب، هم أيضاً لاحظوا كثرة التردد على النادي وعدم البقاء كثيراً إلى جانبهم، باستثناء الأوقات المتصلة بوجبات الأكل، وقد تزامن هذا مع انقطاع تردد الوالد على المدينة لتغير جهة العمل، لكن السرير ظل وكل الأمور متيسرة .

كان يحاول تطبيق ما يقرأ على الواقع، خاصة لدى قراءة

«سوق القرية» لعبد الوهاب البياتي . إن الدراسة النقدية تقول إنها من صور اليوت ، أما واقع الحياة فيقول إنها صورة القرية البعيدة عقب الحرب العالمية الثانية . عندما انعدمت الأحذية وأنقطع الكيروسين، وتحولت النقود إلى طرفة بكل معاني الكلمة .

كان يستعيد من الذاكرة كل الصور وكل التفاصيل التي ملأت القصيدة وكذلك التي لم ترد فيها ، فقد تمثل كل شئ من واقع الحياة عندما أصبحت الشمس هي الوسيلة الوحيدة للتمتع بالدفء عبر تلك الربوع لجميع الأطفال الذين كانوا في سنه والذين دأبو على تعريض أجسامهم لأشعتها الجميلة لطرد سياط البرد الزمهرير . كان النص والحالة هذه صورة للحياة وظل من جانبه يحاول تقريب الصورة، لم يكونوا في الحقيقة على مستوى من التعليم للوقوف على جماليات النص ولكنهم على مستوى من الوعي للاستجابة لصورة الذاكرة .ولأول مرة وجد نفسه أمام نص له علاقة بتجربة معاشية تلمسها الناس ذات يوم ولو كان بعيداً بعض الشئ، إن النزعة المتمردة والرافضة للاختيار صار من الممكن استخلاصها من تجربة القرية من واقع الناس هناك، بدأ الواقع ينتج نفسه من جديد، والأرضية التي يتحدث عنها النص موجودة في الحياة في التجربة المعاصرة، بدأ على علاقة حميمة مع كل ما يقال ويطرح، وقابلية التلقي تفوق الوصف . لم يعد يعرفها آخرون

وتحتاج إلى متابعة . الأسماء التي تتكرر وتتردد على ألسنة الكثيرين من الضروري معرفتها ومعرفة كل شئ عنها خاصة بعض الإجراءات الإدارية التي اتخذت بصدد البعض مثل النقل من المدينة وما إلى ذلك .

لدرجة أن من تخرج اختصاصياً في التعليم طلب إليه أن يتوجه إلى العمل بمصلحة البريد !

2

لم تكد تمر بضعة أسابيع على قيام الثورة العراقية . حتى وصل وفد شعبى للتعريف بها . ضمن جولة في الوطن العربي، وكان مكوناً من مجموعة من الشخصيات المعروفة بمعارضتها لسياسات نورى السعيد، قبل وصول الوفد وبمجرد الإعلان عن خروجه من بغداد التي كانت اذاعتها مسموعة للغاية، جاء النادى أكثر القضاة شهرة، وطرح على الهيأة الإدارية إمكانية تبني الاستقبال للوفد المذكور بمعنى أن تكون شرعية الاستقبال متمثلة في النادي . كان العرض في صورة محاولة لخدمة النادى وبدأ صاحب الفكرة واثقاً من نفسه، لكن المجموعة ارتأت غير ذلك تماماً، كان الرد بصريح العبارة: إن الوفد سياسي ولا مصلحة للنادى بمخالفة ما هو محظور في نصوص الترخيص، فالمهمة ثقافية اجتماعية، والوفد يمثل مجموعة من الأحزاب المعلن عنها .

حاول الرجل أن يطرح فكرة إلقاء محاضرة ثقافية في أى مجال من المجالات، لكن المجموعة كانت مصرة على التخلص من أى إسهام في المهمة، لم تكن لديه فكرة عن هذه الأمور ولا يعرف عن الرجل سوى أنه شقيق الحاج إبراهيم الذي كان إلى وقت قريب يدير أعمال سي عبدالمجيد ويدرب أحد أصدقائه

تدريباً جيداً، لكن المجموعة كانت متوجسة وغير مطمئنة، وبالفعل لم يكد يحل مساء اليوم التالى ويصل الوفد إلى «الغراند هوتيل» حتى كان التجمع اللافت للنظر . والذي ضم كل الوجوه المعروفة وأعداداً كبيرة من الجماهير النقابية، من بينهم ذلك القاضى، وعددا من المستقبلين البارزين، في حين كانت قوات البوليس تسعى بكل قوة للحيلولة دون تقدم المجموعة ، الأمر الذي أدى إلى شبه اشتباك بالأيدى، فصحت بالتالى حسابات المجموعة، وبدا أن الحذر في محله إذ قدرت المجموعة أن في الأمر سراً ما .

لقد أدت هذه المحاولة إلى بحث الهوية الحقيقية لعديد الأسماء الحاضرة ومدى علاقتها الفاعلة بالمشروع الثقافى فضلاً عن العمل الوطنى الذي بدأت ملامحه الأولى تتحدد، لاحظ أن عبدالرزاق يتوفر على دراية جيدة بالخلفية الكاملة لكل الأسماء المطروحة، من حيث القدرة على العطاء الثقافى والفعل السياسى . وقد أكد أن صاحب فكرة استقبال الوفد العراقى من أكثر الشخصيات قدرة على تحريك المشاعر وأنه يستطيع البداية ولو بثلاثة أشخاص، مع أنه ليس مؤطراً في أى إطار سياسي حسب المعروف بالشارع، وأن آخرين أيضاً غير مؤطرين، وأن التأطير يشمل أكثر من فريق، وأن بعض الأطراف دخلت في مشروع عملى، «عبدو» على علاقة مع كل الأطراف بنسب مختلفة، وهو لايخفي هذه الحقيقة لكنه لايتخذ من ذلك سبيلاً

للتحامل، لم يكن قد أمضى كبير وقت بعد حصوله على عمله الذي كان فرحاً به للغاية لكونه في أهم المرافق وأكثرها التصاقاً بالناس مما صادف هوى في نفسه، وقد تداخلت علاقته مع المسؤول الأول بين الشخصي والعام، والسبب أن المسؤول عرف كيف يسوس الرجل، فهو من الذين تأسرهم الكلمة الطيبة، وكلما شعر بقوة الرهان على شجاعته ازداد عطاؤه وتضاعف جهده، صلته بالوسط الرياضي قوية، وكذلك مسقط رأسه (حى الظهرة) . ومسقط رأس أبيه أيضاً فهو من الذين يكونون فاعلية من فاعلياتها، لكنه يدرك ما طرأ من متغيرات وما كان يبدو قادماً أيضاً، خاصة بالنسبة للزحف الريفى، إن عمله بقسم العقارات أتاح له الانتباه إلى هذه المسائل بشكل متقدم ربما بل من المؤكد أنه لم يتحقق لأولئك الذين كان من المفروض أن يتفطنوا لهذه التطورات والتي سيكون لها أثرها في حسم أمور كثيرة .

إن عالم الرياضة والرياضيين واسع للغاية، وعمق العلاقة لاتحتاج لأشياء كثيرة، فهى تبدأ من ارتياد الجلسات التي تعقد عقب كل مباراة متصلة بدورى كرة القدم والدورى المساعد، وقد كان فريق النادى في طريقه إلى الدرجة الأولى، في حين كان فريق السلة في وضع جيد، لكن الأهمية في التقدير الرسمى لكرة القدم، هذه هي الصورة العامة، أما الخاصة بالقاعدة الجماهيرية فإنها تختلف، لأن رياضة كرة السلة أكثر

رشاقة وأبعد عن اللجوء إلى العنف، كما أن جمهورها لايقبل ما يسود جمهور كرة القدم من فوضى .

ثمة رياضة أخرى كانت قد دخلت، هي رياضة السباحة التي كونت لها الهيأة العليا اتحاداً متخصصاً، وقد ضرب «فتحى» أروع الأمثلة في هذه الرياضة باسم النادى وحصل على أعلى الدرجات في عديد من المسابقات . لقد خرج من طفولة مفقودة كما يقول عن نفسه إذ عاش مسؤولاً من البداية، فلم يستطع أن يستمر في الدراسة وإنما ذهب إلى المجال الحرفى الوحيد والمتمثل في الحياكه، بدأ من النول كالعادة ثم اتجه إلى مجال أرحب تمثل في الملابس وهو المحتكر من اليهود والإيطاليين، باعتبار أن المستهلكين من نفس الجنسيتين، وعندما تعود الليبيون ارتداء هذا النوع من اللباس كان المهرة وأصحاب المحلات من أبناء الطائفة اليهودية باستثناء القلة التي وجدت طريقها إلى هذه العوالم، ومن هذه القلة فتحى الذي أفلح في تكوين نفسه، وتحسين مهارته، واختار طائعاً مختاراً العمل مع الحاج سالم الذي تحصل على ترخيص لممارسة هذه المهنة رغم أنه ليس صاحب صنعة، مع مجموعة من الشباب وشريك مالطى، وظل فتحى يثابر ويستعد للالتحاق بأحد المعاهد لنيل الشهادة التي تؤهله للحصول على رخصة بنفسه، إن الأمر يحتاج إلى جهد وإلى تدبير مبلغ مالى لاقدرة له عليه الآن ولكن لابد من المصرف ودفع الفوائد، فهو لايطيق الدين ولايقترب من الربا، لقد

عرفت الحياة أشياء جديدة وأساليب اختلفت عن الماضى، معظم التجار عرفوا هذه الأساليب وصاروا يودعون الأقساط في المصارف ليحصلوا على الثمن الذي وسعوا به على غيرهم، هناك من وجد رأياً دينياً اعتمد عليه، وهناك من تغاضى، وهناك من لم يتوقف أمام المسألة بالكامل، إن فتحي يعرف هذا الواقع حق المعرفة ويوصي على أصحابه الذين يريدون شراء ملابسهم بالتقسيط، ولكنه لا يقترض من المصرف ولايتحمل مسؤولية أى رأى في الخصوص، هو يدرك أنه محدود التعليم فلا يريد أن يتورط في أى موقف يعجز عن حمل مسؤوليته، وهو يحمل مأساة كبيرة بدأت منذ طفولته الأولى حين انفصل الوالد عن الأسرة وترك جميع أطفاله للوالدة التي اشتغلت في البيوت وباعت الخبز وكثيراً من السلع لتتمكن من تربيتهم جميعاً، منذ نزوحها بهم من تاجوراء واستقرت في باب البحر، فارتبط هو من البداية بعالم البحر، حتى إنه عمل «صياداً للسمك» بعض الوقت ثم عاد وانصرف إلى الحياكه، أكثر الموجودين في النادى لايعرفون هذه الحقائق، فالعلاقة بالرغم من قدمها محدودة ولاتتعدى المجاملات والنشاط اليومى والسبب حدده ذات مرة في كلمة واحدة :

- الصحبة واعره ياخوى .

- كم ارتاح لهذه الكلمة التي همس بها إليه ذات مساء عقب فوزه في إحدى مسابقات المصيف البلدى، عندما تحصل

على الترتيب الأول، عند حضور تلك المسابقة رغم أن المسؤولية الإدارية كانت محصورة في الجانب الثقافي، فاعتبر الحضور كنوع من التشجيع المتكامل للنشاط، من ناحية ودليلاً على شعبية صاحب المبادرة من ناحية أخرى، لكن المعني بالأمر مباشرة نظر إلى الأمر باعتباره تكريماً لشخصه، وهو كذلك بالفعل، ولأن الأمر كذلك تحدث فتحى كثيراً عن عوالمه الخاصة وهي عوالم تبدو في نظراته الشاردة التي يسعى إلى التغلب عليها بالابتسامة والاستغفار المستمر، إنه الجانب الذي لم يكن ليظهر لولا المناقشة الفجة التي دخل فيها البعض بصدد الوجود ومشروعية الصوم وبالأحرى جدواه، حين فكر فتحى في الانسحاب من الحضور في حالة السماح لمثل هذه الآراء بأن ترتفع، فالرسالة التربوية للنادى كما يفهمها ينبغى ألآتسير في في هذا الاتجاه، غير أنه يفرق بين موقفه هذا وموقف صنوه في الاسم الذي يقوم بمهمة ذات صلة بالأجهزة، وتحاول أن تركز على المسألة الدينية، فهو يدين جملة وتفصيلاً كل علاقة من هذا القبيل، حتى وإن ادعى أصحابها نوعاً من الحدب على الدين مثلاً، فمع هؤلاء كما يقول، لا ينتظر شئ يمكن أن يخدم الدين، فالدين نهى في البداية عن التجسس وعن الغيبة، وهؤلاء سيقومون بكل هذه الفعال.

لم تكن الكلمات بهذه الحرفية ولكنها كانت بهذا المعنى على أن الأمر مالبث أن طوق، وعادت الأمور إلى حيث بدأت

وكأن شيئاً لم يحدث، وليس ثمة شئ يصعب التوصل فيه إلى حل، مادام الهدف الأساسي متمثلاً في الحرص على سلامة النادى، والنهوض به والرفع من مستواه في مختلف المجالات التي وجد من أجلها والتي هي أولاً وأخيراً مسخرة لخدمة المجتمع .

- ترى إلى أى حد يمكن لهذا التفكير أن يؤدى، بمن ينطلق فيه - للقيام بدور ما، حاصره السؤال قويا وهو يعيد تقليب الأمر، وإلى أى مستوى يستطيع من جهته أن يطور هذه العلاقة التي بدأت تتكون، لتصل إلى ما يبتغيه لها من علو المنزلة وعوامل الاستمرار، حتى تصمد أمام الزمن، وتفلح في حمل المهمة التي يتطلع إلى أدائها في المدى البعيد،أى بهذا النوع من الأصدقاء الذين ارتفعت مكانته في وجدانهم على ما يبدو إلى ما يضاهي قرابة الدم، وهو المعيار الذي كان يحتكم إليه في الترجيح، قبل أن يقتحم هذه العوالم - ثم عاد وقلب الأمر من جديد، لينطلق من قاعدة أخرى مفادها أن الحياة لاتكون دائماً على وتيرة واحدة، وتصور واحد، فالناس في التعامل معهم مطالبون بالقيم الأساسية المتمثلة في الصدق والأمانة والمروءة، أما طرائق التفكير والنظرة إلى الكون والعلاقة بالكتاب وأسباب المعرفة الأخرى، فهذه أمور تخصهم وحدهم، ومن الخطأ أن يطلب اليهم أن يكونوا صورة طبق الأصل من المشتهي، فكل ميسر لما خلق له، حلت في اللسان كلمة صورة طبق

الأصل، إذ قفزت إلى الخاطر جملة له، بذات المعنى حملها ذلك الكراس الصغير المتضمن محاضرة أبرز المفكرين القوميين حول شخصية الرسول الكريم قال فيها « طبيعي ليس في وسع كل منا أن يكون صورة طبق الأصل لمحمد، ولكن في إمكانه أن يكون صورة مصغرة له، طالما كان ينتمي إلى الأمة التي حشدت كل قواها فأنجبت محمداً وحشد محمد كل قواه فكونها » فقد كانت مذهلة حقاً وزاد في قيمتها أن المفكر مسيحى الهوية مما زاد في اليقين بأن الحرب في لبنان ليست بالكامل بين المسيحيين والمسلمين بقدر ما هي بين مجموعات متحالفة مع بعضها، كل منها يتكون من المسحيين والمسلمين، لأن السياسة لاتعرف الدين، والمصالح لاتعرف الدين أيضاً .

خشي أن يكون بهذا التصرف يطبق ما قيل بصدد الصراع بين الفلسفات من أن الفلسفة المادية تقوم على فكرة الغاية تبرر الوسيلة، أو كما قال له ذلك الشيخ إنهم يلبسون لكل حالة لبوسها، حين كان النقاش حول بعض الصراعات المفتعلة والتي لم يكن لها مكان في الواقع أكثر من رؤوس القائلين بها، إن محاولة تطبيق القراءة على الواقع مسألة صعبة وكذلك النقاش، فقليل ما هم أولئك الذين يطبقون أفكارهم، أما السواد الأعظم فهم الذين يفرقون بين القول والعمل، وقد يكون ذلك أفضل، فخيط رفيع بين التحليل والخيال، بين الرأى والأمنية، أما سبب ذلك كله، فمرده مسابقة القصة القصيرة للكتاب الناشئين التي

أدت إلى فوز كل من كامل وخليفة، وقيل إن فوزهما نتج عن وجود لجنة مكونة من ذات التيار. كانت البدعة أو «التقليعة» السائدة أن يطلق على كل عنصر معروف صفة من الصفات السياسية، قد يكون ذلك بسبب رأي يقول به نظراً لما كان سائداً من استسهال للأمور وانعدام في تقرير المسؤولية واطمئنان خاطئ لسياسة غض النظر التي مارسها العهد، وقد يكون الأمر مبنياً على تطوع من الفرق العاملة في ذات الحقل، والتي كان يهمها أن يشمل الاتهام أكثر من طرف، وأن تقلل من المنافسة بواسطة تشويه الصورة وإطلاق التهم جزافاً، وفي أحيان كثيرة بتأثير فئات غير عربية بالغت في الحديث عن الخلاف وعن قوة الصراع بين وجهات النظر كما لو أن شروط الكيان السياسي لاتتحقق إلا بالإسراف الواضح في التصنيف العقائدى .

ما كان مصدر حيرته يومئذ هو عدم وجود إنتاج مهم قدم للمسابقة وجرى استبعاده للعوامل التي وقع الحديث عنها في أكثر من محفل ، كما لم تقم وسائل النشر بنشر انتاج رؤيَ أن الظلم قد وقع عليه، على غرار ما جرى في لجنة الشعر بمصر حين نشر أحمد عبد المعطى حجازى نصوصه الشعرية مهداة إلى رئيس لجنة الشعر، أكثر من ذلك فقد فاز خليفة في مسابقة لاحقة وفي أشهر معدودة، ربما بواسطة المجموعة التي لم تتردد على المكان، أكثرهم من الطلبة العائدين من مصر، وكان ذلك

جزءا من تحسسهم للواقع، كان أكثرهم من الحقوقيين ومن ذوى الفعل الملحوظ بمصر أثناء النشاط الطلابى بالذات، وكان بعضهم يحمل ترخيصاً لعمله من ولاية أخرى فلا يرى حرجاً من التحرش بالسلط المحلية، المجلس كذلك ضم بعض العناصر الشابة بمن في ذلك بعض الذين جرى تعيينهم، إذ لم يروا في ذلك التعيين أى دافع من دوافع التبعية فهم يعرفون بدقة من كان وراء اختيار أى منهم، وبالتالى فهم لا يستنكفون من إثارة أية قضية من القضايا، فقد بلغوا بتعيينهم قبل أن يذاع وينشر بفترة، فمن أين لأحد أن يدعى بأنه قد أعطى منة ما، في واقع لاسر فيه لأحد على أحد آخر، لقد كان هؤلاء جميعاً يرتبطون بطرف من أطراف الصراع المتصاعد، وكانوا كذلك يبحثون عن دور أكبر من ذلك الذي أعطي إياهم وفي بحثهم هذا يخوضون أكثر من جولة، ويحلقون في أكثر من سرب، ويتحركون في أكثر من حيز .

لقد انعكس هذا الوضع في المجال النقابى، لاسيما عندما أفلح بعض النقابيين في الجمع بين الصحافة والمهام النقابية، بالإضافة إلى عضوية المجلس مما أعطى فاعلية لطبيعة التحرك بل وساعد على تغطية بعض النزاعات الشخصية، كى تكتسب الطابع العام، فصار في متناول أى منهم أن يخفي موقفه المصلحى أو «الشللي» أو القبلى تحت مظلة الصراع السياسي أو المذهبى، فكان أن وقع الخلط في مجال المحاماة مثلاً بين العمل

المهني والموقف السياسي فكثر الحديث عن المحامين الرافضين للقضايا المرفوعة ضد العمال والمستنكفين الدفاع عن الشركات الأجنبية، في حين أن حقيقة التقاضي تفترض باستمرار وجود مدع يريد الدفاع عن نفسه، ويستعين على ذلك بالشاهد والوكيل وصحة الوقائع، وآخر يرفض التهمة ويوفر بالتالى ما يتطلبه الرفض من وسائل مماثلة، بمعنى أن المجال يتسع لمن يدعوه واجبه للترافع عن العامل، وكذلك من يمثل رب العمل، والفارق الوحيد إنما يتمثل في الأتعاب قبل أى شئ آخر، وهي التي يستطيع أي محام أن يتنازل عنها أو يقلل من قيمتها أو يبالغ في تقديرها، حسب الأحوال،لقد تأكد مع الزمن أن كثيراً من الكلام لم يخرج عن لعبة المزايدة المهنية التي تسوغها طبيعة المنافسة دون شك، حتى إن هذا الأسلوب أفلح في استدراج بعض القوى الوطنية عند طرح بعض التشريعات المتصلة بعديد المهن، بحيث كثر الحديث عن الاتجاهات السياسية بطريقة أباحت النعوت المختلفة،ومن منطلق مفاده أن بعض الاتجاهات ليست مستهدفة أو مرفوضة، مما أدى إلى إمعان بعض القوى في التحرك شبه العلني وغير المتسلح بأى مستوى من الحذر أو الحيطة، كما تقول أبجديات العمل السياسي، وصار بالتالى من الأمور العادية وغير المستغربة أن يتحرك البعض بطريقة مكشوفة ويمضوا إلى أكثر من ذلك فيتحدثوا عن هوية بعض مجايليهم بشكل مجاني، فسهل بالتالى ما وصل اليه القرار في

وقت لاحق من ضرورة الشروع في التصفية، حين يكون ثمة وقت مناسب ومبرر معقول، خلافاً لما توهم البعض بأن هناك من يمكن أن يكون بمنجاة من نيّة المتابعة .

- من البداية وفي الأيام الأولى من انتسابه للمكان، لاحظ له الشيخ إبراهيم ملاحظة مقتضبة، ولكنها صريحة، عندما طلب منه أن يترك النادى بسرعة، لعواقب مرتقبة، علاقته بالرجل ترسخت عبر الزمالة والصلة الوطيدة، فطبيعة إبراهيم هي النصيحة المستمرة، وهو على صلة وطيدة ببعض الجهات التي تملك المعلومات لوجود أعداد من أقاربه فيها، وهؤلاء لم يكونوا مجرد عناصر عادية، بل كانوا ذوى نفوذ ومشاركة حقيقية، أبرزهم كان على صلة بوالده وزادت زيارته للمنطقة، حين كلف بتقييم بعض العناصر التي خضعت للتقييم، ويبدو أنه أراد أن يسدي النصح، حتى لايفتح له ملف بالأجهزة شأن كل المنتسبين الفاعلين، إن الجهة كانت تملك الاتصال بأكثر من مكان في حقيقة الأمر، ولهذا جاءته الملاحظة من طريق آخر، وفي مفتتح السنة الميلادية، حين أهداه المدير أبوبكر مفكرة قرمزية الغلاف، أردفها بقوله :

- أنت تحب هذا اللون، تفضل مفكرة السنة .

ولسبب لم يجد له مبرراً وجد نفسه غير منتبه، ولم يبد اهتماماً ما لتلك الكلمة، فأردف الرجل قائلاً :

- ما فهمتش واللاعملت روحك درويش، أنا نبي نكلمك

من مدة على مشيك للنادى، راهو فيه مشاكل، احنا سمّطناها في بلادنا وتبينا نسمّطوها حتى هنا، وظيفتي لاتسمح لي بقول كل مالدى، اللي تجي ياالاى نوقفها. أحياناً الأمور ما تكونش في يدى .

اتضح أن الرجل قلق من بعض المعلومات التي وصلت هناك والأمر يتصل ـ على ما يبدو ـ بموضوع السفر، فقد واجه بعض الزملاء الذين هموا بالتوجه نحو تونس مصاعب اضطرتهم إلى مراجعة المهاجرة، لم يكن موضوع السفر ماثلاً عنده، فلم يستشعر أى معنى للتخوف ، من ناحية أخرى مادام لم يقم بارتكاب أى مخالفة ، فلا داعي إذن إلى الخوف، لكن الرجل لديه وثائق وهو قريب وكان من الذين أسهموا في تعليمه الكتابة الحديثة، حين لم تكن ثمة مدارس وكان الوالد يحب له أن يكتب بالطريقة الحديثة وليس كما يفعل فقهاء الكتاتيب .

- سرت في الجسد قشعريرة من القلق إثر هذه الكلمات، وغدا النادى طبقاً لكلمات هؤلاء الناصحين باعثاً للخوف، فليس ثمة شك في صدق أولئك الناصحين وما يغمرونه به من المحبة وما يكنونه له من الحرص الذي يشمل كل النواحى، وهو من جهة أخرى لا يستبعد ما قد تؤدى إليه مثل تلك الاشتباهات من وجود المناخ الملائم للإساءة إليه والتضييق عليه في مجال عمله، ذلك أن بعض الأعضاء - كما لاحظ من حديثهم بصدد مسابقة القصة - لا يخفون عداءهم لبعض العناصر وما يسرفون

فيه إزاءهم من نعوت سياسية، تضخمت على ما يبدو إثر الخلاف الذي تفجر بين الجمهورية العربية المتحدة، والثورة العراقية التي استقر لها الأمر في العراق، ودب الخلاف بين قادتها الجدد، وتأثير ذلك في العلاقات المصرية الروسية، وانعكاس ذلك كله على الشارع العربي في العموم والواقع الليبي في الخصوص، وقد كاد أن يسحب نفسه من النادى حين قلب الأمر في البداية، لكن الخطوات التي خطاها جعلته يعيد النظر، فقد خطا خطوات تجعل من المستحيل الإقدام على ذلك، فقد سبق له أن استبعد فكرة الانسحاب حين عرض عليه العمل الإضافي لتعارض ذلك مع عضوية مجلس الإدارة، وهو الآن يقوم بمهام السكرتارية، والعاملون في المكان جميعهم يواجهون بعض المواقف الصعبة، ويصرون على البقاء، فهل من الرجولة أن يقبل الإنسحاب، أكثر من ذلك فمن قال إن الانسحاب سيجنبه المصاعب المنتظرة وما حجم هذه المصاعب، أليس هؤلاء الذين وجدهم أمامه من البشر أيضاً ولهم مصالحهم وظروفهم ويصرون على مواصلة المسيرة والعمل بكل همة ونشاط، فما قيمة الحياة في غير هذه الأجواء، ومن قال إن المعلومات التي وصلت يمكن أن تتغير، أليس من المحتمل أن يبقى كل شئ في مكانه، ويخسر فقط مابدأ في تأسيسه .

- أثمر البرنامج التثقيفي الذي أخذ به بشكل واضح . وقد تمثل ذلك في القدرة على كتابة بعض التجارب الشعرية الحديثة،

عبر مضمون فكرى كانت له السيادة ومن خلال منبر صحيفة «الليبي» التي اتسعت في ذلك الزمن لعديد الأفلام الوطنية ومختلف القضايا الأساسية والتي انفردت في ذلك على نحو خاص بإثارة مشاكل منطقة الجنوب ، التي استحوذت على جل الاهتمام الذي تحاول الإسهام به نحو الواقع.

كانت «الليبي» قد عادت إلى الصدور مرة أخرى بعد انقطاع دام سنين طويلة نتيجة دخول صاحبها الشيخ على في معارك سياسية خطيرة في بداية الاستقلال، ترتب عليه تعرض الرجل لأشكال من المضايقة التي لم تزده ألا مضيا في موقفه المتشدد، كما يؤكد معظم المتصلين به والذين شهدوا له بأن خياره من البداية مبنيّ على القبول بكل المصاعب، عندما قال لزملائه ذات يوم، من ليس لديه القدرة على الصبر، يمكنه أن يرجع من الآن، لأن الطريق الذي أخذنا به ليس سهلاً، لقد سهلت مهمة العودة ولاية الشيخ الطاهر الذي امتاز بالحرص على السماع لكل الآراء، وكذلك وجود السيد نجم الدين على رأس الداخلية وإصراره على عدم التدخل في معركة المجلس التشريعي، مما أسهم في إفساح المجال أمام الشيخ على ليكون ضمن الفائزين ليواصل رحلته نحو التألق بواسطة صحيفته العتيدة التي وضعها تحت تصرف القوى الوطنية القادرة التي لم تبخل في بالكتابة عن جميع الهموم والقضايا، حتى لقد أصبحت الأولى من نوعها، بالرغم من انجرارها لبعض المشاكل

الجانبية التي كان من الممكن تأجليها .

كان منهمكا في القراءة حتى درجة الإدمان، وقد جمعت القراءة بين الإبداع والتنظير وإن يكن الجانب النظرى أكثر إستدعاء لاهتمامه وشديد متابعته . كانت دور النشر التقدمية التي أسست في ذلك الزمن تنشر بشكل غزير للغاية حتى لقد تحولت إلى « ماركة خاصة » إذ يكفى أن تجد شعار أى منها على ظهر كتاب من الكتب حتى تقف بعد ذلك على أهمية هذا الكتاب وحيوية ما يحمل، فكان من الضرورى أن يستمر الطواف حول مجموعة المكتبات المتقاربة في الموقع لاقتناء المزيد وتعويض مافات كما أن بعض أصحاب المكتبات وبحكم متابعتهم يحرصون على توفير المطلوب، الكاتب يسعى للحصول على الكتاب وصاحب المكتبة يحاول تسويق مالديه وتشكل ناصية كل مكتبة ملتقى لأولئك الساعين للمعرفة ومن الصعب أن ينسى المرء ذلك الدور الذي اضطلع به اللموشي عبر مكتبة الفرجانى في توفير كل ما يريده الكاتب حتى إنه يبدو ولمن لايعرفه وكأنه من أولئك المكلفين بالمتابعة، وليس مجرد هاو للكتاب عاشق للمتعاملين معه وهذا هو واقع هذا الرجل الطيب كما أكدت الأيام فيما بعد .

هناك في حقيقة الأمر رغبة في رصد الأشياء وحركة ثقافية ذات أرضية وطنية تتشكل تجمع بين الموقف القومى الصارم، والاخر الوطني المختلف الرؤية ومجموعات أخرى ترى في

الدائرة الإسلامية طوق النجاة، وأمكن جر الأغلبية نحو الصَراع، رغم أن ظروف الداخل تقتضى عكس ذلك تماماً، والأجهزة من جهتها يهمها أن ترصد كل تحرك، وتمسك بكل خيط استعداداً لموقف مفترض وإجراء لابد أن يتم ذات يوم .

3

ميـزة بعض الكتـابات أنهـا تشكل الدليل الذي يدفـع بالمرء نحو آفاق جديدة ورؤي أكـثر اتساعـا من بينها كتابات الأستاذ خالد محـمد خالد التي انطلقت من ثلاثة كتب رئيسية من «هنا نبـدأ»، « مـواطنون لارعـايا »،« الديمقـراطيـة» أبداً أكـثـرها اثارة للضجة (من هنا نبدأ) (مواطنون لارعايا) لما صاحب الأول من لغط واعتراض لدى أطراف كثيرة، أدت آخر الأمر إلى مصادرة الكتاب الذي عرض أمره على المحاكم وما وصف به الثانى من أنه استـهـدف عـرش فـاروق . عـندمـا وجـد هذه الكتب في بيت البـشـير بتلك المزرعة البـعـيدة التي جـمـعت عناصـر من الناس تبـاينت أحوالهم واتفقـت مواقفهـم، علم أنهـا للشـفيوي الذي خاف عليهـا من الضيـاع وربما المصادرة فأراد أن يؤمنها هنا إذ أنه غيـر مـسـتقـر وربما غيـر آمن على نفسـه كأحد أعـضـاء الفـرقة القـومـيـة التي اتخذت من التـمـثـيل وسيلة لـكشف الكثيـر من سوءات النظام السياسي أولا والمجتمع ثانيا، ويومها أنكب على قـراءتهـا الواحد تلو الآخـر وبنهم شـديد، «البـشيـر » نفسـه حين لاحظ هذا الاهتـمام حاول أن يوفر كل مـا يشـجع على المضى في القراءة .

– أنت شن عندك في المدينة أقعد كمل على مهلك .

المزرعة مخصصة لتربية الدواجن ذلك النشاط الذي استحدث لأول مرة وكان البشير بواسطة الإنجليزى في مقدمة من ارتاد هذا النشاط . تأثر كثيرا بذلك الأسلوب الجذاب الذي يكتب به الرجل وقد اعتاد أن يقرأ أكثر من مرة، هكذا تعلم من محمد أفندى حين وضع تحت تصرفه كتاب «تاريخ الأدب العربي» لأحمد حسن الزيات، وهو يحثه الآن عبر رسائله الكثيرة على المضي في طريق الكتابة وإرسال ملخص عما قرأ حديثا . وكذلك يفعل الشيخ عبدالعزيز زميله في المكتب والذي أشار بأن كتب خالد محمد خالد تعليمية للناشئه وليست من مراجع البحث، فالكتب التي انطلق منها خالد محمد خالد هي المهمة، لكنه في حقيقة الأمر يبحث عن اللغة وعن تكوين فكرة راسخة عن الكتابة قبل أى شئ آخر، لقد قرأها على أى حال دفعة واحدة وكانت مثار تعليق ونقاش في مكاتب الزملاء، كما هو الحال في النادي أيضا، وبدا له أن يخلو بين الفترة والأخرى إلى هذه المزرعة والقراءة في ذلك الجو الخالى من الضوضاء ومن الممكن الذهاب إلى العمل والعودة إلى هنا، فابن العم يحب السائرين في هذا الدرب، فما بالك والأمر يتصل بأقرب الناس إليه .

أرفق الأستاذ خالد محمد خالد بتلك الطبعه حكم القضاء المصرى المتعلق بالإفراج عن الكتاب، فحاول أن يستوعب ذلك الحكم خاصة وأنه كون أرضية عن القانون حين كان من بين

الذين حضروا الموسم الذي نظمته وزارة العدل لإلقاء بعض المحاضرات القانونية ابتداءً من القانون المدنى وهو ما اضطلع به الدكتور محمود القاضي الذي كان يشغل منصب النائب العام في المحكمة العليا عندما نظم الدكتور فكينى ذلك الموسم الثقافى القانوني الهام . لقد كانت كتب الرجل في حكم استنادها إلى مصادر تراثية خير دليل إلى عديد من المصادر الأخرى على أن الموقف الأخلاقى المتمثل في حذف أحد فصول الكتاب لأن المعنيين به ليس في إمكانهم الرد، كان أهم دروس الحوار التي أمكن الاستفادة بها من قراءة خالد محمد خالد لكن النص الذي كرسه للديمقراطية يعتبر لب تفكير الرجل وأخطر قراءة متقدمة لما كان يتهدد الواقع العربي من مخاطر بسبب عدم الجدية بصدد الديمقراطية وما ترتب عن إهمالها والإسهام في تقييمها من أنواع الخراب الذى حل في فترات مقبلة . لقد كانت رسالة ذكية وعميقة تلك التي حملها كتاب الديمقراطية أبداً لمن أنجز مهمة معركة القناة وإلغاء الوجود البريطاني وتصفية الإقطاع والتمكين للتوجه الوحدوى، لو لم يقع التساهل في مسألة الديمقراطية التي غيبت المواطن الواعى والقادر على صون المنجز والموت في سبيله عند اللزوم وبعث نموذج آخر شديد الاعتماد على الزعيم القادر الذي حدد معالم شخصيته في بداية القرن الشيخ محمد عبده قبل أن يرحل من الدنيا ورأى فيه القدرة على إصلاح الشرق في كلمة واحدة حين

قال : (إنما يصلح الشرق مستبد عادل) فطرح أخطر معادلة مغلوطة ومستحيلة التطبيق هي محاولة الجمع بين الضدين، الاستبداد والعدل صفتان لاتتحققان أبدا، فالعادل يستمع لأكثر من وجهة نظر ولايستبد مطلقا والمستبد امرؤ لايعرف الاستماع فهو في الأساس يعرف أكثر من غيره ويخلص أكثر من غيره ويحرص أكثر من غيره هو الأول والآخر وهو الظاهر والباطن هو القادر القوى فلا حاجة لديه للسؤال ولاسبيل له نحو العدل . ولاتحرج عنده من سوء العاقبة مهما كان متوفرا لديه من حسن النوايا .

لم تقف العناصر المستنيرة التي ولجت باب ذلك المبنى (المجلس التشريعي) مكتوفة الأيدى تجاه ماكان يجرى في الواقع. ولم تنصرف كذلك عن الدفاع عن مصالحها من خلال أداء دورها . ولم يكن المجتمع في مجمله منهمكا في المعارك الجانبية والسلبيات التي كثيرا ما يؤدى اليها سوء التطبيق، فقد كانت هناك بعض المحاولات الجميلة التي بدأت تحرك ذلك الواقع الآسن، وتنعكس بشكل ما على مجموعة الممارسات، وكان من الممكن أن تتطور أكثر فأكثر لووجدت الإرادة القوية والتصميم الحقيقي على مواصلة العمل والانطلاق من حيث تتوفر خطوط التلاقى وتمسّ خطوط التقاطع وكل ما من شأنه أن يدفع نحو التأزم .

وإذا كان أحد ضحايا الغدر قال ذات مرة « إن نار نالوت

أنضجت خبز غريان، فإن من الممكن القول إن نار زوارة قد أنضجت المشروع الذي استهدف نزع فتيل الفتنة المرتقبة في المنطقة المتكونة من نالوت والرحيبات والرجبان عندما وضع برنامج اتفقت عليه المديريات الأربع بشأن عضوية المجلس التشريعي المتمثل في اللجوء إلى القرعة بدلاً من التنافس بحيث يراعى أكبر قدر ممكن من الاتفاق، فرفعت الأسهم بين الأربعة أولاً، وقرر الثلاثة غير الفائزين اختيار الشخص الذي يتقدم الجميع من المنطقة الفائزة فنتج عن ذلك إتاحة الفرصة لعنصر من العناصر المستنيرة التي كانت تتحرك في صمت وتعمل أكثر مما تقول، هو «محمد مصطفى» الذي كان حتى ذلك الزمن يعمل في مجال التعليم وعند الاتفاق على شخصه حصل على العضوية من أقصر الطرق، وليس لديه من هم سوى التدليل على جدوى هذا الأسلوب والمضي في الطريق السوي إلى آخر الشوط، لكن دون ضجيج .

لقد كان المجلس يضم في عضويته، كما عرفنا، مجموعة من الأسماء المعروفة بنشاطها المختلف من التجارة إلى العمل النقابى إلى القانونى، من الذين أتيحت لهم الدراسة في الخارج والاحتكاك بعديد من القوى المتفتحة والقادرة، ولم يكن محمد مصطفى من تلك الأوساط ولكنه في معالجته وحواره أكثر وعيا وأبعد نظراً وأقرب إلى ملامسة الواقع من مفهوم شمولى مواكب للتاريخ ولأسئلة العصر الحقيقية . إن المجموعة في

عمومها تجسد التكوين الطبقي الصاعد إن صح التعبير، بيد أنها تخفق عن المضيّ إلى آخر الشوط ليس على مستوى المعارضة الرافضة وإنما على مستوى الملامسة لما كان يجري .
وإذا كانت المقترحات والأسئلة تعبر في العادة عن متابعة العضو وعمق اهتمامه، وهي كثيرا ما تكون من إيحاء بعض الموظفين القادرين فإن مناقشة الميزانية والملاحظات على تقرير اللجنة تظل في نهاية المطاف هي المعيار لتحديد المستوى العقلي للمتكلم ومدى معايشته للواقع الشامل . إن الواقع في الحقيقة كان معروفاً لكل الفئات الصاعدة وإدراك الخلفية لكل حوار من الممكن الوقوف عليها بيسر . قد كان أكثر الأمور تعبيراً عن ذلك ما أثير بصدد قانون الترجمة الخاص بالأشرطة الأجنبية التي كانت تعرض في ذلك الزمان، وذلك عندما وقع عشرة أعضاء على طلب المناقشة الرامي إلى فرض الترجمة لكل شريط يقدم للعرض، وتحدث عن ذلك عدد قليل منهم إذ لم يكن الأمر يعني الأغلبية، ومع ذلك فقد أمكن الحصول على إصدار القرار في الخصوص، أما سر ذلك فقد اتضح بعد قليل حيث تبين أن معظم المهتمين كانت لهم مكاتب خاصة للترجمة وسن القانون سيكفل لها في نهاية المطاف مجالا كبيراً للعمل، ذلك لايعني أن المصلحة العامة غير موجودة في القرار المشار إليه سوى تشغيل المكاتب الموجودة أو تشغيل أخرى مالبث أن حصل الإذن لها لاحقا، أو أن الترجمة وإن كانت فوق الشاشة لاتعين

المشاهد، ولكن المهم أن وراء أمور كثيرة تطرح للنقاش توجد في نهاية المطاف مصالح أخرى تخص الأقلية وتطرح من موقع التعميم وفي منتهى التجرد من الباعث الشخصي في حين أنها ليست كذلك بأى حال من الأحوال .

وعلى النقيض من ذلك حيث كانت قضية إلغاء السكك الحديدية التي أوصت بها لجنة المالية التي ضمت في عضويتها ألمع الأسماء وأكثرها حضورا في تاريخ الولاية منذ بداية العمل لم تعد صالحة للاستعمال بحسب فهم الرجال الذين امتلكوا السيارات الفارهة وصار في مقدورهم على الأقل امتطاء الحافلات الأسرع فلم يعد لديهم والحالة هذه أى إلتفات نحو قاطرات قديمة يقضي راكبوها الساعات الطوال بين طرابلس وزوارة وغيرها من مدن الخط الغربى، فكان صوت محمد مصطفى هو الصوت الوحيد الذي تصدى لتلك التوصية غير المسؤولة والدالة على ضيق أفق القائلين بها ومدى انفصالهم عن واقع الحياة وعن مشكلات الناس في العمق، لقد وقف مبديا استغرابه بل واستياءه من هذه التوصية القائمة على مسألة الربح والخسارة منبها إلى أن السكك الحديدية في العالم أجمع تتحمل أعباءها الدولة وليس الناس لأنها من القطاعات الخدمية التي تحتاج إلى الدعم والتطوير وبالتالى فإذا لم يوص المجلس بالإنفاق على السكك الحديدية فعلى الأقل يبقي عليها حتى يأتى الزمن الذي يمكن أن تتطور فيه، كانت ملاحظات قيمة

ونداءات صادقة واستغاثات مؤثرة تلك التي أخذ الرجل في إطلاقها بصدد هذا المرفق الخدمي الهام، دون أن ينصت إليه أى من الحاضرين وهم الأكثر وعيا وشهرة حسب الظاهر وجرى التصويت لصالح الإلغاء وارتكب المجلس غلطة العمر تجاه أمر يهم الأغلبية الساحقة من سكان الولاية الذين كانوا يعولون على ذلك الخط المتواضع ويستعينون به على قضاء حاجاتهم وتنقلهم وكانت الإدارة ذاتها تراعي ظروف الكثيرين منهم، إذا به يلغى وإذا بالقوى النامية تتنادى إلى فك سكته وإعادة تصديرها إلى الخارج لتزيد في دخول الفئات الصاعدة التي لايهمها ما يقلع من الارض، بقدر ما يهمها ما يدخل الجيوب المنطلقة للمال والنفوس المشرئبة لكل ما يخدم المظهر الزائف ويحقق العرض الزائل، لقد كان الرجل بملاحظاته وقوة حجته يصدر عن معاناة صادقة لواقع الجماهير ودراية واسعة بحقائق التاريخ ونظرة ثاقبة تجاه المستقبل، ولكن التيار كان قويا في اتجاه التخلى عن كل ذلك والنظر إلى ما يهم الذات المريضة والنفس التي لاتنظر أبعد من أرنبة الأنف . كانت كل الاعتبارات تدعو إلى إعادة النظر في القرار وإلى رفض توصية اللجنة . ولكن الذي جرى كان مخالفاً لذلك كل المخالفة، فلم يبادر أحد بالمناصرة ولم يتبن أحد هذه الأفكار النيرة، فكان المعروفون يبادرون بالخروج من الجلسة، في حين كان المكلفون بإعداد المحضر يتطلعون إلى العناصر المعروفة عساها أن تقول

أى شئ مهم بالخصوص، حتى لقد كاد البعض أن يفقدوا حيادهم ويبادروا بكتابه ما يتطلعون اليه من تلقاء أنفسهم، لكن أنى لهم ذلك !؟لقد اتضح أن الفرق كبير والبون شاسع، بين من يتحدث عن مطالب الشعب ظاهريا وبين من يعايشها بشكل حقيقي، بين حملة الأشعرة البراقة وذوى المواقف العملية التي تختار الموقف الصحيح عندما يتخلى الجميع عن الخيارات المبدئية والأمور الملتصقة بالحياة فلا يبقى الا القليلون الذين يتخذون من المواقف ما يفوق الأشعرة البراقة والادعاء بخلاف الواقع بل وكذلك التخلف عن روح العصر، بالرغم من التظاهر بغير ذلك لقد شكلت هذه القضية فصلا حقيقيا بين الذين يعانون مشكلات الناس بحق وحقيقة، وبين الذين يتمكنون من احتلال الصدارة والقفز على أعناق الجماهير بل والضحك على عواطفها ومن ثم التخلى عنها حين تكون ثم مصالح أكبر ومطامح أكثر إغراء . لقد تأكد وفق هذا المفهوم أن من الضرورة بمكان أن تتعمق النظرة إزاء الواقع وأن تترسخ المسائل النظرية ليقع الإدراك لكل ما هو جوهرى ويحتاج بالضرورة إلى تدخل السلطة بمعنى أن الأصل في الحياة ووفق هذا المفهوم كيف يمكن للناس أن ينالوا ما يحتاجون إليه من الأساسيات بصرف النظر عما يستدعي ذلك من الإنفاق، وأن عديد المطالب لايمكن أن تتحقق من دون دعم من الدولة، وهو تدخل في الحقيقة أهم من النقود التي تنفق مباشرة، كان ذلك

في إطار ما غدا يطرح في الواقع العربي بصدد الاشتراكية والتطبيقات التي أخذ في انتهاجها بعض أقطاب العالم الثالث، أو تيار عدم الأنحياز أو أى تسمية من تلك التسميات التي شاعت في ذلك الزمن وأخذت تستقطب الأنظار وتأخذ بالالباب وتدفع الفئات المثقفة إلى الالتفاف حولها والتعبير عنها في مختلف أشكال الابداع .

4

ازدادت مشاعر الحساسية نحو النادى عقب تفجر الخلاف الحاد بين العراق ومصر لموقف الأولى من الوحدة المصرية السورية والذى عبر عنه ترددها في الانضمام للكيان الكبير، وهو الأمل الذي راود الجماهير التي خرجت في أعراس كبيرة تستقبل ثوار العراق الجدد الذين تصدرهم كل من عبدالكريم قاسم وعبدالسلام عارف اللذين ما لبثا أن اختلفا خلافاً حاداً وصل إلى استعمال القوة، لقد انحاز عارف للخيار الوحدوى بكل قوة في حين وقف عبد الكريم قاسم موقفاً مختلفاً وانعكس ذلك بطبيعة الحال على الفئات المستنيرة في الشارع الليبي، حين اتخذ أغلبها موقفاً منحازاً ومؤيداً للخيار الوحدوى، فيما ذهب آخرون إلى غير هذا الموقف، كان الأسلم بطبيعة الحال للوطنيين الليبين أن يتجنبوا الدخول في هذا الصراع فقد كان لهم من واقعهم السئ ومشكلاتهم الداخلية ما يدعوهم أن يتجنبوا التصدع والخلاف حول أمور ليسوا طرفاً فيها بشكل مباشر، ولكن الهروب الذي تلجأ إليه بعض الفئات زين الدخول إلى تلك العوالم كنوع من التعويض عن الاصطدام المباشر، فوقع الجميع في المصيدة، حين صار القوم يختلفون فيما بينهم ويعطون الأجهزة فرصة العمر للمتابعة واكتشاف الأبعاد

الفكرية من خلال رصد ذلك التنابز المشين بالألقاب والتطوع بتقديم المعلومات للأجهزة، بدعوى العمل العربي، لقد وجدت الرجعية ضالتها المنشودة في اكتشاف الهوية السياسية لمعظم الأسماء بما في ذلك معرفة الأماكن العامة التي تتردد عليها، حين لم تجد بعض الأقلام حرجاً في الكتابة عنها بكل صراحة ووضوح لدرجةٍ الاشارة إلى مقاهٍ محددة .

لقد كان من سوء حظ النادى، أن كان بعض المترددين عليه والمؤثرين في قراره ونشاطه من الذين جاهروا بموقفهم المخالف لما كان يسود الشارع عشية «شهر العسل» الذي عاشته القوى المصرية السورية ذات التوجه الوحدوى مما سهل على القوة المعادية تضخيم حجم التحرك بحيث بدا وكأن المكان قد تحول إلى خلية سياسية تعمل صباح مساء - فاضطر البعض إلى الإنسحاب والبعض الآخر لتجميد الحركة، لقد تزامن هذا التطور مع انتهاء المدة القانونية للهيأة الإدارية وحلول موسم الانتخابات، فبدا واضحاً أن الفشل سيكون محققاً للعناصر الفاعلة وفي أحسن الفروض ستكون في قائمة الاحتياط ومرة أخرى كان البهيليل هو فارس المرحلة، إذ قبل أن يدخل ويضمن الفوز كي تقوى الفرصة أمام بعض العناصر، فما تزال القاعدة ضعيفة كما أن الحساسية وإن كانت ضعيفة حول البعض إلا أنها موجودة على كل حال .

كان الأمر لايعدو أن يكون شكلاً من أشكال المناورة التي

قادها محمود وعبدالرزاق بمهارة باهرة، فانطلت على بعض المتشنجين الذين لم يكن أمامهم سوى الإنسحاب، حين لايكون هناك مبرر لاصطدام، وهكذا أنجز المخطط، بحيث لم تكد تمر فترة قصيرة حتى عاد النشاط إلى سابق العهد، لكن القرار هذه المرة كان في اتجاه تحقيق الاختراق لكل الجبهات وتعميق العلاقة مع القوى المؤثرة كما تقتضى شروط اللعبة . كان الهدف تكوين قاعدة حقيقية داخل المكان واستلام مقعد الإدارة بعيداً عن المناورة التي جرى القبول بها من باب الضرورة، إن الأمر في الواقع لايكلف شيئاً صعباً، وحدها المداومة على حضور التمارين وعدم التخلف عن المباريات وتشجيع الرياضيين كفيلة بتحقيق المراد . إن المأخوذ على المثقفين هو عدم التفاتهم لهذه الأنشطة واحتفاظهم بالعمل الثقافى، والنادى مشترك النشاط، فيه الرياضى وفيه الثقافي، بل لعل العنصر الرياضى هو الذي يشكل الأغلبية، فكيف يجوز لمن يحمل مسؤولية العمل بالإدارة أن يتخلف عن متابعة النشاط، صحيح أن « عبدالرزاق ومحمود » متكفلان بالأمر، لكن (كل يد تمسح على وجهها) كما يقول المثل الشعبى، وكما قيل له أكثر من مرة، الشغف بالمباريات موجود والبطاقة المجانية موجودة، وسي عثمان في النهاية هو المسؤول، فلماذا لا يقوم بهذه المهمة، لماذا لا يحقق المتعة من ناحية، ويؤدى الواجب من ناحية أخرى . في التو أصبح طريق الميدان البلدى هو المفضل وأحياناً ملعب السكك

الحديدية ، المسافة ليست بعيدة سواء كان الأمر متصلاً بالتدريب أو المباريات، فقط الحضور مبكراً لأن مادون الدرجة الأولى يتم البدء بهم لكن مسألة التمرين بدت أكثر جدوى، إذ هي التي تجسد معنى المسؤلية، ولأن الأمور كانت تسمح بتقديم بعض المشروبات الخفيفة كان الوقع أكبر وأكبر، ولم تكد تمر بضعة أسابيع حتى ذاب الجليد بالكامل وتحققت اللحمة بشكل عجز عنه من سبق في هذا الطريق .

– إن عوالم القراءة جميلة للغاية فهى التي تخرج المرء من عوالم الحزن، تلك التي قد يفضي إليها الإخفاق في مطلب من المطالب، أو مطمح من المطامح، وقد تستفحل من إجراء إدارى متسلط أو لحظات من الكآبة غير المبررة، والرواية كون يتجاوز في أغلب الأحيان بؤس الواقع بمراحل متطورة، وإذا كانت الترجمة قد أفلحت يومئذ في نقل كلاسيكيات الفكر الإنسانى عامة والاشتراكى على وجه الخصوص، فمن المؤكد أن هذه تحديداً كانت أكثر قدرة على التحليق بالمتلقي الواعي في تلك الآفاق التي جرى الاقتراب منها، فهى تجمع بين التسلية وتغذية الوجدان بما تتوفر عليه من فنون المكاشفة التي تهون على النفس أهوالها وعلى القلب أحزانه وربما انكساراته أيضاً .

إن المكاشفة في أقصى درجاتها تعنى الصدق والصدق المجرد تحديداً، وقد كان إحسان عبد القدوس مؤثراً في ذلك الزمن، فهو وحده القادر على الإمساك بالقارئ وعدم السماح له بأن

يفلت ولو للحظة واحدة، ولو أراد أحد أن يضع برنامجاً لقارئ من القراء وبالأحرى سلماً من سلالم القراءة ما كان له أن يتخطى البداية بدون إحسان ليمكن بعد ذلك الدخول إلى عوالم «نجيب محفوظ» ولاشك أن الحظ كان حليفه حين لم يتوقف أمام كتابات بعض النقاد أو أنها لم تقع في يده حتى فرغ من قراءة تلك الأعمال التي أحسن مبدعوها في اختيار عناوينها ومواضيعها ناهيك من كتابتها وكان إحسان أكثر أولئك قدرة وسيطرة وتأثيراً بحكم العمر والتجربة والتمكن، كان صاحب فضل كبير في خلق تلك العلاقة المتميزة بالقراءة الروائية والتي شكلت طريقاً نحو أعمال أبرزها بدون شك «الأم » « الفولاذ سقيناه » فضلاً عن ديستوفسكي وتولوستوي، لكن لماذا تأخر نجيب محفوظ بعض الوقت ؟ إنها مسؤولية واقع آخر وصراع مختلف وظروف حتمت أن يكون الموقف هكذا، بالرغم من أن بعض المواقف قد صوبت من دون الحديث عنها فحسمت القصور والتقصير .

من جهتها أفلحت الدراسات النقدية التي أمكن قراءتها في لفت الانتباه نحو أسماء جديدة أبرزها بلا جدال عبدالرحمن الشرقاوى الذي انجز رواية «الأرض » مقدماً عدداً من الرموز النضالية المهمة في تلك المرحلة الخطيرة من تاريخ الشعب المصرى حول الأرض ومياه النيل ومردود الطين، وما دأب على ممارسته الملاك الكبار نحو صغار الفلاحين وإكراههم على العمل

وعلى المنزلة الدونية في كل شئ، إنه النضال الذي خاضه الفلاحون مدفوعين بأبناء الطبقة الوسطى التي تصدت لكبار الملاك بما أفرزته من طلبة مثلهم ذلك البطل الصغير عبدالهادي ومن كان في سنه وآخرون من بينهم محمد أبو سويلم من تفاعل معهم العقل وحملهم الوجدان وارتفعت صورهم في الذاكرة الشابه، الذاكرة المتوثبة التي تكونت خلال الصراع القروى ووجدت الآن صوراً جميلة حملها ذلك النص، والذي كان إلى جانبه نص شعرى متميز أصدره ذات الشاعر تحت عنوان (خطاب مفتوح من أب مصرى إلى الرئيس ترومان) ووزعته اللجنة الوطنية للطلبة والعمال، لجنة الفنانين أنصار السلام، لقد كان شعراً جميلاً بحق ذلك الذي التزم فيه الشرقاوى بالتفعيله الواحدة وعبر فيه عن تجربة ريفية غاية في الجمال حين يحل الفتى الصغير بالقاهرة، وحين يتربى على دراسة استهدفت تغييب التاريخ الإنسانى من الذاكرة، لقد أسهم ذلك النص في تأسيس فكر معاد للاحتكار متطلع للعدالة، فكانت هذه الرحلة وفقاً لهذا النسق سبيلاً نحو كلاسيكيات أخرى صورت بعمق نضال الأم ونضال الحبيبة ضد القياصرة ومن أجل تحقيق المجتمع الجديد الذي لامكان فيه للاحتكار.

كانت هناك بدون شك آراء أخرى رأت في عمل الشرقاوى نزوعاً نحو المباشرة وميلاً للعمل الصحفى أكثر من التسلح

بالبناء الفنى المتقن، لكن هذه الآراء لم تجد طريقها إلى الوعى الغض، فانعكس هذا الفهم على بعض الكتابات التي يمكن القول عنها بأنها سعت إلى تجاوز الواقع، عندما افتعل صراع غير موجود ورهان على قوى مرهونة، أدى إلى ضمور الحس الفنى وإلى ضآلة الاهتمام بأبجديات الإبداع في أحايين كثيرة، لقد كان الطريق ممهداً للجوانب النظرية أكثر من أى شئ آخر، وكان الهم النظرى أكثر إلحاحاً وأشد إغراء وأقوى تأثيراً، وإن يكن مبدأ النقل الجامد أكثر شيوعاً، كانت الحلول الجاهزة مغرية إلى حد كبير، وكان ذلك من الأمور الضارة وفقاً للاختلاف بين الظروف والمعطيات .

ومن الممكن اعتبار بعض المعارك الأدبية التي انطلقت يومئذ حول بعض المفاهيم الأدبية، واستهدفت بعض الرموز المعروفة سابقة لأوانها أو أنها جاءت نتيجة القراءة أكثر مما هي نتاج الواقع في حد ذاته، على الرغم من أنها شكلت تعبيراً عن روح الشباب وقلقهم وتطلعهم وعبرت عن شيء من القسوة وعدم الموضوعية بالنسبة لمن تصدى للرد، لكن الذي لاشك فيه هو أن المناخ في واقع الأمر كان يحتاج إلى تضافر الجهود أكثر من حاجته إلى إثارة مواطن الخلاف، كان الواقع الثقافى هشاً ومحدود الامكانيات، فهو بالتالي يحتاج إلى كل جهد وإلى كل تناول، يحتاج لمن يقول بالأدب للأدب ومن يقول بالأدب للحياة، لم يكن هناك ما يدعو إلى الخلاف وإلى الصراع حول

المفاهيم بقدر ما كانت الحاجة ماسة إلى كل الإبداع، على مستوى الشعر أو على مستوى القصة، لكن المرحلة دائماً تؤثر في سلوك رجالها وتحدد إلى حد كبير طرائق تفكيرهم وممارساتهم .

على أن الحديث عن المذهبيات كان إلى حد كبير مطلوباً على ما يبدو، وتضخيم فكرة المبادئ الهدامة أيضاً من الأمور التي اقتضتها بعض المصالح، فلقد عرفت البلاد يومئذ جهازاً أطلق عليه مكتب مكافحة المبادئ الهدامة انفق عليه في البداية من المساعدة الأمريكية، ثم ما لبث أن وضع له بند محدد في الميزانية، وكان مسؤولو المالية يصرحون بذلك علناً، وربما سددوا بعض الالتزامات من ذلك البند . كان التصريح بذلك يتم في الجلسات الخاصة بل إن أسرار الصباح تعلن عادة في المساء بالنسبة لكل إجراء مالي تم في إطار التجاوز، أو جرى تنفيذه من ذلك البند بل لقد كان بعض موظفى الاتحادية حين تضطرهم ظروفهم إلى استلاف بعض المبالغ يشار اليهم بأن ما صرف هو من ذات البند .

لقد كان المجتمع صغيراً إلى حد كبير، وكان الناس يعرفون بعضهم بعضاً، والعاملون في الحقل الإدارى والوسط الثقافى والرياضى أكثر قرباً من بعضهم إلى بعض، ومن الممكن التوجه إلى المصيف البلدى في المساء والوصول إلى أى شخص يملك شيئاً من القرارات بخصوص النواحى المالية،بل لعل أبرز

الأسماء كان معروف المكان واضح الوجود .

- ما يزال العمل بالمجلس يوفر نافذة مهمة إن لم تكن أساسية لتحقيق القاعدة الصلبة لفهم ما يجرى بالواقع وماغدا يتكون فيه من ملامح لذلك المجتمع الجديد الذي صارت بناه الفوقية تعكس بشكل لافت للنظر بناه التحتية الاقتصادية تحديداً، وكان ذلك يتجلى في التشريعات على وجه الخصوص، أبرزها على سبيل المثال قانون العمل الذي راعى شروط المعاصرة فألغى مبدأ الفصل التعسفى وفقاً لقواعد نظام العمل العالمى وإن يكن قد حاول الالتفاف عليها بأسلوب خاص، كما أعطى بشكل واضح مجموعة من الميزات، وذلك بالرغم من الصراع الذي كان يدور بين الفئات المنشغلة بالنشاط النقابى، وهو صراع منفصل إلى حد كبير عن واقع العمال من حيث الحقوق والواجبات، بقدر ما هو صراع مرتبط أوثق الارتباط بما كان يجرى في المنطقة، ذلك أنه لم يكن هناك بصدد التشريعات التي كانت تسن وتنفذ بقدر ما كان منصرفاً بالكامل إلى القيادة النقابية، هناك من يرجع الأمر إلى نزعات جهوية تحاول أن تتستر خلف أغطية أخرى، في حين سعت القوة المسيطرة إلى إلباس المعارضين لها لبوس الموقف السياسي، على أن الذي لا مراء فيه هو ذلك التضارب المخجل بين الأجنحة الموصوفة بالتقدمية، فلقد دخلت في صراع مرير تجاه بعضها بعضا حتى لقد وصل الأمر إلى العدوان الشخصى، وكان التأثر بما يجرى

في الشرق أكثر وضوحاً، وكان لذلك أثره الكبير في إنقاص الفاعلية المطلوبة، والدفع باتجاه الإنكماش، وغياب الدور المتبقي، على أن شريحة المعلمين كانت أكثر حضوراً بالرغم من محاولات التدجين التي أفلحت في أهم المواقع، إذ استطاعت بنغازي أن توفر المناخ الملائم لعناصرها القادرة، إن طبيعة العلاقات تختلف بدون شك، إذ تلعب بساطة الحياة لعبتها الإيجابية ويمثل الكبار هناك دور العقلاء الذين ينظرون إلى شبابهم بفكرة الموقف من سفهاء القوم الذين لايفرط فيهم وإنما ينصحون ويرشدون ويستفاد كذلك من تطرفهم، وفقاً للنظرية القائلة (خاب قوم لا سفيه لهم) في حين ظلت طرابلس تعاني من فكرة العصابات والتنادى إلى التصفية المستمرة والتناحر الذي لايترك شيئاً، وقد كان لذلك أثره في الممارسة السياسية، فلا شئ في الحقيقة يمس المهنة لولا المطامع الشخصية وقصر النظر والاحتكام إلى المزاج والجنوح إلى الخلاف ، لقد كانت هناك صيغ كثيرة يمكن أن توحد الصفوف وتخفف على الأقل من الغلو والإسراف في التناحر والإنصياع لطفولة التفكير والإنقياد لنداء العاطفة ومحاولة حرق المراحل .

– من الصعب أن يقطع المرء برأي محدد في هذه المسألة بالذات، في ذلك اللقاء الذي تم بمقهى «الأوديون» التي دأبت بعض الرموز التقدمية الشابة على الجلوس فيها بعض الوقت، عندما أثير موضوع الاهتمام بالنقابات ومحاولة تكليف كل

عنصر بنقابة معينة ، كانت الجلسة مفاجأة في الحقيقة فما من علاقة توجد مع هذا الوسط ويومها اضطلع عبدالرزاق بالمهمة اذ رد بأن أقصى ما يمكن القيام به تجاه المجتمع هو مواصلة العمل في النادى لان هذه الرسالة كافية ، بل لقد ذهب إلى أكثر من ذلك فأشار إلى الانشغال بالمستقبل الشخصي ومساعدة الأهل والتفكير في بناء بيت لاتوفر وقتا آخر لمثل هذه الأنشطة ، وهي التي تجانب الاختصاص وتدخل في شمولات أخرى يصعب على من يريد التزام الصدق مع نفسه أن يقترب منها أو يبديها لنفسه .

كانت الجلسة لافتة للنظر ، إذ لم تكن العلاقة بين ثلاثتنا قوية للدرجة التي تدعو للتفكير في مثل هذه المهمة الخطيرة ولم تكن هناك أية صلة بالمجال النقابى من قريب أوبعيد بل لعل التعاطف مع العمال غير موجود بصرف النظر عن الانشغال بما يحمل الفكر الاشتراكي وما تزخر به الكتابات الإبداعية من تمجيد لكفاح العمال وما يجد صداه أيضا في محاولة الكتابة ، ذلك أن ما يقرأ عن الطبقة العاملة في أوروبا لايخلق العلاقة الحميمة مع الواقع المحلى لأنه واقع ممحل ويفتقد إلى التقاليد النقابية الحقيقية . في الغالب إن التعاطف القائم على الشفقة لايضع موقفا فاعلا ولايفضى إلى انحياز صادق .

إن الشفقة تثير الرحمة وتدعو إلى الإحسان لكن الإنحياز يدفع إلى الموقف الحازم الذي لايعرف الممارسة ولايقبل بأوسط

الأمور مطلقا . إن ما كان يجرى في المجلس بشأن الحركة النقابية وقضايا العمال كان من قبل بعض الأعضاء الذين كانوا من الأساس منحدرين من فئة تجارية عرفت بعلاقتها القوية مع بعض أغنياء اليهود . بدأت فكرة التطبيق بخصوص ما قرئ من دراسات صدرت في مصر تحديداً عقب العدوان الثلاثى مثل كتاب «الدولار يحكم بريطانيا»، وإن يكن ذلك التطبيق يعتبر عند المراجعة شبه فردى، وقد يقع الذنب إلى أكثر من ذلك عند قراءة دراسة عادل أحمد ثابت المترجمة عن الإنجليزية تحت عنوان أزمة بريطانيا الاستعمارية بصدد الانهيار الاقتصادي الذي بدا يومئذ قاب قوسين أو أدنى . إن معظم الدراسات التي صدرت في هذه الفترة تنحو منحى ماديا صرفا، ولكن في مستوى لابأس به من القسرية غير أن بعضها يجد مرتكزاته في الواقع وبواسطة المصادر الفكرية والوقائع التاريخية، كان واضحاً أن المجال النظرى بات أكثر إغراء وأدعى إلى ترسيخ الشخصية شبه المكتملة في مجال الإبداع والدراسة على السواء . إن على الرقيعي الذي يعتبر أقوى الاصوات الشعرية كان يدفع في هذا الاتجاه، حين لم يخف احتفاءه بما درج عليه شاعر مثل نجيب سرور، من عدم الاستسلام لآراء النقاد عند تناولهم لعطاءاته الشعرية في شئ من التسرع أو القسوة غير المبررة، الردود دافعه إلى مزيد الإبداع المتنزه عن المباشرة والتقليد . كان متابعا شديد الدقة للعطاء القصصى على نحو خاص،

ويمتلك ذائقة واعية مكنته من إرسال بعض انتاج القصص إلى أبرز النقاد المصريين المكلفين بالإشراف على النشر في الرسالة الجديدة، وكان أن اقتنعوا بما اصطفى ونشروا ذلك الانتاج وقد كان اقصى ما يمكن أن يصنع مع كتابات شابة ما فيه سبيل إلمامها للنشر أو الإشادة بها لولا مبادرة الرقيعي، كذلك فعل تجاه الانتاج المحلى الذي اصطلح بالإسهام في تقييمة فكان رأيه بصدده متفردا وكان ذكيا حيث واصل الذين راهن عليهم الرحلة بقوة من أمثال التكبالى الذي دأب على أن يعطي الكثير والكثير .

5

كانت الاحداث تتوالى . والمنطقة تمور بالصراع تلو الصراع، بل إن العالم كله كان يشهد عديد التحولات الخطيرة، لقد سقط باتيستا في كوبا . وتمكن كاسترو من إقامة أول نظام ثورى في كوبا وواصل جيفارا مسيرته، ومنيت الإمبريالية بأخطر خسارة، واستطاع لومومبا البطل الأفريقي أن ينتصر في الكونغو وسيكوتورى في غينيا وكسب المعسكر المعادي للامبريالية مواقع جديدة، إضافة إلى ما يمثله عبدالناصر ونهرو، وشوان لاي، فيما كانت الثورة الجزائرية توالى انتصاراتها على الاستعماريين الاستيطانيين ولم تستطع جميع محاولات الترويض والاغراء ان تفعل شيئا والبلاد كلها ساحة من ساحات النضال الجزائرية، ما من مكان إلا ويتحدث عن الثورة ما من سوق إلا ويجمع التبرعات، الأسلحة تشحن من كل مكان في ليبيا، حتى إن الحكومة المؤقته اتخذت من ليبيا مقرا لعقد أخطر اجتماع لمجلسها الوطنى، وقد رؤي يومئذ أن يكون المجلس التشريعي هو مقر ذلك الاجتماع أى على بعد خطوات من النادى . كان عدد من الوطنيين على صلة وثيقة ببعض القيادات الجزائرية وعلى الأخص ذات التوجه اليسارى، وكان أهم مالفت النظر عند الاقتراب منهم والاحتفاء بقدومهم مادأبوا على

إظهاره من حنق و ضيق كلما وجدوا صورة الزعماء الخمسة تملأ الجدران، فقد كانوا شديدى القلق من ذلك الإبراز لما رأوا فيه من مقدمة لإنزلاق الثورة الصاعدة نحو الحكم الفردى معتبرين إبراز الأسماء سيؤدي في النهاية إلى تضخيم نمط من القيادة لن تقيم دوراً للناس الذين صنعوا الثورة وانفقو في سبيلها أعمارهم ودماءهم . كانت الخشية من النشاط الإعلامى الفج الذي يطرح مسألة الاستقلال مفرغة من المحتوى الاجتماعى، ومن صورة المستقبل .

صحيح ان جبهة التحرير كانت قد تبنت أسلوب الفصل بين الجدل النظري والنضال التحررى، لكن ذلك في الحقيقة لم يكن هو الإجراء المتبع من الناحية العملية فعبر الحوار تظهر دائما أشياء مختلفة، تظهر العودة الحقيقة لما كان يعيشه الناس من أسئلة فيصبح هذا الشعار أمرا غير مطبق . كان هناك كلام عن بعض التصفيات الجسدية المثيرة حتى إن بطلا مثل عمبروش قيل إن تصفيته جرت على أيدى بعض الأسماء المعروفة وليس من قبل الاستعمار وكان ذلك أمرا محزنا ومخيفا وباعثا للحسرة وعدم الثقة في المستقبل أيضاً، حين تشمل الإشاعة أسماء من ملأ رحيلهم الدنيا، فيصبح الحديث عن رحيلهم هذا في اتجاه التصفية الداخلية وليس الاستعمار ذاته، فتأكد بالتالى أن المعركة تجرى بشكل متلازم بقضية الاستعمار من ناحية والتهميد لوريث غير ديمقراطي من ناحية أخرى، وحين يكون

الأمـر كـذلك فـأى أمل يمكن أن يكون في ثورة شـغلت الناس جميعاً وأسهم فيها كل منهم بقسط من الاقساط . إن ما كان قد تميز به أولئك المناضلون شدة صراحتهم ووضوحهم حتى ليبدو ذلك منافيا لأصول اللياقة السائدة والمعمول بها في أجزاء كثيرة من الوطن العـربي . إن مـا كـان يدعـو إلى التـأمل ويبـدو أن الكثـيرين لم يتـوقـفوا أمـامـه في حيـنه هو الحـديث عن العـمق الأفـريقي وتفكيـر بعض المناضـلين في اسـتـثمـار بعض الهـويات غير العـربية في اتجاه القـول بالخصـوصية الفطـرية،والخصـوصية في الحقيقـة مسألة تقوم على وضع الاعتبار في تحديد الخيارات المستقبلية، ومثل هذا الاعتبار قد لايكون مقبولا لدى أصحاب العواطف الجياشة التي حشدتها إلى حد كبير وسائل الإعلام المؤثرة وخطابات القادة التاريخيين، لكنها لايمكن أن تكون كافية في واقع يواجه مشكلات يومية تتألف من الحاجة إلى لقمة العيش لتصل إلى ثقافة مستقرة وموروث تاريخي يعود إلى حقب طويلة في التاريخ ففي مثل هذه الأحوال تعجز العواطف عن تحقيق أي مردود يذكر تجاه ما هو مستقر لدى الجميع الذين هم بالضرورة مناط التوجه، وغاية القصد ونهاية المبتغى . وإلافـإن الجـهـد المبـذول لن يكون سـوى تحليق حـول الذات ومحاولة من المحاولات الموغلة في الاجترار وإضاعة الوقت في أمـور لاتسـمن ولاتغنى من جـوع، مع ذلك، فـقـد كـان هـناك حديث عن المصلحة اليومية، بالنسبة لجماهير الشعب الجزائرى

وعماله على وجه الخصوص . كان هناك قلق على المستقبل، وخوف من أن ترث طبقة من الطبقات الصاعدة كل شئ، كان هناك عمال طلبوا ممن اتصل بهم وفاتحهم في أمر النضال الوطني أن يفصحوا مقدما عن برنامجهم السياسي ونظامهم الاقتصادي الذي يمكن النضال من أجله، حتى إن هذا النوع من الناس لم يستنكف القول « الله يسهل روح ياخوى أنت تبقى تطرد الفرنسي وتفقد بدالو وانا وغيرى ويش راح نحصلو » . وكان هناك - كما يرى بعض أولئك المناضلين - من يلتمس العذر لأصحاب هذا المنطق، فلب القضية يجاوز طرد المستعمر، لأن خروج الفرنسيين من الأمور شبه المقررة لكن ما سيكون بعد ذلك هو المطلوب .

كان هذا المنطق يذكر بقول ذلك البدوى، الذي قال صاحبه :

- فكيت لك نعجة من الذيب
- فسأله أين هي .
- كان الجواب أكلتها .
- فرد ذلك ببساطة شديدة : أنت والذيب واحد .

فمادام الاستقلال لا يوفر لقمة العيش إلا للقلة ولايطرد غول الفقر عن الجميع فلا فرق بينه وبين الاستعمار، كان ذلك في الحقيقة دعوة أخرى ملحة للتفكير في المسألة الاقتصادية أو ما يطرحه الواقع من قضايا الناس جميعا . وأن أهم ما تحتاج إليه الجماهير لكي تستشعر معنى السيادة وتتذوق طعمها الحلو هو

التغلب على أشكال الحاجة، غذاء كان أو كساء، وقبل ذلك كله أمن صادق من كل أشكال الخوف .

- الناس في كل مكان، يصارعون من أجل لقمة العيش ويقاومون من يظفر بقسط من هذا الرزق يفوقهم، يشكل له بالتالي ميزة عليهم، منهم من يعرب عن ذلك صراحة فيقع تحت طائلة الحسد غير المشروع ومنهم من يخفي مشاعره فيكسب صفة العاقل، ومنهم من يذهب إلى أكثر من ذلك فيدرك الأسباب البعيدة ويسعى إلى الحد منها حتى لايختل التوازن في المجتمع، إن الناس يدركون أولا وأخيرا أن الأصل في الحياة أن يعم الخير وأن تسد حاجة المحتاجين أينما كانوا، وكل تفاوت في الحقيقة هو نوع من الظلم، كل الفرص التي اتيحت وادت إلى شئ من الفوارق بين البشر لاترجع إلى الصدفة وحدها، ولم تفرضها قوة تتجاوز إرادة البشر، البشر مسؤولون عن أشياء كثيرة، وليس ثمة من يتبرع، وهو إن فعل ذلك مرة لن يكرر فعلته مرة أخرى، الحياة والحالة هذه تحتاج إلى نظام يوزع الفرص بين البشر، والعدل ليس هبة ولامنّة من أحد ولكنه نتاج كفاح مرير، عبر حركة الجموع التي لابد أن تظهر هادرة وتحقق صورة المجتمع الأمثل، وهو أمر لن يجئ بدون نضال وإدراك لواقع الحياة .

ذلك ما أدت اليه قراءة ذلك الكتاب المهم المكرس لتطور الملكية الفردية والذي طبع قبل هذه الأيام بفترة قريبة هي

تحديداً فترة ما بعد تأميم القناة، حين تأسست على ما يبدو مجموعة من الدور التي اضطلعت بمهمة نشر الفكر الاشتراكى، منها هذه الدار التي جعلت شعارها ذلك المصباح، أو ما ندعوه (بالقازة) وأطلقت على إصداراتها دار النديم«ربما نسبة لعبدالله النديم المفكر والمناضل المعروف الذي لعب دورا خالدا في حركة النضال المصري والثقافة المصرية وكان صحافيا وشاعراً توفى أواخر القرن الماضى وقد عاصر الثورة العرابية في مصر فوقف معها وآزرها».

لم يحمل اسم المؤلف اى صفة علمية، ولم يشر إلى أى معلومات عن المؤلف سوى اسم الذي وضعه في زاوية من زواياه (أحمد غنيم) بحروف دقيقة وورق في منتهى التواضع لكنه كان عملا يتطلب القراءة المتأنية، القراءة الصبورة، التي لا علاقة لها بالتسلية ولايستهدف صاحبها أى شكل من أشكال المتعة، اللهم إلا المعرفة، والإلمام بتلك الرحلة الطويلة التي قطعتها البشرية، بصدد الملكية الفردية منذ عهود المشاع الأولى إلى زمن الرأسمالية الحديثة وما حققته من إنجازات وما أدت إليه من معارك عنيفة وصراع لايعرف التوقف، يبدو أن الناشر حرص على جلب تلك الكميات من الكتب لأهميتها العلمية من ناحية ولزهد سعرها من ناحية أخرى، فقد علمته التجارب أن كل مطبوعة لابد أن تنفد في يوم من الأيام وأن القراء دوما في ازدياد .

كان من الضروري إذن أن يقرأ الكتاب أكثر من مرة وأن توضع العلامات التي تساعد على المراجعة فالهدف هو القدرة على مسايرة الحوار حول هذه القضايا التي فجرها الواقع العربي إزاء هذه القضايا الكبيرة، التي تبدأ بموضوع الالتزام في الأدب والفن وتنتهي بالحديث عن النظم الاقتصادية المثلى لبناء الانسان الجديد، إنه المناخ المعرفي الذي خلقته حركة الثورة العربية، وساعد على تفجيره معسكر القوى المعادية للاستعمار، لكن ذلك لم يبعد الهم الوطنى من الدائرة، ولم يدفع إلى تبنى أى فكرة تنتظر البطل الذي يأتى من خارج الحدود ليغير هذا الواقع، وكانت الفكرة من البداية أن الوطن ليس عقيماً وأن الشعب قادر على صوغ أسئلة وصورة ملامح غده . ومن هنا لم يحدث أى ملل من القراءة ومعاودتها والاستفادة من أولئك الذين بدا عليهم أنهم سبقوه بعض الشئ ممن تعرف عليهم سابقا ولاحقا، وإذ لم يكد يفرغ من قراءة تلك الكتب المتاحة حتى أمكنه أن يناقش وأن يحاور وأن يفصح عن شخصية قادرة، على التكافؤ والإحساس بأن الأرضية صلبة وصالحة للتقدم .

لقد هيأت هذه الأبحاث فرصة الانطلاق نحو مسائل فكرية أخرى أكثر تخصصاً وشمولاً صدرت يومئذ عن مثل هذه الدار وغيرها من الدور التي اضطلعت بالمهمة التنويرية ذات الصبغة اليسارية التجديدية وهي أبحاث تناولت الواقع المصرى تحديداً

ولكنها أعطت المفاتيح المهمة لمعرفة الكثير عن الواقع العربى فالثورة المصرية على سبيل المثال التي اعتمد بعض قادتها الأسلوب الخطابى المباشر والتشكيك في كل المواقف السياسية الرائدة لحسابات تكتيكية، لم تكن كذلك وفقاً لما أنجزه إبراهيم عامر تحت عنوان ثورة مصر القومية وإنما هي ثمرة نضال مرير خاضته القوى الوطنية المختلفة طوال السنين الطويلة أبرزها بدون شك معركة الفدائيين في قناة السويس التي أفلحت في تقريب يوم الجلاء ذلك الطلب الخالد في الوجدان المصرى كما عبر عن ذلك شهدي عطيه الاسم الذي ظهر قديماً على صفحات - الرسالة القديمة ذات يوم وكشف بفكر ثاقب ونظرة ذكية عن تلك القوة التي كانت تقف خلف أشرف أيامها وأعظم إنجازاتها منذ آماد قديمة خلافا لذلك الشعور الذي قدمته الكتابات الرسمية و يستشعر بعد ذلك وفي فترة قريبة حجم الخسارة التي جسدها غياب هذا المثقف الرائع وسط ملابسات صعبة وفترة كالحة من فترات التاريخ المصرى، بل ولتشكل موقفاً حساساً تجاه التجربة في عمومها، لقد تأكد عبر الاطلاع المعمق على أحداث المرحلة ووثائقها . إن الوجود البريطانى كان في حكم المستحيل وإن لم تبرم اتفاقية الإجلاء، بل لعل اتفاقية الإجلاء - حفظت ماء الوجه بالنسبة للعسكرى البريطانى الذي لم يكن أمامه سوى الرحيل .

إن أهمية هذه الدراسات تكمن في موقفها النقدى لمشكلات

ذلك الواقع، ليس فقط من خلال طرح ما كان يرزح تحته من ظروف التخلف، وإنما من طبيعة ما تم إنجازه بالأساس، إذ يتضح من تلك المراجعات أن الأولويات حين تم وضعها لم تراعي في أي يوم من الأيام مصالح القطاعات العريضة، وإنما سخرت تسخيراً كاملاً لصالح الطبقات العليا من المجتمع وهي المتحالفة بالضرورة مع المستعمر وما تتطلبه مصالحه الكبرى من مشاريع وما ينتج تلوث الأولى وانعدام الثانية من أثر على الريف المصري، يلاحظ أن الاهتمام بالنقل كان أكثر حظاً، وذلك الارتباط بمصالح كان أكبر .

لقد ناقش إبراهيم عامر على سبيل المثال المسألة الزراعية في مصر عبر ذلك الكتاب المهم الذي أطلق عليه عنوان «الأرض والفلاح»، فتابع مشكلات الأرض وصراع الفلاحين بصددها وما بذله المثقفون الطليعيون من جهد نظرى لتحديد أبعاد هذه القضية وتشابكاتها الكبيرة ، وعمق علاقتها بالقوى المسيطرة، مميطاً اللثام عن مشروع الإصلاح الزراعى الذي تبنته القوى الوطنية وعملت في سبيله سنين طويلة، في اتجاه مراعاة ظروف الفلاح وقدرته الفعلية على الاستيعاب والاستفادة من للشاريع، خشية وقوع بعض الإرباكات التى كثيراً ما تجرد الفعل الثورى من محتواه، لتنفيذه في غيبة القوة التي يفترض أن تقف بجانبه وتستشعر الشراكة تجاهه، بحكم أن كل إصلاح يتخذ يؤدى بالضرورة إلى إشكالات أخرى من المهم أن يقع التفطن

إليها والاستعداد لها، الأمر الذي يستحيل أن تنهض به غير القوى الواعية والتي كان من عيوبه الشروع بتغييبها بعض الوقت .

وهي أمور تناولها بشكل متقارب باحثون آخرون من أمثال فوزى جرجس وأنور عبدالملك كما حفلت بها مجموعة من الكتب التي اضطلع بنقلها إلى العربية نظراؤهم، من أمثال إسماعيل مظهر وفؤاد أيوب ممن نشروا في دار اليقظة العربية والفكر الجديد والفارابى في سورية ولبنان، والدار المصرية والفكر وغيرها في مصر، وكان الجيل يقبل على قراءتها فيما يشبه الالتهام . لقد كان الهدف يومئذ هو اللحاق بالمجموعة والقدرة على الحوار والدفاع عن وجهة النظر، وكانت ميزة القرناء ذلك الترحيب الصادق بكل من يسلك طريق القراءة مسترشداً بمثل هذا التوجه، فهو توجه يدرك قبل غيره مدى الحاجة إلى مضاعفة الجهد وإلى رفع المستوى والاستعداد للمعركة الفكرية التي لا مناص من اشتعالها ولا مجال لخوضها وتحقيق النصر فيها بغير قوة الحجة والتحصيل .

- لم يتح استقرار ابن العم « بشير » في المدينة قراءة كتب خالد محمد خالد التي خبأها لديه الفنان الراحل إدريس الشغيوى، ولكنه بالإضافة إلى ذلك أو لنقل أكثر من ذلك هيأ فرصة عديد من اللقاءات المهمة والعفوية مع أسماء مهمة في مجال الثقافة وفي نفس التوجه الذي تم اختياره، مما كان له

أفضل النتائج في مواصلة الحوار والتعرف على زوايا أخرى لها بدون شك قدر من الخصوصية . إن البشير الذي لم ينل من التعليم العربي قدراً يذكر، والذي كان قد دخل الحياة من باب العمل مع الجيش البريطاني في بنغازي أثناء تلك الهجرات الكبيرة التي جرت من جهات كثيرة في اتجاه بنغازي حيث وجد القوم هناك وضعاً أفضل للعمل، عندما طرد الكساد عشرات الشباب، قد استطاع أن يشق لنفسه طريقا قيما ووجوداً اجتماعيا ملحوظاً، وصعوداً قيادياً متميزاً، فقد كانت هشاشته وبشاشته عنصراً أساسيا في ذلك اللقاء شبه اليومي الذي ما انفك يتم في تلك المزرعة التي حل بها وأسس بها في وقت سابق أول مشروع للدواجن، ممتطياً سيارة الفوكسل الجميلة ذات الرقم 18555 والتي لم تخل يوماً من تلك العناصر المستنيرة، في إتجاه المزرعة أو اتجاه زاوية الدهماني، حيث يلتقي كل من الدلنسي ومفتاح الشريف ومحمد زغبيه والشغيوى والمقدود وبوقعيقيص وأسماء أخرى كثيرة كان لها حضورها وإسهامها في حركة الحياة بعامة والثقافة على وجه الخصوص، إنه تحرك يجمع بين الإسهام الفكرى والموقف شبه العملى وبالذات عبر جريدة طرابلس أثناء رئاسة «أبوهروس» لها وكذلك الفترة الأولى من استلامه لمسؤلية الرائد . فمع هؤلاء كان الحوار يتم في شؤون فكرية كثيرة، انطلاقاً من قضايا الأدب والفن مروراً بالقضايا النقابية ومشكلات الإدارة وما

تشهده الحياة من تجاوزات وما يجرى من أمور تجسد إلى حد كبير ما كان يتفشى من المحسوبية وتفاوت الفرص، وتحقيق المصالح غير المشروعة، كانت فرحة ابن العم كبيرة . عندما لاحظ ما أحاط به أولئك الاصدقاء ابن عمه وهو الذي يصغرهم سنا من اهتمام وبما استطاع أن يثبته من قدرة على الحوار . وكان أولئك الأصدقاء من العناصر التي يعرف بشير مقدار شهرتها وماتظفر به من علو المنزلة في مدينة بنغازي تحديداً، ومن هؤلاء تكونت الصورة البانورامية الأولى عن وجوه كثيرة للتجربة الثقافية ذات البعد النضالى . حيث لم يغب عن المكان سوى طالب الذي لاتسمح له ظروفه بالقدوم إلى طرابلس اللهم الا في أقصر المدد وأكثرها ازدحاماً بالعمل ولشأن نقابى عميق الارتباطات . إن المزرعة بالأساس أخذت لغرض استغلالها في السكن ومشروع الدواجن الذي يعتبر أسبق المشاريع التي أقيمت في المدينة، وقد تم من منطلق الشراكة بين مجموعة من العناصر المعروفة التي جمعت بين النشاط الاقتصادي والعمل الوظيفي . بحيث امتلكوها أرضا ثم اعادوا استثمارها مستفيدين من القروض الزراعية التي استحدثت وعرف الأذكياء كيف يشغلونها، كان من بينهم الخبير الانجليزي « واطسن » الذي ارتبط البشير به من باب العمل البسيط إلى صداقة حميمة وشراكة في العمل، لتفرغ الانجليزي لعمله الذي بدأ من الجيش البريطاني لينتقل بعد ذلك إلى الزراعة وينتهي

أخيراً في الملاحة، ويتولى البشير مهمة مشروع الدواجن مع الشركاء الليبيين، فيؤدى ذلك الوضع إلى تداخل عجيب بين الخاص والعام، ويغدو ذلك الانجليزى الطيب على صلة بهذه الأوساط . إن آراء هذا الرجل تنعكس على أقوال البشير ذاته وإن الخبره في مجال الزراعة سواء في تربية الدواجن أو البذور المحسنة وصولا إلى النظرة للكون والحياة تبدو ظاهرة في آراء البشير، ويتضح وفقاً لذلك أثر الإنجليزى فيتخذ منحى ماديا في تفكيره وموقفه من الموت وما بعده والعلاقة بين الإنسان والحيوان، إلا أن الغريب في الأمر أن واطسن هذا حرص كل الحرص على حضور قداس الأحد بالكنيسة الكبيرة، وكان هذا الأمر يدعو إلى الاستغراب إذ كيف يمكن التوفيق بين نظرة تقول بأن الحياة واحدة، وأخرى تتمثل في التماس المغفرة من القديسين، إنها صورة من صور العجز عن الخيار الحقيقى أمام الثوابت .

كان عدد من أبناء الجيل يهتمون كثيراً بهذه المسألة وإن كان ذلك يلاحظ، كما أدركته بعد ذلك على البشرية عبر التاريخ، ولكن الاهتمام يبدو في الغالب بتأثير القراءة أكثر من أنه نتاج موقف حقيقي وقناعة نهائية، إن الأمر يتصل بالسلوك اليومى أكثر من اتصاله بالحقل العلمي والاختصاص الفلسفي، ومن المؤكد أن ذلك كان له أثره الكبير فيما طال سمعة البعض من الذين لم يتفطنوا لهذه الجزئية، وهو الأمر الذي انتبه إليه

البعض الآخر من الذين لم يخرجوا على الإجماع، وتجنبوا خطأ الاصطدام حفاظاً من العزلة والعجز عن القيام بالدور اللازم، من مجيئ الموقف المناسب .

6

إن الحديث عن اليومي، ليس من الأمور، غير اللازمة، كما تصور البعض خطأ بل على النقيض من ذلك، فقد كانت الغلطة الفادحة التي ارتكبتها بعض العناصر التي يمكن أن توصف بالتقدمية إنما تجسدت في عدم التفاتها الجدى إلى هذه الناحية، وعدم التعامل معها بوعى ومسؤولية، فالناس في تعاملهم مع المثقف والعنصر الوطنى عموماً . وفي حرصهم الشديد على سلامته واعتزازهم الكبير بدوره الريادي، وعطائه المميز . ذلك الحرص الذي يترجمونه عادة في إفساح المجال له كي يتقدم الصفوف لمهام كثيرة . ومن بينها ما عرف بالتمثيل الشعبى في المدن خصيصا، يعز عليهم أن يتغيب عنهم في لحظات سرورهم وحزنهم على السواء، وهم إن افتقدوه في الأولى وشغلهم عن ذلك ما يرفلون به من حلل السعادة، وما يملأ قلوبهم من مشاعر الغبطة فمن المؤكد أن إحساسهم بفراغه، سيزداد في الأخرى، حين لايغنى والد عن ولده، وكما يقول المثل المعروف (لاحبيب ينفع ولاعدو يضر) ذلك أن من تحل به الكارثة مهما كانت قوته فهو في أعماقه يحتاج إلى تخفيف الآخرين، إن الحزن عند حلوله يكون كالجبل الكبير ، لكن المتنادين لتخفيفه يبدون في تعاطفهم ومؤثراتهم بمنزلة الآلاف المؤلفة التي تحمل ذلك الثقل،

كلما استشعر المصاب القدرة على مواجهة مأساته، وليس ثمة من يمكنه أن يضاعف من هذه المشاعر لدى المصاب مثل العنصر المستنير ليتقدم الصفوف بهذه الصفة أو تلك وأبرزها من يحمل مسؤولية تمثيل الشعب أو يتطلع إليها أو تقلدها ذات مرة، إذ أن الحد الأدنى من التضامن مطلوب من قبل من يتقدم الجماهير هو ما يحرص عليه من التزام قاعدته الشعبية، عندما يحل بهم مصاب، بل ما من قاعدة شعبية يمكن أن تقوى وتحافظ على فاعليتها بدون الالتفات إلى هذه البديهيات وتسعى إلى مراعاتها عبر الممارسة اليومية في الحي والمنطقة والمدينة .

وعندما كانت الندوة المفتوحة، التي طالما نظمت بطريقة عفوية في شارع عمر المختار (مقهى الساهوكى) وتثار فيها مثل هذه الإشكاليات التي واجهت بعض العناصر التي وقع عليها الاختيار الشعبى وانتظر الناس منها أن تحافظ على شعيرة المجاملة ومشاركة المصابين أحزانهم والمكلومين جراحهم بوصفهم وثقوا في هذه الرموز فإذا بالبعض وبدلا من الاستجابة لهذا الطلب المشروع، والتفكير في سبيل لمعالجته بدأوا يطرحون القضية من باب التدليل على قصور عقلية الجماهير تجاه الواجب العظيم المنتظر والرسالة الخطيرة المحمولة ، مما كان يشير إلى الروح المتعالية وفكرة رفض مبدأ المحاسبة ولا يتوقف عند فطرة العتب التي أودعت في الإنسان منذ الأزل لما يفضي إليه العتب عادة من تنظيف النفس وما تؤدى إليه المحاسبة من تقويم الإعوجاج

وتلافى النواقص، مما جعل بعض الحاضرين يضيقون بمثل هذا المنطق الممعن في السطحية والمغالطة، فكان أن ارتفعت الأصوات قوية ضد أى محاسبة بدرت فأبسط ما يمكن أن يقام به نحو المواطن مجاملته عند حلول النوائب، ولا يمكن أن يكون في كثرة الناس تعلّة للتقصير نحو الخاص منهم على الأقل .

كان أكثر الحاضرين تبنيا لهذا الموقف على عميش الذي عاد لتوه من مصر متخرجا من كلية الاقتصاد، والذي انحدر بالأساس من سوق الحشيش حيث عاش والده سى محمد أقدم السائقين في زمن الطليان والذي ظل يكدح من أجل أن يحمل إليه هذا المؤهل في تلك الفترة المبكرة . إن «على » في الحقيقة لم يأت حاملاً لمؤهل اقتصادى فحسب وإنما جاء بفهم متوازن وقدرة على معالجة القضايا الفكرية والسياسية بعيداً عن الأحكام الجاهزة والأخذ بالمسلمات، حتى إنه حين يقول البعض بأن الاشتراكية قد صنعت روسيا يبادر إلى القول بأن بعض الدراسات تقول بأن روسيا من الممكن أن تكون دولة صناعية ولو لم تنح المنحنى الاشتراكى مثلا، بمعنى أن القدرات موجودة، وكذلك فعل عند ارتفاع الأصوات حول ما يمكن أن يضيفه مشروع السد العالى، فيقول بالرأى الذي يرى أن مشكلة مصرفى زيادة السكان وأن ما سيضيفه السد تستهلكة الزيادة السكانية هي نظرة تصد العاطفة لكنها تشق العقل . من هنا كان تصديه لمسألة عتب الناس على العنصر الذي يحمل

الأمانة في محله، لم يكن يكتفي بالجلوس في المقهى وحسب، بل لقد كان شديد الحضور لجميع الأنشطة الثقافية قارئاً لكل ما يكتب، يفرق تفريقا واعيا بين من يحملون الأشعرة ومن يمارسون العمل الحقيقي، يثمن تحرك بعض المجموعات التي كانت تملأ الحياة نشاطا وقد تثير الكثير من الخلاف، وقد تصل إلى التحامل، ولكنه يكبر في البعض نزعة المثابرة والإصرار على العمل، مهما كانت درجة الخلاف بتعدد الرؤية .

تسربت كلمات عميش إلى الذهنية الآخذة في التكون عبر الخيار الاشتراكى إن صح التعبير، كان هذا الخيار في بداياته ولكنه وبسبب من ذلك يحاول أن يستوعب التجربة في عمومها، ولاشك أن سلوك الرجل القائم على الزهد وعدم التكلف والتواضع غير المصطنع قد لفت الانتباه أكثر فأكثر، فلقد كانت المسائل المطروحة متشبعة ومتداخله وكان صوت العقل هو الذي يميز طرح عميش، وبدا واضحاً أن من أوكد واجبات من يتطلع إلى الإسهام فى حركة الحياة من خلال مؤسسات المجتمع المبنية على اختيار الشعب، بقطع النظر عن مستوى المصداقية فى هذا السعى المستمر نحو الناس مشاركتهم فى كل مايحل بهم وإن القول بعدم القدرة على إرضاء الجميع لايبرر مطلقا مقاطعة الجميع . أو التعلل فى الوقت بالشخصى، أى أن كل من لم تطله المجاملة فسيكون غاضبا بالضرورة فثمة من يقيم الأمور بالمتوسط العام، مايكون حديثهم طوال علاقته

بالحياة العامة من خلال الممارسة العامة فتراهم عند الحديث عن هذا لو ذاك بصدد هذه الواجبات يفرقون بين من يحضر في الغالب ويتأخر في بعض الأحيان وبين من ينقطع بشكل نهائى . لقد كان الرصد الاجتماعى يقوم عبر الممارسات الكاملة وليس من أقصر الطرق والنظر بالمنظار المحدود .

لقد كانت غلطة بعض الوطنيين الذين بوأتهم الجماهير الصدارة بواسطة الاختيارات الشعبية التي اتيحت في مرات نادرة هو عدم التفاتهم إلى هذه الاساسيات ، هذه الأشياء الصغيرة التى تؤدى بالضرورة إلى الأشياء الكبيرة فمع أنهم ولجوا الباب بواسطة الاجماع الشعبى فمالبثوا ان تخلو عن تلك القاعدة فكان جزاؤهم ذلك الانفضاض المخجل من حولهم، بحيث لم يبق إلى جانب البعض منهم أحد . وبدلا من مراجعة الأخطاء . والسعى نحو تصحيحها كان المضى المستمر نحو ذلك الدرب الخاطيء وكانت التصفية لمواقف الناس . وما ذلك إلا لما كان يحكم بعض المواقف من هشاشة وضبابية الوعى وانعدام الوضوح فى الرؤية .

بعكس آخرين من بينهم هذا الرجل الذى اختار طريقاً مختلفة بدأ عمليا بحسن استقبال أسوأ السفراء الليبين سلوكاً نحو الطلبة عندما ترك عمله ودخل الميدان التجارى ممثلا لعديد الشركات فدخل وزارة الاقتصاد واعتقد بأن طلبة الأمس الذين لم يكن معهم كريما ولابد أن يردوا إليه ماقدم فإذا به يجد

معاملة مختلفة ظل يتحدث عنها فى أماكن أخرى، وغدت لمن كان يحاول الإلمام بأوضاع الطلبة وتجربتهم تشير إلى نمط آخر من السلوك، على من يريد لنفسه أن يكون متميزاً أن يأخذ به ويسلك بحزم الدرس الأبلغ ورد الآجل. .

7

عاد أحمد بعد أن قضى السنة الأولى بالكلية . وخلافاً لما راهن البعض من أنه سيضيق ذرعاً بما روج عن سيطرة النشاط السياسي على النادى، وقد يذهب إلى التقليل من مجيئه وربما تجميد حضوره نهائيا ، تبين أنه أكثر تفتحاً وأشد تقديراً لطبيعية المرحلة .

وقد ظهر ذلك من خلال حضوره لقاء أحد المسؤولين، حيث وضعت المنضدة بطريقة تجبر من يستلم الشهادة على الإنحناء نظراً لوقوف ذلك المسؤول خلف المنضدة، فقد استفاد من ملاحظة الذين سبقوه، تأكد أن الحس الوطنى لدى الرجل قد ازداد عن ذى قبل . هو إذن يعيش الواقع بأكثر مما يذهب إلى أحاديث الإذاعات العربية المسيطرة على الشارع، كان الموقف لافتا للنظر، لكنه كذلك كان باعثا على الثقة فمن المؤكد أن تصرفاته جميعها مرصودة وقد تؤدى إلى تصفيته بشكل مبكر، إذ لايمكن أن يكون المنخرطون في سلك الكلية، غير خاضعين للمتابعة من كل الوجوه، حتى المكان ربما يكون مخترقا فيما يتصل بمسيرة ضابط سيتسلم عمله بعد أشهر معدودة . إن البلد مملؤ بالأجهزة، والعين لابد أن تكون على الجيش مسلطة لاتنام أبدا، ترى لو تجرى مفاتحته في هذه المسألة، لو لفت نظره

إلى أن مثل هذه الشكليات التي لالزوم لها وليس من المصلحة أن يتفرد بموقف يلفت نظر غيره ؟ استبعدت الفكرة تماما ، فهو إن كان مقبلا على أمر ما فلن يحذر أبدا ، السليم إذن توطيد العلاقة الإنسانية وعدم الغياب عن اللقاءات والذهاب مع المجموعة طيلة أيام الإجازة وعدم التخلف عن واجب التوديع يوم السفر وانقضاء فترة العطله .

لم تكن هناك أسرة للقيام بواجب الضيافة ، كانت المجموعة كلها تحضر إلى عين المكان ، إلى البيت الضيق بقوس البدوى أقرب الأماكن إلى مرابع الصبا وموطن المعارف ، إن قوس البدوى إذن إضافة جديدة وفضاء وجدانى لقلب مايزال مشدودا نحو آفاق سرقها الزمن ، وعوالم اغتالتها المقادير ، في سنوات مبكرة من العمر ، وها هي علاقة إنسانية جميلة تطل الآن ، وتعيد الكثير والكثير مما ضاع في زحمة العمر لتطويها كي لاتحول دون ما وقع التصميم عليه للمضي في اقتحام هذه القاعدة العريضة المتمثلة في المؤسسة الصغيرة بهدف الظفر بها وكسب رهان تعاطفها في المدى البعيد وذلك بإعمال أسلوب العلاقة الشخصية دون الانغماس نحو التقاطعات ونحو التفاصيل التي قد تنتجها بعض الكلمات المتطرفة ، ومن ذلك موضوع الحديث عن الديمقراطية التي تعرضت لبعض التجاوزات في أول تجربة وحدوية ، عندما لوحظ أنها بدأت بطريقة الإبعاد ليس فقط نحو الذين وقفوا أمام التجربة وإنما شملت الذين تحمسوا لها بقوة

أيضاً، أولئك الذين صاروا يغيبون الواحد تلو الآخر، حتى لم يبق في المواجهة سوى الذين اضطلعوا بالمسألة الأمنية أما الذين مثلوا الفكر والنشاط السياسي فقد غدوا في حكم الماضي البعيد .

إن القاعدة الموجودة باعثة على الإطمئنان والسعادة، تجمع في ثناياها عدداً من العاملين في قطاع النقل والشركات والطباعة والأمن والصناعة بالإضافة إلى أعداد من الطلبة الذين يستعدون للتوجه إلى الجامعة، لقد اقتضت ظروف الدراسة أن يذهبوا جميعاً مرة واحدة خارج المدينة وكذلك فعل قطاع الشركات لبعض من الذين يعملون معه، فكثر الخروج إلى المدن وإلى البادية .

لقد استحدثت الشركات يومئذٍ نظاماً فريداً من نوعه من حيث جمع المعلومات حين أعدت نموذجاً غريباً من حيث الدقة التي لاتغفل شاردة أو واردة دون الإلمام بها، الالوان، الأصدقاء الأقارب، الميول السياسية، القراءة، هذا فضلاً عن العشيرة، الإقامة القديمة والمستحدثة، وكان ذلك يعني ببساطة شديدة وثوق العلاقة بين النشاط النفطي والترتيب المخابراتي الدولي . فكان ذلك أيضاً مثار تعليق وتساؤل ودراسة لما يحمله من دلالات تتعلق بالوطن من جميع نواحيه . فلم يكن اللقاء اليومي مجرد رياضة أو .. هدرزة .. ولكنه يمثل جزءاً لابأس به من المثابرة والأسئلة الحقيقية التي تأتي صراحة وبشكل عفوي .

مايميز القاعدة الشعبية أنها مكونة من عناصر منغرسة في عديد الأجهزة . وتشغل وظائف يمكنها أن تطلع على أدق الأسرار دون أن تثير الاهتمام أو تلفت النظر في الغالب فضلاً عن انخراطها في النشاط الرياضي وهو الذي استيقظ بواسطته في الأساس، هو ماتتوفر عليه شدة البقاء وقوة التفتح وحسن الاستعداد أو لإقامة أفضل العلائق، إذا ماوجد من يحسن الحوار ويجيد سياسة النزول إلى القاعدة وليس انتظارها لتأتي راغبة مختارة، إن الرغبة موجودة لدى هذه الشريحة التي لاتعرض نفسها لكنها ترحب بكل من يقترب من المستنيرين من البداية.

كان يكفي أن يقتطع المرء جزءاً من وقته ليسمع مايقول هؤلاء بعد المباريات التي أجريت هنا وهناك، الخطأ الذي ارتكب عن عمد لحسابات معروفة، الآخر الذي تم عن حسن نية، ولعدم انتباه المساعد، هؤلاء في الحقيقة يعرفون واقعهم ولاتخفى عليهم حركة واحدة من الحركات . إن الأسماء معروفة والمواقف دائماً محسوبة وعلى الأخص فيما يتصل بالمباريات الأساسية حيث لايخفى بعض المسؤولين تعاطفهم وأحياناً تحيزهم أيضاً . ذلك أن هذا التحيز حين يتعمق فيه يلاحظ أنه لا يتم من أجل الفريق في حد ذاته، بقدر ماهو نتاج فهم أشمل ونظرة أوسع تتصل بالمصير الرياضي عموماً بالنسبة للمدينة أو الولاية إن شئت القول، فحين تكون الصدارة لبعض الفرق، الاتحاد بالذات يكون الكأس مضموناً في النهاية، لأن المرء يصبح من

مشمولات فريق يلعب بقلبه وليس كغيره من الفرق التي كثيراً ما تضيع منها النتيجة لأنها تهتم أو «تتجعد»، كما هو المصطلح!

ذلك مايقوله سعد الله وهو يتحدث عن موسم الرياضة، دون أي حساسية، فهو من أبناء المدينة القديمة، زنقة زعطوط بالذات . لكن عمله في (البانكا) كما يقولها بالإيطالية وهو يتكلم من خلال الأرقام، والأرقام في تقديره لاتعرف العاطفة، واحد زايد واحد يساوي اثنين، تلك هي القاعدة التي يتحرك منها سعدالله وهو يشق طريقه من البداية حين دخل العمل من باب الوراثة .

ـ من قال بيه هاالخير ياخوي ـ، الحمدلله، كل يوم أحسن من يوم، «ألسنا خير من اللي فات والجديد أحسن إن شاءالله الحال أحسن، الفقر عدو، أكثرنا بنات ما فيش إلا أنا وخوي الثاني صغير، يادوبك كملت «سكولاروما» بيش خدمت في البانكا، وكان مش بوي خدم من الأول أنا ما نحصلش خدمة، واللاتبي نخدم في الزحمة، أنا مانقدرش ياخوي، على خاطر بوي ماخدمش في الزحمة ؟!

غريبة كلمة الزحمة حين نطق بها سعدالله،إذا لم يكتف بالنطق وإنما أشار إلى جيبه وجيب أحد الجالسين، ولأول مرة برز هذا المصطلح الخاص بالسرقة ومحترفيها، فقد كان بحق مثالاً لخفة الدم والجاذبية، كما لولم يكن سليل ذلك فالشاب

شديد الفرح لاتفارقه البسمة مطلقاً تلازمه كلمة واحدة .

ـ ديما باهي ياخوي .

تلك هي الجملة التي يحرص عليها بالرغم من أكداس المسؤولية التي يحملها، فالأهل يسكنون مشاركة، فالإيجار كبير ومع ذلك لايترك نصيبه من الدنيا وشهواتها، ومع ذلك فهو يقوم الآن ببناء بيت في أحد الأحياء، يستعد بعد ذلك لتجهيز نفسه، فقد بلغ الثامنة عشرة ولم يعد صغيراً فقد بلغ مبالغ الرجال، هكذا يقول . لكن سعدالله لم يعرف الطفولة يوماً، يقول عن نفسه :

ـ من اللي فقص في الهم رقص، ديما يخدم ويجيب فلوس .

لاسر في حياته مطلقاً كل شيء في الطبق، ولد ويخدم على آماليه هو هكذا أو لايفكر في شيء آخر، ربما فكر في الذهاب إلى السينما ولكن في العروض المسائية وبعد أن تقفل المدرسة أبوابها فلابد أن يتعلم الإيطالية فهي لغة البنك الذي يعمل فيه ويسعى إلى التطور في ملاكه ؟؟

مايقلقه أحياناً تبرع بعض الأسماء المعروفة في المناسبات فهو يعرف واقعها الاقتصادي المتمثل في الاقتراض من المصرف، الديون والفوائد والدفعات المتأخرة، ومع ذلك يتظاهرون بالغنى ويصرون على الملابس الفاخرة، جميع أسرارهم معروفة ترددهم على المسؤولين، هداياهم الخاصة التي هي في الحقيقة رشوة لكنه لايقول شيئاً، سمعة الناس مهمة بالنسبة لـ سعدالله، لقد بدأ

في ذلك الزمن التعامل بسعر الفائدة والقوم بين محرم ومحلل، هو لايحب الدخول في هذه الأمور كثيراً، لكنه يقول دائماً : من جد وجد، ومن زرع حصد .. لقد بدأ بالطباعة وتدرب بعد ذلك في الإدارة وهو الآن يدرس الإيطالية وعقب المغرب يقرأ شيئاً من القرآن، وحين يجد الوقت المناسب يتوجه للتدرب مع الفريق شأن خلف والويفاتي وبقية المجموعة التي تسعى لتكون نفسها بعيداً عن الفوضى، من هؤلاء تطل صورة الأهل وهم يحرصون على أبنائهم ويجنبونهم كل مايطال مستقبلهم .

العاملون في النفط من أمثال المسيكني، يضايقهم الحديث عن النقابة التي بدأت تتحرش ببعض الدوائر، حين ترأسها السيد عبد المجيد، وبقية الأسماء الأخرى التي قيل إنها تمثل جوانب سياسية ما إلاأنها في حقيقة الأمر لاتهتم إلا بالعمال، تجمع بعض النقابات في اتحاد واحد اتخذ أصحابه مكانهم بجانب السرايا الحمراء أطلقوا عليه اتحاد النقابات الحرة، هؤلاء صاروا مشغولين في البناء بعد أن شرع في بيع بعض التقسيمات، فقبرالحياة كما يقولون عن السكن أمر مهم وضروري وبدونه لايصنع المرء شيئاً، إن قطار العمر يتحرك بخطى راسخة وفي إمكان أي من هذه الشريحة أن يأخذ في البناء، ولاحرج من الاقتراض مادام ذلك من الأمور الضرورية، لكن البعض مازالوا يصرون على تحاشي المعاملة البنكية، أحد الحاضرين قال بصدد الحلال والحرام :

ـ مافيش حرام أكبر من القعاد من غير حوش .

تبين أن من المستحيل ربط الاقتراب من هذه الشريحة العمالية بتبني أي فكر للاحتكارات الأجنبية، والتي وقع الاطلاع عليها ومن تبنيها، فهي شريحة معزولة في واقعها اليومي وممتلئة بالسعي لتحقيق الضروري، وربما يكون الحديث عن النقابة من الأمور الباعثة للحساسية، فهناك على مايبدو تعبئة كبيرة ضد النشاط النقابي وضد العناصر المستنيرة خصيصاً، لقد صورت وكأنها تحاول أن تحقق أغراضاً أخرى، شعبان نفسه الذي تحصل على رخصة القيادة حديثاً وأصبح يقود سيارة مقطورة غير متأثر بوطأة الاحتكاريين، ومتقبل برضاء كامل ضخامة الجهد المبذول أمام المرتب غير المجزي بكل الصور، فلم تتجاوز العلاقة معه سوى التوجه نحو شارع الكندي وانتظار الدور في الصف الطويل، كان محتاجاً لمن يرافقه بدون شك بعيداً عن الأقارب لكن هل كل ذلك ما يمكن أن يحقق، بدليل أن التوفيق لم يكن حليفه حين تصور أن الوسط يمكن أن يلعب دوراً مهماً في حياة المجموع .

ـ كل بلاد وعزاها .

لخص الرقيعي التجربة بالكامل، عندما انتبذا مكاناً قصياً هو إلى محل الدراجات أقرب منه إلى النادي لكن الجو ملبدّ لايسمح بالاختفاء من الناصية، رغب الرقيعي في تصحيح بعض الغوامض أو ماكان يدعوه بالتشويش الفكري مرة

وانتناقض مرة أخرى، فليست المسألة مسألة فكر ولكنها مسألة تطبيق، وقبل ذلك استيعاب .

إن الفكرة متاحة للجميع يمكن للمرء أن يقرأ مايريد، لكن كيف يطبق، وقبل ذلك كيف يستوعب، تلك هي المشكلة النظرية التي أمكن للشاعر أن ينتهي إليها ويخرج برؤية نحو ماطرأ على الحياة من متغيرات غدت تفرض شروطاً جديدة وحاجات مختلفة .

نحن لايمكن أن نعيش كما عاش الأهل، لابد أن نسهم في تغيير الحياة، يستحيل أن نعيش أسرة واحدة في غرفة مع الجيران، أقل مايمكن حجرتين، كل هؤلاء يواجهون هذه المشكلة، هل تنتظر من أحد أن يفكر في غير هذا الواقع، من قال إن الذين كانوا يملاؤن الدنيا إضرابات ويذهبون إلى حد التدمير لا يفكرون في هذه المشكلة، غاية مافي الأمر أن لكل منطقة ظروفها، ونحن لا نعرف ظروف الآخرين، هم أيضاً لايكتبون سوى اللحظات التى تفرح، ماعدا ذلك في الغالب يستبعد، لكن الحياة الحقيقية للناس هي كما يعانيها هؤلاء انذين أزعجك حوارهم أيها العزيز .

كثير من هذا الكلام لم يقل في ذات الزاوية، وإنما استكمل عبر الأزقة المتفرعة من الشارع الطويل، بعضه أمام النوادي وبعضه الآخر في زوايا المقاهي التي كنا حديثي الجلوس بداخلها، إذ إلى وقت قريب كانت للأجانب دون غيرهم، أما

الآن فهي للجميع ولأمثالنا تحديداً .

ميزة الرقيعي تلك العلاقة الحميمة بينه وبين النوادي، ففضلاً عن أنه من أعضاء الهيئة الإدارية للنادي الأهلي وأحد لاعبي فريق كرة القدم، فهو شديد الانشغال بنادي الظهرة، وكذلك يفعل هنا، أسلوب الرجل في الحياة جميل للغاية، لايطلب عامل المقهى الذي يفترض أن له مكسباً في البيع إلا بكلمة من فضلك تعمل معروف، على رحمة والديك الخ .. هذه الكلمات المؤثرة وكذلك شأنه حين يطلب الآخرون، حتى إذا مادفع المبلغ الزائد على الثمن فإن ذلك لا يصدر في تكبر ولكن يصدر بحميمية جميلة، ذلك أن مايدفعه لايبرر في نظره أي شكل من أشكال استشعار الجميل لكنه يدرك تماماً أن هذه الشريحة غير مؤهلة لأي موقف صلب، كان النقاش معه في البداية متصلاً بالشعر لكنه مالبث أن نحا منحى آخر يتصل بقضايا المجتمع في العموم، اتخاذ الموقف ازاء مايجري، تحديد أسلوب للتحرك، كان شديد الحزم في عدم الإقدام على أي خطوة غير محسوبة، لديه إدراك جيد لطبيعة المرحلة وواقع الناس للهموم الفعلية التي يواجهونها والتي تشغلهم قبل أي شيء آخر، البعض يعتقد أن ذلك من قبيل التردد لكنه في حقيقة الأمر ليس كذلك أبداً عندما اضطر إلى الذهاب للملاحة للكشف على أذنه التي تعاني من الصمم اعتبر ذلك من باب الخضوع للحاجة وضرب بنفسه مثلاً للآخرين حين كنا نناقش

مسألة الصمود، هو يشكك في قدرة الكثيرين، كان يلحظ تيار الطلبات اليومية التي تخضع الأغلبية الساحقة ويلحظ أيضاً حجم الإنفاق الآخذ في النمو، حتى وإن خيل للبعض أن العكس هو الصحيح، كان يخيفه بقوة انسياق الناس خلف الموروث وقوة ذلك الموروث في تبرير أي تصرف يمكن أن يتخذ، فتحت ستار محاربة المروق كان من الممكن تبرير أي إجراء تعسفي، على أن هذا الإدراك لم يكن يدفعه للتردد، ماهو مبدئي لديه هو الحرية، وبصدد الحرية كان صوته في مقدمة الأصوات التي ارتفعت منددة بكل أشكال التبعية وكان شعره تعبيراً قوياً عن رفض الأجنبي من جميع صوره وكان تمثله لواقع النضال الليبي من الاستعمار الإيطالي، بعض هذا الشعر متأثراً بالمدارس التي كانت سائدة لكن الوجهة باتجاه الواقع هي الأخرى قوية . كان مدركاً أن المجتمع طري وأن هذا الوضع من شأنه أن يدفع بالطبقة التي يفترض أن تكون هي الأرضية للأفكار الجديدة إلى الانعزال وربما تكون أكثر مبادرة بالإساءة لحملة الأفكار حين تحركها إذاعة من الإذاعات.

8

لم يكن دور المكان «النادي» مقصوراً على أعضائه وحدهم، بقدر ماكان فضاءً لجماعات أخرى، حين يحال بينها وبين الاجتماع المصيري لهذا السبب أو ذاك، وعلى الأخص تلك التي تدير نادياً من النوادي الأخرى والتي قد يعطل فعلها جزاء على موقف من مواقفها تجاه الأطراف المشرفة على الرياضة، كما حدث لنادي الظهرة، حين تقرر حل مجلس إدارته ذات يوم وبدلاً من دعوة الجمعية العمومية أغلق المبنى، وذلك عندما نشب خلاف بصدد مباراة من المباريات التي حامت حول حكمها شبهة التحيز فحصلت بالتالي أزمة نتج عنها حل مجلس الإدارة وقفل المبنى ليحال بين الجمعية العمومية والاجتماع، فحدث أن وضعت الهيئة الإدارية للنادي المكان تحت تصرف الجمعية العمومية لنادي الظهرة ليعقد الاجتماع وفقاً لنصوص القانون الأساسي، كان الأمر يتصل بمواقف عبدالله بن عبدالله رئيس النادي وأحد العناصر المتميزة باستقلالية النظرة وسلامة الموقف والجرأة على اتخاذ القرار المناسب، كان ذلك بطبيعةالحال لايتفق ورغبات الجهات التي عتادت أن تأمر فتطاع وبالذات فيما يتصل بنتائج الانتخابات وكانت مواقف عبدالله بن عبدالله من المنطقة في عمومها،

بمعنى أن الأمر وإن يكن ظاهرياً يخص الكرة إلا أنه في العمق يخص محلة الظهرة من جميع نواحيها، الأمر الذي سينعكس على المدينة في عمومها بعد ذلك، صحيح أن الجهات المشرفة أيضاً تفلسف مواقفها بمصلحة المدينة أو الولاية كما هو المصطلح وهوأمر ليس مرسوماً بشكل فوقي، إلا أن الأمر في مظهره يشكل نوعاً من أنواع التسلط وعدم ترك الحرية لجميع الفرق كي تتحرك وفقاً لما يملي الضمير، مما كان يستند على الرفض ويوجب المقاومة بكل الأشكال، إن محور الرفض يتكون من أولئك المترددين من غير الأعضاء، فهو بالتالي من الأمور التي تعمق مايمكن وصفه بالاشتباه السياسي باستمرار الأمر الذي سيطر بقوة وآثار عديد المتاعب، بل إن بعض الفرق كانت مجرد فكرة عند أصحابها وتمارس نشاطها من ذات المكان مثل نادي المدينة الذي ظل لفترة طويلة يتحرك من نادي الشباب، ذلك أن نادي الشباب كان مشروعاً وطنياً وكان يهدف من البداية إلى تجاوز النشاط الرياضي، وإن أخذ به فليس أكثر من ضرورات القانون و من ثم كانت الأنشطة الأخرى أكثر حضوراً بما في ذلك السلة التي تغلبت على كرة القدم والسباحة التي كان الحضور فيها مميزاً وكانت محاولة النشاط التمثيلي حاضرة منذ انضمام فرقة ليبيا الحديثة، وكذلك تأسيس الفرقة مرة أخرى وطرح بعض القضايا المتصلة بالرجعية الاجتماعية وهي رمز واضح للرجعية السياسية، وقد كانت النصوص المسرحية

بالذات لاتجاز من الدوائر الأمنية إلا بعد فترة طويلة من تقديمها وكثيراً ماتحجب الموافقة إلى ماقبل العرض بساعات محدودة وهو وضع مربك ومثبط .

وقد كان الموقف من مشروع قانون النوادي متميزاً للغاية عند عرضه على النوادي لإبداء ملاحظاتها بصدده فكان السعي الدؤوب لتنقيح المشروع وتوجيهه في اتجاه التفتح والحد من هيمنة الجهات المشرفة، بل إن الأمر تجاوز ذلك إذ حاول العاملون في النادي توحيد أكثر من ناد في تكتل واحد استثماراً لمادة تضمنها ذلك القانون وذلك بهدف إيجاد كيانات قوية وذات فعل ملموس في النشاط الاجتماعي وصولاً إلى حركة الحياة عامة وعندما نشر خالد زغبية قصيدته التي استهلها بمطلع (بلادنا غنية وشعبها فقير) والتي رأى فيها البعض تطاولاً على رجال الدين ومن ثم جرى تقديمه إلى المحاكمة وتحركت القوى المثقفة لتعارض مبدأ المحاكمة بصرف النظر عن المستوى الفني للقصيدة تحول النادي إلى مركز للتحرك المعارض لهذا التوجه ليس فقط بواسطة البيانات الاستنكارية التي وقعت من معظم القوى، بل بواسطة الأمسيات الشعرية التي كرست للحديث في الموضوع وإلقاء البيانات والنصوص المؤازرة للشاعر، لقد تزامن ذلك مع ظهور نتيجة مسابقة القصة القصيرة للكتّاب الناشئين التي أذنت بظهور كل من كامل عراب وخليفة التكبالي كاتبين يسلكان ذات المسلك المعادي

للرجعية وثقافة التبعية، وهى المسابقة التي أعلنت نتيجتها في حفل دعي إليه جميع المثقفين المعطائين وقام الوجه الوطني البارز عبدالعزيز الزقعلي بتسليم الجوائز في إطار رعايته لنشاط النادي ومواقفه النضالية داعماً لذلك التوجه التحرري كان السيد عبدالعزيز عضواً بمجلس النواب من أقوى الأصوات المعارضة لسياسات التبعية التي كانت سائدة في ذلك الزمان، كان خليفة يافعاً في التاسعة عشرة من العمر، وكان يمتلك أدوات جيدة، ويصدر عن تجربة حياتية خصبة للغاية عبرت عنها كتاباته المتدفقة وقدراته الواضحة يعمل بقرب النادي في شارع ميزران حيث محطة الوقود القريبة من ميدان الشهداء ومن أحب المقاهي الصغيرة التي كان الرقيعي يختلس بعض السويعات للجلوس بها للاستماع إلى بعض الأغاني وربما بعض الألعاب الخفيفة إن شغف الرقيعي بالحياة لاحدود له وله حرص شديد على الفصل بين لحظات الفرح والحوار الجدي، ربما فحص قصة قرأها أو شريطاً رآه في شاشة العرض وقد يدندن ببيت من الشعر له أو لغيره من الشعراء، وربما ذهب إلى شعر اللحظة المتصل بالمزاح والتنفيس لكنه لايدخل هذا النوع من الشعر إلى متنه الجاد، أما مقته للهجاء فشيء آخر، له إعجاب كبير بما يكتب التكبالي في مجال القصة تحديداً ومن رأيه أن مستقبل الكاتب أمر مؤكد لما تشير إليه تجربته الحياتية من الغنى والخصوبة، كان التكبالي يومئذٍ في بداياته الأولى دائم الجلوس

في ذلك المربع الصغير الذي يقرأ فيه كل مايصل إلى يديه، لقد تميزت تجربة التكبالي بجمال اللغة وفسحة الأمل، إذ لم تستطع تجربته الحياتية المرة أن تغتال لحظات الفرح من حياته بل على العكس من ذلك فقد أسهمت في تعميقها ودفعها إلى مواجهة كل المصاعب، إن ذلك لايعني أن مثل هذا التوجه كان ساذجاً أو مفتعلاً، وإنما هو من صميم التجربة من عمق في الكتابة، وذلك سر تميزه وسر قدرته على التفرد .

9

عندما وقع الاعتذار عن العمل بالهيئة الرياضية العليا ترجيحاً للعمل بالنادي ومجلس إدارته تحديداً، لم تنقطع الصلة بذلك المكان، بل إنها ازدادت أكثر فأكثر، فعثمان هو الموجود بالمكان في كل الأوقات، وثقة العم مسعود في ذلك الإنسان كبيرة منذ أن عرفه عشية تأسيس المكان وعرف العشيرة التي ينتمي إليها، ومن هنا لم يكن من الصعب أن يستثمر المكان في الأنشطة التي رؤي يومئذٍ أنها يمكن أن تحد من جموح بعض المسؤولين في مناطق الجنوب بهدف التخفيف عن الأهالي مما كان ينتظر بعضهم من إجراءات شبه انتقامية، كنقل الشيخ علي إلى زلة ومضايقة آخرين رؤي أنهم كانوا يمثلون جبهة الرفض إن صح التعبير، كان التحرك بسيطاً ولكنه مؤثر بدون شك، وقد تمثل في بعض الكتابات المجهولة الإصدار أو التي تحاول أن تنبه إلى بعض الإجراءات التي شكلت شيئاً من الظلم أو المتابعة، ولما كانت مصادر هذه الكتابات متعددة فإن اللغة أيضاً متعددة بعضها كانت لغتها معتدلة ومنطلقة من سرد بعض الوقائع، وبعضها الآخر جنح إلى التشهير والكلام شبه الشخصي، على أنها في الكامل كانت باعثة على القلق ومن ثم المتابعة بطريقة أو أخرى، حتى إِن أحد العناصر الأمنية قد كلف

بمتابعة الأمر، وإعداد شيء مكتوب حوله، إن المجموعة لم تكن منظمة ولكن الاتصال بينها غير منقطع، بالرغم من تغاير الأهداف والدوافع ومن ثم فكرة المداومة من عدمها .

والأمر طبيعي للغاية فالناس يتفقون عادة في المنطلق إزاء بعض الكوارث أو القوى التي تطالهم، لكنهم في الغالب يختلفون في القدرة على المواصلة والقدرة على استبعاد الجانب الشخصي، أو عدم الانصياع له بالكامل .

وصل التحذير في رسالة تؤكد أن التهمة محصورة في مجموعة طرابلس وأن إيفاد عنصر للقيام بمهمة التحري في طريقها إلى التنفيذ السريع وأن الخيط الأول سيكون من الاطلاع على عينة من حروف آلات المجلس والوقوف على الحرف المعطوب (ك) لقد كان التصور ساذجاً بدون شك إذ لا يمكن لمن يقدم على مثل هذه الأنشطة أن يستعمل معدات المكتب، فأبسط شروط الحذر أن يبتعد عن ذلك، لكنها الفكرة هكذا حصلت على أن الشيخ عجاج كان أكثر جرأة والذي كان يومئذٍ نائباً للرئيس عندما قال أمام المقهى التجاري الذي كان من رواده

ـ الجماعة تنسنس ياولد صاحبي وماتخليش حد متهني، فيه وحدين من البوليس الاتحادي يتبعو في مناشير صادرة هنا، حاطين عيونهم عليك، رد بالك سلم ولدي داير حاجة وإلاّ مانكش داير اللي يهمني تكون فاهم، وما نبيش نسمع منك كلمة .

أصبح الأمر واضحاً ثمة تهمة وهناك متابعة ولم يأخذ الأمر كبير وقت، حين وصل من كلف بالمهمة، وقد مر على مصراتة التي كانت موضع اشتباه أيضاً . كان التظاهر بأن القدوم من أجل الإجازة وليس بهدف العمل، كان المرابط شديد الذكاء حين طلب من مليمدي أن يسأل فيما إذا كان قد سجل في الأحوال أم لا، التسجيل يعني حمل السلاح، ومن ثم المهمة، وقد كان التوقع في محله حيث تأكد التسجيل . والواقع أن المرابط كان قد استلم تحذيراً هو الآخر، ويومها رد بكلمة محددة (اللي يشيل قربة عليه بللها) ولأنه قد أبعد منذ سنوات، فقد غدا يتوجس خيفة من الأكثرية بمن في ذلك من حذره تحريرياً، لكن المرء في لحظات حماسه للعمل ورفضه لأي نصيحة قد يخسر أقرب الناس إليه، فالذي حذر في الحقيقة كان ناصحاً وغيوراً بقطع النظر عن اتخاذه للموقف المختلف فثمة فرق بين الخلاف وبين السكوت على المكروه .

لقد تم استقبال المكلف بالمهمة عند قدومه للمدينة، وتمت معاملته والحديث معه في أكثر من مكان سواء في البيت الذي مر عليه أكثر من مرة، وربما يكون قد أقام بعض الوقت أو في أماكن أخرى، وبحكم الاتصال المتشابك تأكد أن النتيجة كانت مبنية على الإشاعات التي حصرت الأمر في ثلاثة مصادر، دون الاقتراب من مسألة الحروف، وكان هذا الموقف لامناص منه ولابديل عنه .

* كان السكن معزولاً إلى حد كبير عن النشاط الثقافي، لأن القراءة غير المنظمة ليست من مشمولات الساكنين، فهم بالأساس من صغار موظفي الشركات والقادمين من المنطقة لأغراض مختلفة، ليس من بينها الشأن الثقافي، الطلبة الذين أخذوا يتكاثرون هم أيضاً يوسعون نشاطهم خارج الدراسة، غير أن هذا الوضع لم يستمر طويلاً، فعالم الدراسة أثره في الوسط الأسري نسبي، أخذت بعض الملامح تطفو على السطح، فمن عادة التوجهات أن تفصح عن ذاتها،والمناخ العام يساعد على ذلك بدون شك، وبقدر ماكان البعض يسرف في الوضوح، كان ثمة اتجاه إلى الحذر، فقد استقر الفهم على أن الرقابة لابد أن تشمل البيت خاصة وأن موقعه ملاصق لمقهى شعبي صغير، مما يجعل هذه المهمة يسيرة للغاية وبالتالي فمن الضرورة بمكان أن يتوقف النشاط فالهيأة أيضاً ترصده هي الأخرى، ودائماً وجود المقهى يسهل المهمة،وقد كثرت المقاهي الشعبية هناك أيضاً، كان رأي نصر مخالفاً لذلك، فالمشترك أكبر من المختلف عليه والمقاومة ضرورية ولو بأضعف الإيمان، لكن الغلبة كانت للتوقف، لوحظ أن بعض الطلبة في طريقهم إلى مايشبه العمل، فكان الأنسب دعوة المجموعة إلى الابتعاد حفاظاً على الوحدة وعدم التشتت، وكذلك تفويت الفرصة على من قد ينتقم نظراً للمواقف الجهوية، إن التعويل على غض النظر، بدا وكأنه لعبة ساذجة، فالإجراءات القادمة لابد أن تختلف، لم يكن عدم

الحماس للنشاط السياسي خياراً شخصياً، ولكنه كان بهدف الحفاظ على المجموعة وعدم المضي في توريثها مواقف قد لاتكون قادرة عليها، من أراد أن يظهر قدرته على الاستقطاب فليفعل ذلك مع الآخرين، ومن دون الاعتماد على القرابة ينبغي ترك الأقارب للزيارة في حالة حدوث أي مكروه، ذلك ماأمكن اعتماده للحيلولة دون توريط الطلبة .

وذلك هو المنطق الذي لايخلو من «تكتيك» في واقع الأمر، ومن الممكن القول أن هذا التوجه قد حقق المستهدف منه، فلم يتم استدراج أي من طلبة معهد المعلمين الذين كانت الحاجة إليهم ماسة لسد النقص الظاهر في المنطقة، وكانوا مجموعة نيرة للغاية تدرك توجهات الأساتذة أيضاً وتبدي ملاحظات بصدد ما قد يكون تخفيفاً من هذه التوجهات، وهي على أي حال لاتصعب كثيراً فمن الممكن اكتشافها من الموقف تجاه مايجري في الساحة العربية وقد تأكد يومئذٍ أن مدرسي التاريخ تحديداً وكان أحدهما فلسطينياً والآخر من ذوي المواقف اليمينية، والمؤشر بطبيعة الحال الموقف من التجربة الناصرية، إذ إن الموقف منها كفيل بتحديد الهوية التي ستكون يمينية في الغالب ويسارية أو ماركسية في بعض الأحيان إذ مايزال القوميون والبعثيون في شهر العسل، بل إن القوميين لايخفون ارتباطهم المطلق بالناصرية بمن في ذلك الدبلوماسيون، كانت الأعمار صغيرة و التجربة غضة، لكن المتفق عليه لدى الأكثرية

هو أن الاتصال بالدبلوماسيين أمر مرفوض وإن يكن مثار خلاف .

إن وطنية التفكير من الأمور التي شغلت عناصر كثيرة بمعنى أن يقرأ المرء مايريد ويتبنى ما يعيّن له تبنيه، لكن في إطار العمل الوطني، فإن الخيارالوطني أولاً، فالفكر لايؤتي أكله ولايحقق دوره مالم يكن مكرساً لتطوير الواقع وكذلك تغييره، ولكن بدون أي تدخل خارجي، يستوى في ذلك الخارج العربي والخارج الدولي .

ثمة ميل واضح نحو الفكر الاشتراكي ومناهجه في النقد الأدبي قبل كل شيء، ثم الدراسات الاقتصادية، لكن الممارسات داخل المعسكر الاشتراكي لم تكن موضع رضاء، كان ثمة من يدرك وطأة السيطرة الروسية على ذلك المعسكر وإصرارها على احتكار المعرفة واحتكار التفسير حتى لايحصل أي اجتهاد .

إن الخلاف المصري العراقي، ذاته نظر إليه وفق هذا المفهوم إنه استمرار للصراع القديم المتصل بمسألة القطبية قبل أي شيء آخر، بمعنى أن المشكلة لم تكن مشكلة اتجاهات سياسية بقدر ماهي مشكلة من يقود القافلة الأمر الذي يعود إلى حقب في التاريخ قديمة، وممارسات وإن تكن قد اختفت بعض الوقت إلا أنها لم تنقطع أبداً .

غير أن الذهنية المستقرة لاتحتمل في الحقيقة مثل هذا التحليل فهى بطبيعتها مستسلمة للضجة الإعلامية وقابلة للانحياز نحو الصوت الإذاعي، وكان من الضروري أن يكون

الموقف أكثر تعقلاً وبمناى عن الاصطدام بقدر الإمكان .

لقد رأى البعض أن يصدعوا بما يعتقدونه في هذا السبيل، وقد أدى ذلك إلى حدوث بعض التصفيات، إذ تم استعداء العوام على المثقفين، ونتج عن ذلك ضمور كامل للدور الإيجابي ومواصلة العمل، إن الموقف بدأ في أول الأمر وكأنه انتصار لتيار ما ،ولكن في نهاية المطاف أضعف من الفاعلية بالكامل إذ كلما كان الرأي واضحاً والرؤية محددة كان الموقف العملي أكثر إيجابية، في حين لاينتج الاعتماد على العاطفة سوى وجود عناصر ضعيفة وغير قادرة على مواصلة الرحلة .

أخذت بعض العناصر توالي ترددها على النادي معتمدة على الترحيب الذي قوبلت به والذي كان باعثه حسن النية أمام الجميع ومحاولة دفعهم إلى العمل إن كان ثمة إمكانية لعمل شيء ما، وكان من بين هولاء أحد الجيران في الزقاق الذي كان لفترة قريبة منغلقاً على نفسه،، وإذا به يوالي الحضور، لكنه لم يكن في حقيقة الأمر يسعى إلى القيام بدور ثقافي وإنما كان يحاول لعبة الاستقطاب، تلك التي تتبع عادة توفير بعض الكتب ومن ثم الحديث حولها، كانت كتباً بسيطة للغاية تعول إلى حد كبير على اللغة وإيقاظ الشعور القومي، وقع الاطلاع عليها من الماضي ولم تقدم أي إجابة مقنعة بصدد الأسئلة الحقيقية المتصلة برحلة المعرفة وتطورها ومشكلات الحياة وأسئلة المصير لقد اقتضت اللياقة المجاملة بعض الوقت ومحاولة

توكيد العلاقة الإنسانية القائمة على الاحترام المتبادل والحوار المبرأ من لعبة المناورة والاستقطاب وما إلى ذلك من الأمور التي أتقنت وجرى العمل بها منذ سنين طويلة لكن المعني مضى في أسلوبه، كانت المجموعة تذرع شوارع المدينة ذات ليلة صيفية كان المؤمل أن تسهم في تنقية جو من الأجواء وتؤكد مبدأ إتاحة الفرصة للجميع فإذا بالمحاولة الساذجة مستمرة وعلى هيأة اتهام بقصر النظر أو التردد تجاه المشروع المقترح كان لابد من المكاشفة القاسية بأن من يكتب الشعر، ويكتب المقالة ويقرأ لعديد الفلاسفة وذوي الاختصاص، لايمكن أن تقنعه مثل هذه الكتابات العاطفية التي لاصلة لها بقضايا الواقع المحلي ومايزخر به من صراع، ولا الواقع القومي وماتحتدم فيه من معارك، ولا الأفق الإنساني وما يفرضه من هموم تتصل بالوجود وفائض القيمة وأسلوب البناء، وأن العنصر الوطني إذا أراد أن يكون فاعلاً بحق فلابد أن يأتي بجهده النظري المتصل بالوطن مباشرة، إن على مستوى المنتدى الأدبي، أو على مستوى المشكل الاجتماعي، أما هذه الكتب فموجودة في كل مكان ويمكن قراءتها مباشرة ودون أن تعرض من عنصر لايخرج في مهمته عن مهمة ساعي البريد. كان هذا الموقف الصريح تجاه قوة شعبية لابأس بها كفيلاً بإثارة عدائها، وهي صاحبة الوجود القوي في الشارع، بل لقد كانت بفعل حماسها تتعاون من حيث لاتدري مع القوى المعادية للجميع، وذلك بما توفره في

غمـرة حمـاسـها وعـدم تقديرها للعواقب من معلومات تقدم بالمجان نتيجة الحماس والرفض لكل من لديه أوله تحفظ بسيط حول ذلك التوجه السياسي . ولكن ماذا يمكن للمرء أن يفعل حين يضيق ذرعاً بما يثار من أحاديث مكررة وقراءات لاتضيف أي جديد للرحلة المعرفية، لقد استحسن كل من محمود وعبدالرزاق يومئذٍ ذلك الموقف الفكري الصارم إذ لم يعد أحد يقبل بكثرة اللغو في هذه المسائل بطريقة إنشائية، وعلى الأسلوب المعتمد على الشخصيات المحورية أكثر من غيرها، أي تلك التي تؤثر بخلقها وكرمها وشهامتها وليس من مستواها النظري وقدرتها العلمية . لقد نفد الصبر ووقعت الواقعة، وكان من الضروري أن يكون ثمة استعداد لما قد يطرأ فقد تعرض البعض للعدوان فضلاً عن الشتم والإهانة، لكن ذلك قد لا يحدث وإن حدث فسيكون بثمن لابأس به، فالأقارب الموجودون كلهم في سن الشباب وقدراتهم الجسدية جيدة للغاية، وهم منتشرون في كل شوارع المدينة، ولن يكون المرور مساء بشكل فردي بأي حال من الأحوال، كما أن مجموعة النادي قادرة على التصدي لأي محاولة وتوسيع الدائرة من الأمور المهمة ليكون هناك أكثر من فضاء، وقد أتاحت الظروف الحياتية مولد عالم جديد، عندما انفصل مفتاح عن الحاج عمران، وعمل بالمصالح المشتركة صحبة جميل الذي كان قد عاد إلى الوطن منذ مدة وعمل بالمجال الرياضي وانضوى في عالم

الشركات موظفاً قيادياً يعتمد إلى حد كبير على أسلوب العلاقات العامة واستثمار صداقته الوطيدة مع وكيل المالية، فبواسطة جميل فتح عالم جديد، فهو ذو خبرة فريدة في أمور الحياة الخاصة، أو الجلسات إن شئنا، وكانت هذه مناخاً للهروب من تلك الفضاءات الضيقة إلى عوالم أرحب، عوالم فيها شئ من التمزق إلا أنها كانت خياراً لامفر منه أمام الجحيم المقابل،ولابد أن تخاض التجربة ولو لفترة محدودة، ستكون محدودة قطعاً ولكن لابد منها .

كان المرتب يتجاوز الثلاثين ديناراً وهو مبلغ له قيمته بالنسبة للمرحلة، ولعدم وجود أي التزامات فالواقع مايزال يتكون والموازنة العامة تتألف من ملايين محدودة . وحتى لوازم الزواج الذي سيتم يوماً لن يتطلب أي احتياجات أساسية، كانت القدرة على الإنفاق بشكل معقول متاحة لأولئك الذين كانوا يلتقون كل مساء تقريباً في تلك الصائفة، غير أن العلاقات تختلف من شخص لآخر ومن ثلة لأخرى، بحكم الخبرة والتجربة، لقد أحكم جميل قبضته على غزالة التي عرفت بارتباطها معه . فلابد لها من أن تنفق بسخاء وتسعى إلى تدبير احتياجاته من الآخرين طبعاً لقد كان شديد الإدراك لما تعيشه مثل تلكم النساء من الفراغ الوجداني ومن إحساس قوي بالمرارة حيث لايكون ثمة من مخرج أمامها للهروب من تلك العوالم المرعبة وقضاء ساعات ولو مزيفة في عوالم أهون سوى الوقت

الذي تقضيه معه . إن عدم المقابل في حد ذاته هو المطلوب بالنسبة لها . ربما تكون قد أدركت شحه بعد فوات الأوان ولكنه اسم من الأسماء المعروفة في المجتمع ،وقد يكون أفلح في إخفاء شحه هذا في البداية ولم يفصح عن حقيقته إلا بعد فوات الأوان . إن أغلب الظن يوحي بهذا الافتراض . ذلك أنه من أجمل العناصر من حيث الجاذبية في الحديث والمظهر وفي اللطف ، والقدرة الفائقة على أسر القلوب لكنه ليس كذلك بالنسبة لها بل إنه يناقض هذه الصورة تماماً حتى إنه لا يرى غضاضة في تقريعها والإساءة إليها أمام الآخرين لدرجة أن ابتسامته تكون في أحيان كثيرة هي الثمن ، كما أن التزاماته تشمل أحياناً رفيقه اليومي منذ أن أخذ في ارتياد هذه الأمكنة ، عشية تقدمه إلى المجتمع عبر النادي الذي ضم من بين من ضم محمد بن الحاج عمران حين كان أميناً لصندوق الأهلي أبرز الفرق الرياضية وأكثرها استحواذاً على أغنياء القوم.

كل له أسلوبه في ارتياد هذه العوالم وتحقيق مايبتغي من ملذاتها ،فلقد استطاع أن يفلت من كل الالتزامات التي تفرضها قواعد الصحبة كما يقولون وذلك بالمبالغة في الحديث عن خلافه مع مسؤول المالية الكبير الذي كان من أقرب الناس إليه ، وبذلك لم يطلب إليه أن يسدد نفقات العلاج حين مرضت تلك الحسناء مرضاً فرض عليها أن تقيم فترة بالمستشفى وبالقسم الذي يشترط دخوله مبلغاً مالياً محدداً ولم يقدم هدية العيد

كماهو متبع، بل إنه أصبح بحكم الوضع شبه السياسي الذي أضفاه على نفسه في حاجة إلى المساعدة وتحمل عديد النفقات وصار جميل محل عطف في أوساط كثيرة ومن بينها ذلك الوسط الذي تغشاه أعداد كثيرة من الرجال المعروفين في عديد من المواقع، كانت ،وردة على سبيل المثال تتحدث بإشفاق عن ذلك الوضع الذي يعيشه جميل وتظهر الكثير من تعاطفها، مما جعل محمد يضاعف من نفقاته على وردة، ويتضح في النهاية أن كل النفقات من جهة واحدة . إن غزالة تدرك كل هذه الألاعيب ولكنها تعجز عن القيام بأي شيء، فقد تورطت في علاقة يصعب عليها التخلص منها وربما استحال بعض الوقت . لقد انعكس هذا الوضع على حياة مفتاح أيضاً الذي أنفق ماللديه ودخل في دائرة الاستدانة المستمرة،وحين أصبح ينفق مرتباته قبل موعدها فلم يكن لتعديل المرتب أي أثر، لعل ذلك المرتب الجيد ماكان له أن يصرف لو لم تكن خطة إنفاقه قد وضعت سلفاً وفق مخطط متبع إزاء كل الأسماء التي كانت تتألق في عالم الشركات والمصالح المشتركة التي تعتبر هذه العوالم في مقدمة شروطه، على ما يبدو، لقد وقع مفتاح ضحية لزينب التي ابتزته ابتزازاً شديداً مستغلة عدم فهمه لشروط الصحبة التي تعفى من يتمتع بها من دفع المعلوم خلافاً للزبون الذي يسدد يوماً بيوم، بعكس الصاحب الذي يحضر بمقتضى موعد متفق عليه، وهو معفي من المعلوم حتى ولوجاء خارج الموعد،

كان مفتاح في الحقيقة مجرد زبون أوهمته الحسناء الجميلة بصفة الصاحب تلك الصفة التي لم يعرف قواعدها . تحرص غزالة على أن تنتحى به جانباً في الجلسة، حين يعلو الضجيج وتكثر الثنائيات بين المتجالسين لتفضي ببعض همومها، وتبث إليه شيئاً من شكواها، لقاء ماتلحظه من تعاطف وعناية بما يثار، بعض الكلام يتصل بالعلاقة مع جميل وبعضه الآخر يتصل بتجارب أخرى كثيرة ومتعددة ويحدث ذلك عبر تبرم لايمل من الزمن الغادر الذي أجبرها على القبول بهذا المصير المحزن إثر سقطه مع أحد الأقارب، فكان أن سيقت بعد ذلك، حين لم يكن ثمة من سبيل لقد اعتدى عليها القريب وأصر على أن يتركها هكذا غانية له وحده،وحين يئست ولامن قريب، كان لابد أن تقبل بهذا المكان، لقد اختارت البيت للحد من الزحمة على الأقل، فالتعريفة تجعل المترددين قلة، لكن ماالفائدة مادامت وقعت في هذه العلاقة التي لاتقل عن علاقة القريب .

أحد زبائنها كان أسود البشرة، وكان من الوجوه المألوفة كان شديد الافتتان بها، وكانت تبدي نحوه شيئاً من الميل وربما كانت الوحيدة التي تقبل به، أملاً في أن تجد منه طوق النجاة، بعض القرينات يسخرن من هذه العلاقة وثمة من يلتمس العذر، ومن يستبعد إمكانية ما أشيع بصدد الخروج .

على أنها اختفت ذات يوم ولم يعثر عليها في جميع البيوت،وتأكد أنها خرجت مع مسعود وتم الزواج، كانت

مشاعر الفرح ظاهرة على وجوههم فالأمر يعتبر انتصاراً من انتصارات الإرادة عند الإنسان حين تتمكن واحدة من مغادرة ذلك الواقع فإن ذلك يعني الكثير . صحيح أن بعضهن يواجهن الأمر بتحفظ لكثرة ماوقع من فشل وعودة . لكن التجربة أثبتت أن زيجات كثيرة قد تمت ودامت، الحديث عن هذه مشوب بالثقة وأن الأمل كبير . أضافت واحدة أن البيت الذي اختاره مسعود في ضاحية ليس بها من يسأله أو من يقول لهما عرضاً :

ـ الحجرة ماذوب ..؟!

ذلك ماعلقت به وهما يختليان، ولم تمعن في الكلام كثيراً فهي لاتميل للثرثرة، فالغناء هو المنقذ، وتقليد صباح بالذات هو المنقذ، فالبحة القليلة بالصوت تعطي نكهة خاصة، حين ترفع صوتها مع مقطع :

ـ تحرم على الآه لو قلتها لغيرك .

ليس تقليد صباح هو كل مالديها، فقد كانت متفردة في جمالها، جسداً وروحاً، حول خفيف يزيد العينين سحراً، تضاعف منه حرارة النظرة وجمال الالتفاتة.

يتوسط الوجنة خال كأنما أضيف بخط اليد على البشرة الخمرية التي تحرص على تركها في الغالب طبيعية، وبدون ما اعتادت مثيلاتها إضافته، صدر نافر كأنما نهد لتوه، ساقان مكتنزان، ترفع عن سفه القول الذي يشيع في ذلك الوسط،

بالرغم من عوامل الإثارة التي لاتتوقف، والحرص على رفع الكلفة ودفع من يحويهم المكان إلى الفعل ومن ثم الخروج . هي دائماً هكذا سواء في الخلوة أو مع الآخرين،وهي كذلك لاتتأوه لاستدرار العطف، ولاتشكو الظروف لتظفر بإنفاق أكثر، ولاتصب جام غضبها على الأيام، امرأة بالرغم من كل ظروفها الصعبة تبدو واثقة ومقتنعة بما هي عليه كلمتها الوحيدة حين يضيق بها الحال :

- أيام الحبس معدودات

كما لو كانت تريد أن تتأسى بأن إقامتهاهذه لابد أن تنتهي ذات يوم مثلما تنتهي أيام السجن، تلك التي يظل من يبتلي بها ويمتحن بتجربتها يحصي الأيام والليالي انتظاراً أو ثقة في حلول يوم الخروج، وثقة أكيدة في بلوغ ذلك مهما طالت أيام ذلك الحبس، أياً كان سببه والظروف التي حتمته، فالأسباب وفق هذا الفهم لاتناقش، إن التي تناقش هي الحالة الراهنة، والحالة لابدأن تتغير، ومن يمن عليه الله بالحياة فلا بد أن يحيا حياته بكل تفاصيلها وينال منها كلما يريد ويشتهي .

اتخذت من إحدى المدن القريبة لقباً لها، وهي تحدد القبيلة التي تنتسب إليها بعكس ماروج عنها بأن الانتساب مختلق، وكانت بذلك متفقة مع أخرى في الانتساب، لكنهما يختلفان في السلوك، وبقدر ماكانت هذ هادئة كانت الأخرى شرسة، فهي إذن مختلفة تماماً عفيفة في القول بعيدة عن أي تزيد، لم

تكن ميالة للجلسات المسائية فهي تحبذ الحياة العادية كي لاتكبر الالتزامات، صادف ذلك السلوك مايريد، فتكرر اللقاء وفقاً لما سمحت به الظروف، لقد اختلفت الحياة معها عن الأيام السابقة، وتميزت اللحظات أيضاً بما أشاعته من جميل المشاعر والأحاسيس، ووصل الأمر في النهاية إلى ثبات مستمر في العلاقة، فقد كان ثمة ميل ظاهر وتفاهم مشترك على مايبدو، حتى عندما أخبرته عمن جاء يسأل كان ذلك بأقل الكلمات وأقربها إلى الإيحاء دون الدخول في التفاصيل الكثيرة والتي تساق في الغالب من قبيل التهويل أحياناً وأهمية الخدمة من ناحية أخرى :

ـ يقصقصو عليك ياخوي : باين عليك شويطين، كان هكي، اليوم مانعطلش هلبة .

ـ حاول أن يستفهم .

ـ مافيش شجرة ماهزتهاش ريح، بس الواحد يرد باله، هذو كلاب واحد سألني شن تقول على مصر شن تقول على هاناي .

ـ طلب أن تساير وأن تجيب كادت أن تنتفض .

ـ بناقص ياخوي اليوم هذي وغدوة حاجة ثانية، مرة عليك ومرة على غيرك، أنا قلت لهم ماعندناش كثرة كلام الدوة هاناي معروفة عندي هم واحد، ما نزيدش واحد فوق منه .

كانت النبرة مختلفة عن السابق، ومشاعر الخوف واضحة من إمكانية التورط في التعاون، فالمسألة بالفعل مسألة مبدأ ومن

يجيب على الأسئلة بشكل مرضٍ، لابد أن يسأل مرة أخرى وأخرى، ليجد نفسه في نهاية المطاف وسط اللعبة من حيث لايدري، فلابد من قص الحبل من أرق الأماكن كما يقولون .

10

اتضح أن المتابعة قد امتدت إلى هذه الجهات، وأنها شملت أموراً كثيرة وأن هناك أكثر من جهة تقوم بهذه المهمة، ولم يكن ذلك بالمستغرب، فقد كان التوقع موجوداً، وإن يكن من غير المنتظر أن تصل المسألة إلى هذه الأماكن، لكنها على مايبدوقد حصلت لآخرين، بدليل قولها «اليوم أنت وغدوة واحد ثاني» فمن المهم إذن أن يضبط العنصر الذي يسأل، ولتكن الاستعانة بالأقارب، وكذلك بعض المترددين على النادي، بدا أن من الأصوب التخفيف من استهجانه قبول البعض لمهمة المتابعة، فقد يكون ذلك محفزاً إلى الاقتصاد في الأحكام وأدعى إلى عدم الإمعان في هذا السلوك وأكثر ايقاظاً للضمير، كان لرقيعي في مقدمة المشجعين على هذا الأسلوب، فهويرفض إبداء الضيق من المتابعة، ولديه قناعة تفوق جميع القناعات بأن من لايوفر أسباب الإدانة فمن الصعب أن يدان، وأن المتابع الرسمي أقل خطراً من أولئك الذين يبدون في إظهار خلافهم تجاه الرأي أكثر خدمة لأهداف السلطة، والمنخرطين في صفوفها، فتحت شعار الخلاف الفكري والإفصاح عنه يتورط الكثيرون في التطوع بتقديم أخطر الخدمات من حيث يقصدون ذلك أولايقصدون. كان جامع بن ناجي يمتلئ كل يوم من أيام

الجمعة حتى أن عشرات المصلين يؤدون صلاتهم خارج المسجد والسبب أن الشيخ قد استطاع أن يأسرهم بصوته الجهوري وعباراته المنتقاة، وحرصه على اختيار بعض المقاطع لألمع المفكرين الإسلاميين الذين يرتاح لأرائهم، فيقوم من حيث لايدري بإعطاء الحجة توكيداً للاشتباه السياسي الذي وضع داخل إطاره. وكذلك الأمر بالنسبة لجامع سيدي حمودة وشيخه الشاب المتحمس.

وكان بعض الفرقاء لايرى غضاضة في استعمال القوة تجاه من يختلف معهم ولايجد الحجة لمقارعتهم، وهم يجاهرون بمواقفهم الرافضة لأبرز القيادات المؤثرة في الشارع، فصار يعول في بعض أموره على العشيرة، إن المدينة في الحقيقة لاتعرف هذا الأسلوب ولاتدعوإليه وتجعل أي قادم ينصهر في خضمها الكبير، لكن هذه الصراعات خلقت ظروفاً جديدة وولدت أوضاعاً أكثر تخلفاً بدون شك لقد تضاعف عدد الأقارب الذين اتخذوا من المدينة مقراً لهم وغدا البيت الذي اتخذوه سكناً لايتسع لهم جميعاً، فعمد البعض إلى البحث عن أماكن أخرى، وقد تزامن ذلك مع تسرب بعض الأفكار الجديدة فغدت الوحدة الفطرية شبه مهددة، وصار لامناص من البحث عن سبيل لوقف هذه الظاهرة وذلك بطرح مبدأ إبعاد المجموعة عن هذه الأمور بحزم كامل تتفق عليه وتتبناه العناصر التي تشكل النموذج أوالقدوة إن صح التعبير، بحيث يعمد هؤلاء إلى نشر مالديهم

من أفكار على غير أبناء العشيرة ليدللوا على قدرتهم من ناحية ويجنبوا ذويهم الصراع من ناحية أخرى. كان واضحاً أن القوى اليمينية أصبحت في هذه المرحلة أكثر تحركاً فقد وجدت في الانقسام الذي صدع الشارع العربي ضالتها، واستفادت من ردة الفعل التي أصابت أكثر القوى شعبية. لقد عرفت الساحة الثقافية سيلاً من الكتب والنشرات التي تصب في ذلك المصب أي القائم على التشكيك في جميع العناصر، لقد بلع الجميع الطعم الذي ألقى وذلك عندما وقع التعويل على المواقف الآنية التي ماكان لها أن تؤثر لولا الوقوع في براثن الشقاق الذي طال الصف الثقافي القومي أكثر الصفوف تأثيراً وفاعلية، كانت أكبر مفاجأة بعض المنشورات التي حملها البريد ذات يوم موقعة باسم جماعة دينية يمينية عنوانها عمان تحتوي على وجهة نظر غريبة وقد تزامن وصولها مع عودة بعض الطلبة الدارسين بالخارج والموصوفين بذات الإتجاه.

فكان الاعتقاد أن الاسم والعنوان قد أعطى من قبل هؤلاء وأن ذلك قد جرى من قبيل التعمية،كان التحليل عجيباً للغاية وعلى الأخص في مبالغته حول الصراع الأمريكي البريطاني الذي تتحدث عنه تلك الأوراق بما يفوق الصراع الأمريكي الروسي. وكل مايجري من مشكلات هومن تدبير انجليزي.

على أن المفاجأة كانت عندما علم أن العنوان قد أعطى من أحد العناصر العربية المقيمة في بنغازي، وذلك عندما لوحظ

عليه بعض التبرم بما يجري في المنطقة العربية ومايقدمه من نقد حول رموزها الكبار. كان الموقف غريباً ومذهلاً فعوض الذي بلغ من السن مابلغ والذي كان من أشد العناصر ارتباطاً بالنظام القائم يصل به الأمر إلى التنسيق مع مثل هذه الجهات. إن العلاقة لاتسمح بالدخول في أي نشاط سياسي. كما أن النقد الذي كان يوجه لبعض الرموز لا يمكن أن يسمح يتبني مثل هذا التوجه ولايمكن أن يكون ذلك هوبديله حين يضيق ذرعاً ببعض الممارسات. كانت تلك الرسائل تذيل باسم مرسليها والعنوان. وتدعوبإلحاح شديد إلى الإخطار بوصولها وإبداء وجهة النظر حول ماجاء فيها، وإذ جاءت بعض المرات ولم يقع الرد عليها، انقطع مجيؤها ولم تأت مرة أخرى، لكن حسرة الرجل كانت كبيرة للغاية إذ أنه كان يتعشم الرد، وكان على مايبدومعولاً على هذا الرد إلى حد كبير ولما لم يحصل ذلك كانت الحسرة بل والندامة بإعطاء العنوان على مايبدومن الأساس.

كان الرجل قد تفرغ لإصدار صحيفة خاصة بعد أن ظل لفترات طويلة رئيساً لتحرير صحيفة برقة الجديدة وكانت الصحيفة الخاصة غير ذات بال يذكر في الوجود الصحفي بالرغم من أن المرحلة قد أخذت في السياق نحوتحسين مستوى الصحف الخاصة، سواء من حيث اللغة أوالتناول، ولاسيما عند إثارة موضوع طريق فزان وماترتب عليها من ملابسات وجراءة أعطت مؤشراً بأن ظروفاً جديدة قد أصبحت تفصح عن نفسها،

وبدا واضحاً أن الأمر يتجاوز مسألة الصحافة إلى صراع أكبر ومصالح أوسع، إذ حين يصل الأمر إلى نشر الصور التي تتحدث عن علاقات غرامية لعناصر كانت إلى وقت قريب تكتسب مكانة خاصة، إن لم نقل تتفرد بها من دون بقية الأقارب ثم فجأة تكون عرضة لمثل هذا الهجوم فإن الأمر لايمكن أن يكون عادياً، ليس هذا فحسب بل ان الصحيفة التي كانت إلى وقت قريب تتحدث عن مناقب ذلك الرجل فإذا بها أيضاً تتخذ موقفاً مختلفاً فذلك يعني أن وراء الأكمة ماوراءها كما يقول المثل العربي القديم.

لقد تزامنت هذه الأوضاع مع اختيار الهيأة النيابية الثالثة، وهي هيأة شهدت وجود عناصر لابأس بها، وإن تكن قد شهدت أيضاً اختفاء من هم أكثر قوة. لقد استحدث في ذلك الزمن نظام البطاقة في الاقتراع الذي كان مقصوراً على المدن فقط، بحيث شمل ذلك جميع المناطق، وانتهت مهزلة التسجيل، لقد فتح هذا الأسلوب الطريق إلى بيع البطاقة، وقد ظهر ذلك جلياً في بعض الدوائر التي كان الفيصل القوي فيها للمال، كما أنه من جهة أخرى أعطى الفرصة لبعض الولاة الأقوياء أن يتصرفوا بقوة، حتى إن البعض كان يؤكد أن أكثر العناصر لجاجة كان الدفع به نتيجة صراع خفي بين الولاية والاتحاد على أن المهم في الأمر أن هذه التجربة شكلت تغيراً في ميزان القوى، وقد ظهرت آثاره جلية في معركة طريق فزان، وهي معركة لم تكن

منصرفة إلى معالجة الانحراف الذي لحق بالطريق وحسب، وإنما كانت مستهدفة تغيير الحكومة، حتى إن المجتمعين رفضوا رفضاً باتاً التعهد الذي عرض يومئذٍ بالتحقيق ومحاسبة المسؤولين، وهوالمقترح الذي حاول الحاج مفتاح رئيس اللجنة المالية أن يدعمه، وكان الأكثر عملية كما علق يومئذٍ على عميش الذي كان من بين العناصر التي حضرت وتابعت النقاش، انطلاقاً من فهم مفاده أن تغيير الحكومة لن يعالج موضوع الطريق وإنما سيعطي القادمين فرصة التخلص من أي التزام سابق،وقد كانت الغلبة للتيار الداعي للتغيير، وذلك دون المساس بإشكالات الطريق. إن طريق فزان في الحقيقة له حضور في تاريخ هذه المؤسسة، فقد جرت أول محاولة عقب الاستقلال، استهدفت مده عن طريق الشويرف، وكانت محاولة غير وطنية، إذ إنها تربط الجنوب بالشمال بعيداً عن المنطقة الوسطى والشرقية، وقد اتخذ يومها قرار في الخصوص لكنه مالبث أن رجع وكان على ما يبدوأكثر عقلانية من حيث الأولوية، فالمشروع الذي أفشل يقبل التأجيل وإن يكن مهما هوالآخر. إن عناصر المدينة في المجلس لم تكن في الغالب ذات مقدرة كافية سواء في محدودية النظرة أوفي انعدام القدرة الحقيقية على النقاش، فليس الإخلاص وحده المطلوب وليست الخطابة بقادرة على التأثير الحقيقي، ففي مثل هذه المواقع لابد من المناورة والفطنة والقدرة على الإقناع بعيداً عن العواطف والحماس. ومن الممكن

القول إن الحكومة التي قضت أكثر من ثلاثين شهراً لم يكن أمامها إلا أن تضعف أمام المتاعب وإن بعض العناصر المتنامية لابد من أن تتقدم الصفوف وتستلم نصيباً في القرار.

كما أن الحركة الصحفية التي أخذت تفصح عن نفسها، بصرف النظر عن بعض الملابسات التي أشير إليها، فقد كانت ذات تأثير ملموس في الحياة العامة.

كانت الإذاعة قد تأسست وكبر دور المطبوعات الاتحادية، بإنشاء الإذاعة، ثم إصدار المجلة، كما أن اضطلاع أهم الأقلام المعروفة بمسؤولية أكبر صحيفة خاصة كان هوالآخر له أثره لبين، في حين جاء اصدار جريدة باسم العمال دليلاً جديداً على مابدا متاحاً لهذه الطبقة من دور خاصة وأن الجريدة لم تكن واحدة وإنما كانت في كل من طرابلس وبنغازي، وعلى أساس التنوع والاختلاف تجاه العمال في الداخل والخارج والاتجاهات السياسية في الداخل والخارج أيضاً. إلا أن هذا الوضع قد دفع إلى الدخول في مناقشات بدأت حول المهنة وانتهت إلى مايمكن وصفه بالمهاترة الشخصية، التي أثرت بدون شك في فاعلية الصحف وفي توجيه الرأي العام نحومسائل جانبية كان من الممكن النقاش فيها، بل لاحرج من القول إن بعضها قد عطل من التحرك الإيجابي وأدى إلى تجزئة القوى القادرة وشغلها عن الكثير مما هوجوهري، وجدير بالتناول.

ترى ماذا يمكن أن يحدث لولم تدخل الصحف يومئذ في

تلك المعارك الجانبية، وحاولت أن ترسخ نفسها في إطار الكتابة الجادة والتمكين لفن في التناول أكثر جدية وأدعى إلى تطوير المهنة الصحفية وتشجيع المقالة الجسورة، لوأدركت بعض الأقلام اللعبة وتجنبت تلك المشاحنات. إن ماحدث فيما يبدو كان لابد أن يحدث.

إن مانشر بصدد طريق فزان ومانشر بعده أو أثنائه بصدد مشكلات العمال من مقالات اعتمدت الأمور الشخصية مقياساً والتشهير سلاحاً جعل معظم العناصر الواعية تستنكف النشاط الصحفي وتعده انحرافاً بيناً، والحقيقة أنَّ الأمر لايقتصر على الذين تناولتهم الكتابات، ولايتصل بما يكونون قد اقترفوه من مخالفات وربما جرائم أيضاً، ولكن يتصل بالصحافة من حيث المبدأ، إذ لايجوز أن يسمح لمن امتلك منبراً من منابر الرأي العام أن يتخذ من الممارسات الشخصية مادة للكتابة، فالانحراف مكانه المحاكم وليس أعمدة الصحف، ومن يتساهل في هذه المسألة مع من عساه قد اقترفها أصلاً قد يتساهل مستقبلاً وبالأحرى لايضمن أن تطال من لم يقترف، من هنا فإن موقف المحاكم بصدد الدعوى التى رفعت من منفذ طريق فزان إزاء مابدا وكأنه تشهير شخصي كان دقيقاً للغاية، فالشارع كان إلى جانب الصحافة التي تناولت المشروع وتحدثت عن منفذه بالصور، لكن موقف العقل يفترض موقفاً آخر، يفترض الوقوف ضد ظاهرة السماح للصحافة بأن توظف رسالتها وسلطتها

للتشهير الشخصي ومما لاشك فيه أن القاضي قد وازن بين هذه الأمور مجتمعة، بين أن يكون قاضياً يرجح سلطة العقل ومنطق القانون، وبين تيار شعبي معبأ بما هوحقيقي وغير حقيقي وصوت محام شجاع يملك الحجة القانونية والمنطق ويملك أيضاً لثقة في الأرضية الشعبية التي يقف عليها فلا يخاف ضوضاء المدينة وماكان يملأ الشارع من سخط فيه الكثير من المنطق وفيه كذلك شيء من التحامل وعدم الوعي، وأيًا ما كان الأمر فلقد تحمل القاضي مسؤوليته، واختار الوقوف إلى جانب الحق الذي يبدوظاهراً بعد سنين طويلة، فأدان الصحيفة التي شهرت، أدانها بقرش واحد، بحيث تكون مسألة التعويض قضية أخرى فانتصر للمنطق، ولم يضعف أمام العاطفة والتي ربما تكون قد صورته متحيزاً لكنه في الحقيقة كان شجاعاً وكان في مستوى الرسالة المنوطة به عندما فرق بين حرية الرأي واستغلال هذه الحرية في التشهير وممارسة الضغط من أجل مصالح خاصة.

إن تأثير النفط صار يظهر في حياة المجتمع يوماً بعد يوم، سواء من حيث ارتفاع أرقام الموازنة أومن حيث طبيعة الإنفاق، ذلك الإنفاق الذي كان مجاله الأول المرتبات وما في حكمها من مزايا وعلاوات، فصار من الطبيعي أن تفتعل المسوغات وتستخرج المبررات التي تبيح الاستفادة بمنأى عن النصوص القانونية بما في ذلك موضوع مرتبات أعضاء المجالس التشريعية والنيابية، فمع أن التشريعات كانت تحظر على أي مجلس أن

يقر ترفيعاً في المرتبات يستفيد منه الأعضاء الحاليون فقد وقع تجاوز هذه القاعدة، حين أقر مبدأ الزيادة بمبرر أن المحظور هوالمكافأة، وليس العلاوة، وأن العلاوة كانت خاصة بمدينة البيضاء، وبالتالي فمن الضروري أن تصرف للنواب ومادام الصرف قد تم للنواب فمن الضروري أن يشمل الآخرين، فكل المدن حسب هذا المنطق تعتبر بمثابة البيضاء، صحيح أن البيضاء في حد ذاتها لم تكن موجودة في الدستور حتى تنتقل إليها الحكومة والمجلس، ومادام الأمر كذلك فلا حرج من أن يمتد الأمر إلى المدن الأخرى وفقاً لقاعدة «تعميم الخطأ يكون صواباً» ورغم أن عديداً من العناصر التي كانت يومئذٍ تتبنى الموقف المعارض قد امتنعت في البداية عن الاستفادة من تلك العلاوة وعمدت كذلك إلى مقاطعة بعض الجلسات غير أنها كادت تجد المبرر لاستئناف العمل، حتى وجدت نفس المبرر في الاستفادة من ذلك الامتياز المخالف للنظم المعمول بها صراحة، ولم يكن هناك مايقنع بأي حال من الأحوال، سوى تلك الكلمة التي استشهد بها رئيس المجلس التنفيذي وهوينصح الأعضاء بصرف تلك المنحة والتي كان نصها (علق في رقبة عالم وإلا ظالم).

إن بعض التصرفات الفردية أيضاً أخذت تتسلل إلى الجهاز العام، وتشير إلى مااعترى المجتمع من الخلخلة والتضحية بالآخرين من أبسط الطرق، حتى إن جريمة شخصية لايعرف أحد مقدار صحتها من عدمه. أمكن بواسطتها حجز أكثر من

أربعين عنصراً من العناصر المعروفة، لينشط الخيال عما تم وما لم يتم، ويفلح كل ذي موجدة من المواجد في أن يرد الصاع صاعين كما يقولون. وكان ذلك دليلاً من الأدلة الدامغة على سطحية التفكير لدى عدد من أبناء الجيل الذي تورط للتصفيق لما اتخذ من اجراءات، لم تخلو أبداً من التسرع، فالتجارب تثبت أن مثل هذه الأمور القائمة على تصفية الحسابات إنما تشكل أساساً سوابق كثيراً ما تتكرر في شكل أعنف وفي أمور أكبر فكل ترويج للاستثناء وللأخذ بالشبهة يؤدي بالضرورة إلى إجراءات قادمة لاتقل عن سابقاتها فداحة، وكلما اشتد الصراع بين مراكز القوى كلما كان الضحايا أكثر والخسارة في الغالب واحدة وتطال بطبيعتها الأضعف، وفقاً لمنطق صوت الانتقام وسلطة ردود الأفعال وضغط الأنانية.

إن السلطات ذاتها تتلقف مايجري في الشرق، فهي جاهزة لاقتناصه وإعادة إنتاجه بما يخدم مصالحها ويفيد خطها العام، من ذلك ماتم بخصوص الصحافة في أول دولة للوحدة (الجمهورية العربية المتحدة) التي اقتضت ظروفها أن تؤمم الصحافة، فكانت أول خطوة تمثلت في إصدار قرار إداري بقفل أهم الصحف الأسبوعية عند تحرشها بسلطات الولاية تلك الصحيفة التي كانت في صدورها الثاني أكثر قوة وتطوراً في كل المجالات، ووجدت فيها أبرز الأقلام مجالاً واسعاً للتعبير عن كل ماتريد فقد كانت «الليبي» بحق صحيفة كل الوطنيين وكان

صاحبها مثالاً للشجاعة وتحمُّل المسؤولية لكل مايقرر نشره.

كان الوالي من الشخصيات القوية وكان من المعروف عنه رفض أي تدخل من الحاشية الملكية، ويأتي رفضه هذا في تصريحات علنية يلقيها أمام جميع مجالسيه، فرؤيته أنه يمتلك صفته بحكم القانون وبالتالي فليس من حق أفراد الحاشية الذين لايتجاوزون في مهمتهم الأمور الخاصة أن يتدخلوا في شؤون الحكم وكانت لهجته في هذا الصدد قاسية بل فظة، إلا أنها في جوهرها تعبر عن تمسك باستقلال الشخصية والحرص على ممارسة الصلاحيات كاملة ومثل هذا الموقف يقتضي المساندة، لكن مايميز الشخصيتين من الاندفاع خلق جواً من الحساسية منذ الأيام الأولى لتسلم الوالي مسؤوليته، وترجع بعض المصادر أن الأمر متعلق بإعادة تعيين أحد العناصر التي خاضت المعركة الانتخابية وفشلت، وفي جميع الأحوال فقد وقع قفل الجريدة.

كان العدد يحمل افتتاحية تناولت زيارة الوالي لإحدى المناطق والاستقبال الذي حظي به من المواطنين الذين كلفوا بذلك، حسب الصحيفة، بالرغم من شدة الحر، إن الافتتاحية قاسية نسبياً، لكنها لوجد الأفق الأوسع، لتم القبول بها وهي لن تعاد مرة أخرى، حوى العدد أيضاً رسالة إلى خالد زغبية الذي حوكم على قصيدته (بلادنا غنية) لكامل اعراب، على أن التعقيب الذي كتب عن الموقف الذي أثير بصدد طريق فزان، ربما يكون أكثر عمقاً، حيث تناول دعوة صريحة إلى إعلان

ميثاق وطني، تحدد فيه القضايا الأساسية بعيداً عن الجهويات، كان ذلك خلاصة حوار جرى مع الرقيعي، ومراجعة لعديد من المسائل، ربما كان ذلك أول مقال عرض على الأستاذ علي شخصياً كان من ضمن ماجاء فيه بالرغم من أننا لسنا من أنصار عقائد سياسية تنال من وحدة الوطن فكان رأي الأستاذ علي استبدال عبارة العقائد بالتيارات، لأن العقائد السياسية لاتنال من الوحدة، ورحب في النهاية بالمقال داعياً للكتابة في ذات التوجه لكن العدد صودر.

غير أن بعض الآراء كانت ترجع قرار القفل إلى موضوع أسبق تمثل في افتتاحية كانت قد تناولت الطريقة التي يتم بها توزيع المناصب السياسية بما يفيد أنها تعبر عن رؤية قارة عرفتها البلاد بدعم بريطاني، تمثل أول تنظيم سياسي حكم باسم حزب الاستقلال وهوالذي تشكل من عناصر سبق أن عملت وتكونت في زمن الاستعمار الإيطالي، الأمر الذي ترفضه التوجهات السياسية الرامية إلى تسويد النموذج الأمريكي والتي يصعب عليها أن تترسخ مادام التقليديون هم أصحاب القرار، ليس لدى هؤلاء البينة على صحة قولهم لكن التجارب المماثلة تشير إلى قوة العلاقة بين معظم القرارات السياسية في العالم الثالث التي تعكس حدة الصراع بين أوروبا وأمريكا، بصرف النظر عن توقيت هذه القرارات وما إذا كانت تجئ مباشرة أوبعد حين بل إن أصحاب هذه الوجهة يذهبون إلى أكثر

من ذلك فيرجعون أن الخلاف بين الأفراد مجرد تغطية لحقيقة الصراع بين القوي الأكبر، وهوصراع في الأعماق ولايمكن اكتشافه بيسر على السطح، ودليلهم ماكان يجري في الجزائر، وماكان يرسل من دعم وما يتم أيضاً في الصحراء بصدد التفجير النووي، لقد كانت الأحداث مترابطة مع بعضها البعض وتشكل فضاء واسعاً للتحرك، وكان من المجدي والمفيد للقوى الصاعدة أن تتحرك في ذلك الفضاء.

من المؤكد أن هناك من أحسن استثمار ذلك الواقع، على أن الأغلبية لم تكن كذلك، والسر أن المجتمع كان في بداية تحرك مستمر بالنسبة للمجال الاقتصادي. وحين يبدأ الاقتصاد في الازدهار فإن الانصراف إلى العمل الثقافي بالمستوى المطلوب، ينقص في الغالب بمستوى أوآخر، الحوار حول هذه القضايا في المجلس كان على رأس ما يوسع الخبرة ويزيد في غنى التجربة، بالذات حين يجمع المرء بين العمل في جلسات اللجان الضيقة، والجلسات الموسعة، إذ إن بعض الآراء كانت عميقة، وكان تناولها لعديد من الأمور ثرياً للغاية، ولاسيما النواحي القانونية، والمخالفات الإدارية ذات الصيغة المخالفة لبعض القوانين، مثل قانون المطبوعات حين تقرر أن يكون في إمكان كل من يتقدم إلى السلطات بهدف الحصول على الترخيص لإصدار صحيفة خاصة ويستلم ايصالاً يفيد باستيفاء الشروط أن يلجأ إلى القضاء العالي للبث في دعواه، وبالرغم من أن هذا

الطريق يأخذ وقتاً طويلاً من حيث الإجراءات إلا أنه في الغالب يؤدي إلى الحصول على ترخيص،لا سيما وأن عديد الشباب قد دخلوا ميدان العمل القانوني وبات من المتعذر أن يطلب إليهم إعطاء رأي يخالف هذه القوانين صراحةً، لقد كان الاختصاص مشتركاً بين الولايات والسلطة الاتحادية، إذ يقتضي القانون عرض الإجراء على الحكومة الاتحادية لكن هذه المشورة ليست ملزمة على كل حال، وكان القانون الذي سُن قد اشتق من القانون السويسري الذي عول عليه كثيراً في موضوع الاختصاصات المشتركة، إن قفل الصحف كذلك لم يترك للسلطات التنفيذية بشكل مطلق، وإنما قيد بنوع معين من المقالات حددت بتلك التي تشكل تهديداً لأمن الدولة قبل أي شئ آخر، ففي هذه الحالة يمكن حجز العدد موضوع الشبهة، ليعرض الأمر بعد ذلك على القضاء، وقد أدى ذلك إلى ارتفاع الحوار حول معنى أمن الدولة الذي يمكن أن يجيز مثل ذلك الإجراء، فلم يعد مقبولاً وفقاً لهذا القول أن يسوغ للسلطة التنفيذية أن تجرؤ على قفل صحيفة من الصحف لمجرد أن تنشر مقالاً يتضمن انتقاداً لتصرف من تصرفات المسؤولين. إلا أنه من جهة أخرى ألزم الصحف بتقديم حسابات مدققة قانونياً بشأن الدخل والمصروفات لتتضح مصادر التمويل حتى لايكون المجال متاحاً للجهات الأجنبية أن تشتري بعض الذمم الضعيفة.

وكان من الضروري أن يقف كل وطني إلى جانب هذا

الاحتراز باعتبار أن ذلك يكون كوة في الجدار السميك، ومن الممكن أن تتوسع مستقبلاً، ذلك أن الحوار المسؤول لابد أن يؤدي إلى خلق الأرضية المشتركة، لكن الخشية من خرق القوانين عند التنفيذ، كانت هي محل الإشكال.

*أثير في ذات السياق مبدأ المواءمة بين الجدوى الاقتصادية والسلامة الصحية من ناحية، وتحقق الناحية المعنوية وتوفير فرص العمل من ناحية أخرى كان ذلك من خلال مناقشة طرحت بصدد زراعة التبغ ومن ثم التصنيع، إن هذه المادة تخضع للاحتكار الرسمي منذ القدم، ويومئذٍ تبين عبر النقاش الغني بالتفاصيل الكثيرة أن نسبة محدودة للغاية من المنتوج المحلي يمكن خلطها ضمن الأصناف المعتمدة والتي تقتضي وجود نسبة كبيرة تستورد من الخارج ومن تركيا تحديداً، كيما يتم انتاج «سجائر» توفر الحد الأدنى من المواصفات العالمية، وقد علل هذا بأن نسبة التراب كبيرة في الإنتاج المحلي وفقاً لظروف المناخ إذ يستحيل التنظيف الجيد والضروري. ذلك يعني أن الكمية المزروعة لابد أن تكون محدودة وإلا فإن المنتوج الزائد والذي سيشترى بسبب أوآخر، لن يكون له من مصير سوى الإتلاف أوالتخزين في ظروف سيئة للغاية، بيد أن المزارعين يملكون مزيداً من الضغط، ولوكان ذلك على حساب المستهلك باعتبار أن الشراء سيفرض في نهاية المطاف إنتاج أنواع رديئة ومن المستحيل تسويقها إلا بواسطة الفرض القسري وتحت مبرر

حماية الإنتاج وتشجيع المزارعين. كان التصور أن الشركة المديرة تأتي على الأخضر واليابس، فإذا بالمبلغ الذي يسدد لايزيد على ثلاثة آلاف دينار، وهومبلغ ضئيل للغاية بالقياس إلى الخدمات وأهمها المشورة الفنية القائمة على حماية المستهلك من رداءة الخدمة التي لامناص من أن تقلل تحت مبرر الرغبة في تحقيق الربح وتشجيع المزارعين أوأي من هذه المآخذ التي كثيراً ماتفضي إليها أحادية النظرة، فيكون ضررها أكثر من نفعها، بالنسبة للمواطن الذي هومحور العملية الإنتاجية وموضع اهتمامها وعائدها الذي لايساويه عائد ولايرتقي إلى سدته مردود حين يجري تقييم الأمور عبر نظرة تقوم على الموضوعية والشمول ومراعاة جميع الجوانب.

إن الخوض في هذه القضايا وبواسطة أصحاب الاختصاص والتجربة، يدفع إلى مزيد من الإدراك ومزيد من الفهم، ويفتح آفاقاً واسعة من التجربة ناهيك من الإلمام بخلفيات الأمور والدوافع التي تحدد بعض المواقف سلباً أوإيجاباً على السواء فتكون هذه المسائل تأسيساً على ماسبق موضع نقاش ومراجعة من قبل المثقفين، عبر اللقاءات الثنائية، وتختلف تبعاً لذلك المواقف، ووفقاً لمستوى النضج وأبعاد المصلحة، هناك من يرفض الدفاع جملة وتفصيلاً، وهناك من يقبل المراجعة والبحث عن نقاط التلاقي مع القطاعات الشعبية المختلفة حرصاً على تضييق الهوة بين التصور النظري وما يمور في الواقع من صراع، ومن هنا

يحدث الفرق بين الذين ينظرون إلى المعرفة كنوع من الترف ويتخذون منها سبيلاً للعزلة والانفصال ومن ثم التعالي عن حركة الحياة والمخالفين لهم تماماً من الذين يرون السعادة كل السعادة في المزيد من الانغماس والتجذر في حركة الحياة واختيار المواقف الإيجابية اتجاه العاملين على تحقق الغد الأفضل. ويبدوالنادي في الغالب هوالمنطلق العملي للتفكير وهو بؤرة التحرك ومكان المراجعة، على أن أكثر القضايا استئثاراً بالاهتمام، وأشدها دعوة للمتابعة هوماكان في ميناء طرابلس من سيطرة واضحة على العمال وتسخير لقطاعهم العريض لمواجهة تيار الوعي الذي غدا يتسرب إلى كثير من النقابات، وكان المدير الإنجليزي «فاو» موضع اعتراضات كثيرة وحملات صحفية لاتتوقف، إزاء ما كان يرتكبه تجاه عمال الميناء حتى إنه لايكاد يمر يوم إلا وتكون أبواب الصحيفة المكرسة لقضايا العمل والعمال مكتظة بأخبار العمال وما دأب على ارتكابه المسؤول الإنجليزي نحوذلك القطاع العريض وما كان يعانيه من أشكال التسلط ومحاولات الهيمنة.

* إن الكثير من السائرين في ركب السلطة كانوا يساهمون في التبصير بعديد الإجراءات التي تصدر عن ممارسات شابها التجاوز وقلل من جدواها سوء التنفيذ، لتكون بالتالي موضع إثارة في جلسات المجلس ، غير أن البعض لايبرر قراراته من منطلق الخطأ والصواب، ولكنه يذهب إلى نقاط مرتبطة بالنظام

الداخلي كالنقاش الذي أثير بصدد قرار المجلس التنفيذي للولاية القاضي بقفل صحيفة الليبي تلك التي كانت منبراً قوياً للصوت الوطني، وأفلح مؤسسها «الشيخ علي» في الحديث عنها بالمجلس في بلاغة قوية وأسلوب مؤثر جعله يقنع المتلقين أن الحديث لايتصل بالمصلحة الشخصية وإنما يتصل بالإجراء من حيث التعلق بالأغلبية، فكان تصدي «الشيخ محمود» الذي لم يشر فيه إلى موضوع المصلحة الشخصية ولا الاختصاص، وإنما ركن إلى النظام الداخلي الذي يوجب في جميع الأحوال عدم النظر في الموضوع بذات الجلسة، فلقد أثير الموضوع من واقع رسالة بلغ بها المجلس بقرار قفل الصحيفة، وقد كانت نقطة رد «الشيخ محمود» أن الموضوع لابد أن يؤجل إلى جلسة قادمة سواء اعتبرت الإثارة في حكم السؤال الذي يبيح تأجيل المناقشة إلى جلسة أخرى للرد أونظر إلى الأمر كما هوالواقع، رسالة أرسلت وينبغي أن تحال ليصار إلى الرد عليها ومن ثم التعليق على الرد في حينه. كان المستهدف هوتأجيل النقاش لاأكثر ولاأقل، فكان الدهاء الذي تميز به «الشيخ محمود» خير منقذ له بأن المجلس قبل كل شئ مطالب بتحديد الأسلوب الذي سيناقش الموضوع في إطاره وفقاً لنصوص اللائحة الداخلية،وهي المتضمنة طرائق المعاملة وليس هناك من داع لتجاوزها، لقد وضعت الأنساق الكافية لكل موضوع، وجميعها في اتجاه إعطاء الوقت الكافي للتفكير بطبيعة الحال لاتخاذ الإجراء

الوقائي المناسب، لقد كان القرار تعسفياً وموضع اعتراض من جميع الأطراف أومعظمها بالأصح، ذلك أن للصحيفة مواقفها الخاصة ولصاحبها أيضاً مواقف قديمة لم تكن منطلقة من العواطف أبداً، على أن الحوار في واقع الأمر وفر درساً لامجال للاستخفاف به في مسألة الوصول إلى الهدف بعيداً عن الاصطدام، بذات القدر وفر المجال للحديث عن الصحيفة وكتاباتها التي ربما لم ترض بعض القوى السياسية في حين أفلح صاحبها في إثارة قضايا أكبر كانت موضع كتاباتها مثل زيارة الأسطول الإيطالي التي نظر إليها كنوع من استعراض العضلات واستفزاز المشاعر الوطنية، وكذلك من قبيل الاستمرار في التواطؤ بين بعض القوى والجهات الإيطالية، لقد أتاح الظرف في الحقيقة لكل من لديه حسابات معلقة أن يعبر عنها في ذلك الزمن وهي على أي حال حسابات ذات صلة بالتاريخ وما يحفظه سجله الخطير من أحداث ومواقف ومن المؤكد أن جلسة المجلس أعطت المجال الواسع لاستعادة كل هذه الأحداث للذاكرة الشعبية، ولم تكن في الواقع تحتاج إلى أي جهد يذكر من حيث التسجيل لأن معظم الأحداث واضحة وجلية، غير أن ذلك لم يمنع البعض من التنويه بما لديهم من تحفظات حول بعض مواقف الجريدة، بحيث يكون الدافع من باب الانتصار لحرية الرأي وليس لمواقف الجريدة بالكامل كان هذا التحفظ في حقيقة الأمر في غير محله لأنه يدخل في عداد من يأخذ بالشمال ماأعطى

باليمين.

ولاشك أن هذا مادفع بمفتاح السيد إلى رفع صوته من قاعة المتفرجين قائلاً:

-وقتا ؟ قول سكروها وخلاص !

ولاشك أنه كان محقاً في تعليقه، ففي مثل هذه المواقف يكون من غير المنطقي الإشارة إلى أي تحفظ، لأن ذلك من شأنه أن يزكي القرار الذي أصدرته السلطة، كان مفتاح قد دأب على أن يكتب باسم مستعار لأكثر الكتابات التي نشرها حول مختلف القضايا الفكرية والاجتماعية فضلاً عن الخصومات النقابية،وفي هذه الأخيرة تحديداً أثار حفيظة بعض المسؤولين باعتباره من أبرز موظفي وزارة الاقتصاد ومن غير المستساغ أن يمعن في إثارة مثل هذه القضايا،وكان قد تميز في ذات السياق بمقاومة الكتابات الرامية إلى تكريس الذاتية المنغلقة لما تنطوي عليه من نزعة هروبية وخلومن المسؤولية الاجتماعية كانت حجته أن الذاتية التي عبرت في بداياتها عن محاولة إيجابية لتنزيه الكلمة عن مدح السلاطين ستكون الآن بمثابة الهروب من أسئلة الواقع وما يحتدم فيه من صراع مرير يوجب على كل قلم جاد أن يأخذ مكانا في المعركة ويأخذ بزمام المبادرة في مقاومة كل ما سيكون في غير مصلحة التقدم.

* وفي إطارالتمكين الشعري الجديد أقيم مهرجان الشعر الوطني بمساهمة الكثير من الشعراء، من مختلف الأجيال،

واختيرت كذلك نصوص لأولئك الذين لم يمكنهم الحضور، كان النشاط مبادرة ثقافية صرفة ودون أي رعاية رسمية، وقد تولى مفتاح التعليق على قصائد المهرجان وتقديم الشعراء أيضاً، كانت معظم القصائد ذات منحى تقدمي، بالرغم من أن الأمرلم يكن مرتباً سلفاً لكن المرحلة على مايبدوكان لها تأثيرها، وقد تولت مجلة الإذاعة نشر حصاد المهرجان تولى كتابته مفتاح وكان ذلك بمثابة الإعلان عن تسويد النص الشعري الحديث على غيره من النصوص لولم تحصل بعد ذلك مفارقة عجيبة، تمثلت في مجلة الإذاعة ذاتها والتي بدت وكأنها منبر خاص بالثقافة الوطنية، فلم تكد تمضي فترة يسيرة حتى اضطر رئيس تحريرها إلى التخلي عن مهمته، كان ذلك بعد أن شملت مادتها جميع مناحي العمل الصحفي بما في ذلك التحقيق، والذي تمثل في تناول مؤسسة التأمين الاجتماعي بواسطة كامل اعراب والانطلاق إليها من خلال فلسفة التأمين واتصالها بنظام الملكية الفردية وتطوره عبر التاريخ، وبروزها في ذلك الوقت مع واقع السلطة الليبية، فضلاً عن كتابات «أبوحجاج» (يوسف القويري) الذي عاد من الجنوب عقب فترة مهمة قضاها بجريدة فزان، فجاء ليطرح في مجلة الإذاعة قضايا ثقافية مهمة وذات إيقاع خاص. حقاً إن المجلة كانت تصدر في إطار نشاط إعلامي واسع قوامه الدعاية للسلطة إلا أنها من جهة أخرى شكلت منبراً ثقافياً له طعمه الخاص وله أسلوبه الواضح في

التناول إزاء كل القضايا التي أثيرت مماكان سبباً واضحاً في تقوية تيار الرفض، لقد كان العمل الإعلامي قبل هذه الفترة منحصراً في النشرات الأخبارية ولكنه نحا الآن منحى ثقافياًمختلفاً، يوجب التمكين للكتابة الإبداعية والاعتماد عليها سواء في مجال الإبداع أوفي مجال النقد، إن المجلة في الحقيقة كانت جزءاً من إطار أكبر تمثل في وزارة الأنباء والإرشاد ذاتها التي أعطت مجالاً أوسع إلاّ أن الواقع في عمومه لم يفلح في إشاعة روح الحركة بقدر ما أفضى إلى استشعار انعدام العدالة في التوزيع تجاه المسألة الثقافية مما ضاعف من نقاط التقاطع. كان معظم العاملين في الحقل الإعلامي من المتكونين بواسطة الخبرة مما جعل أوضاعهم الوظيفية تعاني من التدني وعدم التكافؤ مع ما كان يُعطى في سخاء، فكان بالتالي يخول التمزق الذي انجرت إليه عديد الأسماء التي خطت بخطوات ثابتة فأصبحت تلوذ بالصمت وتكتفي بالحديث في الجلسات الخاصة بصدد مايعن لها من آراء نحوالمطروح أكثر من لجوئها إلى الكتابة حتى ليمكن القول أن الثقافة غدت إلى حد كبير شفاهية، وأن مؤسسة مثل جمعية الفكر لم تستطع أن تصدر أى نوع من الكتب.

* كان قانون المطبوعات قد نص في صلب مواده المستحدثة، على أحقية كل من يتقدم بطلب مستوفى الشروط، لإصدار صحيفة أومجلة، وبعد مضي فترة محددة في أن يلجأ إلى

القضاء. ومع أن الاختصاص في هذا المجال مشترك بين السلطات المحلية والاتحاد، بحيث ألزمت السلطة المحلية بمبدأ المشورة الاتحادية، واضطلعت هي باصدار الترخيص،ونتج عن ذلك شئ من التضارب وإهدار الوقت، وميوعة المسؤولية، باعتبار الالتزام بالمشورة وعدم التقيد بفحواها، فقد استطاع أحد مدراء المطبوعات (أحمد سيالة) الذي آلت إليه المسؤولية وهوالكيس الفطن أن يسلم لمجموعة من العناصر الوطنية، حين تقدمت إليه بطلباتها الرامية إلى إصدار صحفها التي تطلعت إليها، استطاع أن يسلم أصحاب هذه الطلبات إيصالات تفيد باستيفاء الشروط، فكان هذا الموقف الحازم بداية حقيقية لإصدار مجموعة من الصحف، ليس من باب العلاقات الشخصية والاتصالات التي تختلط بشأنها الأمور، وإنما بواسطة اللجوء إلى القضاء فبادر هؤلاء برفع قضاياهم إلى المحكمة العليا، كان معظم هؤلاء من العائدين من دراساتهم الجامعية، في حين كان بعضهم ممن اختار العمل الصحفي مهنة وقبل إكمال الدراسة، ثمة منهم من سعى إلى تخفيف الحساسية بواسطة قنوات اختارها عبر المهنة وثمة من قرر أن يقتحم المجال بالكامل، في حين فضل آخرون الاعتماد على ماسيقوله القضاء.. إن ذلك كله لم يحل دون طبيعة الحياة التي غلب عليها طابع الانفتاح، وبالذات في الجلسات الفضائية التي كثيراً ماالتأمت في المقاهي، وشملت كل إشكالات الحياة وما يمتلئ به الواقع من

قرارات إدارية ذات طابع تجاوزي وإجراءات متميزة.

* إن المجتمع من جهته أخذ يتطور اقتصادياً واتضح ماترتب على ذلك من مصالح عكستها التشريعات مثل حظر التملك العقاري على غير الليبيين وتأسيس مجموعة من الشركات المساهمة، فضلاً عن النشاط الخدمي، المتمثل في المشاريع السياحية وبالذات الفنادق، وكان الانقسام واضحاً بين مثقف يسعى إلى التحرك عبر الموجود والمساهمة في إطار الممكن، دون المساس بالثوابت، وآخر يتبنى الموقف الرافض اليائس من كل شئ، ومن المؤكد أن حكم المحكمة العليا بصدد الطعن المقدم من «الشيخ توفيق» حول الاقتراع بدائرة غريان، والذي بناه على مخالفة دستورية ، اتصلت بعدد السكان، وهي ثغرة خطيرة لم يكن ثمة من مجال لتجاوزها حول غريان ومن ثم الدوائر التي على شاكلتها، إن الدستور ينص على توزيع الدوائر بنسبة عشرين ألفاً أوكسر هذا العدد لكل دائرة، في حين كانت غريان تزيد عن ذلك بكثير ولأن حكم المحكمة يشكل سابقة لابد من الأخذ بها، فكان ذلك يعني إلغاء عشرات الدوائر مستقبلاً، ومن الضروري والحالة هذه أن يتم التفكير في تصرف آخر يضمن عدم إعطاء الفرصة لأي طاعن، مما أوجب إحصاء السكان وفقاً لما يفرضه القانون الذي حدد فترة عشر سنوات، وأوجد المبرر الشكلي لتعطيل دورة من دورات المجلس النيابي أوتعطيل عملية الاقتراع.

11

لقد خاض المجتمع تجربة مثيرة للغاية، وذلك عندما قامت أجهزة الأمن بشن حملة من الاعتقالات طالت مجموعة من الشباب، كانوا يوصفون في الشارع بالبعثيين جمعوا بين حديثي التخرج في الجامعة وبعضاً من أصحاب الخبرة وعدداً من طلبة المرحلتين الثانوية والجامعية، وقد وقِّت هذا الإجراء مع الفترة التي توالى فيها خروج أشهر الوجوه القومية من حكومة الجمهورية العربية المتحدة المتكونة من مصر وسوريا والتي مثل فيها هذه الأخيرة بشكل بارز كل من أكرم الحوراني وصلاح البيطار وهما من أعمدة حزب البعث العربي الاشتراكي الذي حقق حضوراً شعبياً كبيراً في الخمسينيات وأثناء تحالفه مع عبدالناصر، وإذا بهم جميعاً وبعد فترة قصيرة للغاية ينسحبون الواحد تلوالآخر، حيث كان الوهج كله لناصر بقطع النظر عن القوى الواعية التي كانت منتبهة إلى ماغدا يتهدد الكيان الوحدوي الوليد من مخاطر مادام قد تخلى عن الحلفاء، وإذا بالسلطات الليبية تقوم بذلك الإجراء وبأسلوب كله مباغتة، كما لوكان هؤلاء الشباب على صلة بالذين خرجوا أوأخرجوا هناك، كان العراق محكوماً من قاسم، وسوريا تحت أمرة المشير عامر وفي ليبيا اعتقالات بالجملة، وبالرغم من أن الإجراء شمل

كلا من طرابلس وبنغازي وفزان إلا أن سلطات الولاية انفردت بإصدار بيان في الخصوص، فكان ذلك بمثابة المبادرة غير المبررة، حدث هذا في صائفة شديدة القيظ وقد تم الإجراء بطريقة عجيبة حين قيل إن مجموعة من الأوراق عثر عليها في مقهى «سي علي» بجنان النوار وأن أحد رجال الأمن اتخذ منها مستمسكاً لتنفيذ الإجراء الخاص بالاعتقال ولأنها التجربة الأولى للجيل فقد كثرت بصددها الأقاويل، وتواترت الأنباء وبالذات في الأسابيع الأولى من الحملة،وقد طال الإجراء بعض أبناء العمومة لينتشر الخبر بعد ذلك في العشيرة كلها، ويومئذ وقعت المبادرة بعديد من الخطوات أولها التصدي لحملات التشكيك والإشاعات التي أطلقت حول هذا النشاط وبالذات أبناء العشيرة بهدف الحيلولة دون استدراج أي ساذج أوذي مصلحة لتجريم هذا النشاط، لاسيما وأن بعض من طالهم الاعتقال كانوا قد انفصلوا نوعاً ماعن العشيرة وقضاياها اليومية واحتياجات بعض أفرادها، مما جعلهم متحفزين لتصفية الحسابات وإذ تم تطويق ذلك بدا استخلاص الدرس العظيم وهوأن التجذر داخل الجماهير وتحت أي مبرر من المبررات من أول أساسيات النشاط السياسي وأن الاعتماد على ذوي الخلق وأصحاب الفاعلية في كل وسط من الأوساط ضرورة لامجال لتجاوزها أوعدم الأخذ بها والتركيز عليها.

ولأن التجربة هي الأولى من نوعها، فقد انطلقت الشائعات

لتمسَّ عدداً من الذين كانوا بعيدين عن ذلك التيار السياسي الفتي، وقد تعذر بطبيعة الحال أن يقول المرء بذلك وهويواجه هذه الأسئلة في أماكن كثيرة، فالقول بمثل هذا القدر من التفاصيل قد يتحول إلى نوع من المعلومات التي تفلح الأجهزة في توظيفها فتغدوخدمة مقدمة بشكل تطوعي لامبرر له، ويصبح الصمت على مضض هوالخيار الأسلم بالنسبة لسلامة الآخرين، كانت الفئات المستنيرة تملأ شوارع المدينة ومقاهيها وبالذات في المساء المتأخر بيد أنها عند اشتداد الحملة وارتفاع درجة الحرارة هرعت إلى أماكن أخرى، إن الأمر في الغالب تم بشكل عادي غير أنه إزاء تلك الظروف بدا وكأن الحملة قد شملت الجميع بشكل مباشر، أي ليس من قبيل الجوالعام وحسب لقد تسربت الإشاعات إلى بعض الكبار، وفقاً لطبيعة العلاقات ولعل هناك من بالغ في تخوفه على أن الموقف من التجربة لايمكن أن يكون بهذه الكيفية من الانزعاج، كان لابد من القيام بخطوة إيجابية، تتفق وواجبات الزمالة وطبيعة الموقف المبدئي وعدم الاستسلام للخوف، كان ذلك يعني بطبيعة الحال الإقرار بفكرة التصنيف الذي اتبع، بمعنى أن الفريق الذي سيتحرك لديه قناعة بأن الحملة قد شملت من هم أهلٌ لها، وأن التحرك وعدم الخوف يعني أن هناك بالفعل عناصر تعتقد وتتحرك،ولكن لامهرب من ذلك، فالخيار لابد أن ينطلق من أخف الضررين وأخف الضررين كان يومئذٍ هوالمبادرة

بالزيارة وفقاً للعلاقات، واختيار المحامين القادرين، لأن المبالغة في الحذر تضع المرء في نهاية المطاف في قائمة الجبناء وبخصوص من يعنينا أمرهم وقع الاختيار على «كامل» الذي كان قبل الحادثة قد فتح مكتب محاماة بعد أن استقال من إدارة الفتوى والتشريع، وكان لذلك الموقف وقعه الطيب، إذ إن هناك من راهن على عدم الاكتراث وربما حتى الشماتة، وكان ذلك منتهى السطحية، ومنتهى العجز عن إدراك المرحلة، إذ إن المثل الشعبي يقول (من تغدى خوك تعشاك) بقطع النظر عما يقوله فولتير من حيث الخلاف والدفاع عن حق الآخر في التعبير عن رأيه فنحن قبل كل شئ لنا تراث ولنا أهل تركوا من أقوالهم ما يجب أن يتبع، ويشيع الفخر، وعبر الزيارات والنقاش وتبادل الرأي والمشاعر الإنسانية كانت هناك قاعدة نقاش وتقاليد تسود لم يكن لها مثيل من قبل.

* طرح بعض أبناء الجنوب فكرة تأسيس نادٍ يحمل نفس الاسم، وتكون من مهامه إن لم تكن كل مهامه، التعريف بالواقع السئ هناك والفاقة التي يتعرض لها السكان ولكن وجهة نظر أخرى رأت أن هذا التوجه لن يكون مفيداً لما يحمله في طياته من التقوقع والانغلاق، والعجز عن كسب أي تعاطف، والبديل حسب هذا التصور أن يقتحم المعنيون بالأمر نوادي المدينة وفرقها ويشتركوا شأن كل الناس وعبر ذلك يمكن لأي عنصر أن يقوم بما يراه واجباً عليه سواء نحومسقط رأسه وهم

الأقربون أوحول وطنه ليبيا أوحتى الوطن العربي، وحجة هذا التوجه أن نوادي المدينة وفرقها مفتوحة أمام الجميع ،وهي لاتشترط المولد ولا النشأة بقدر ماتقوم على الإقامة وبشكل أكثر الهواية، فالنوادي قبل كل شئ هواية ونشاط، ومن لديه نشاط واستعداد للتحرك يمكنه أن يفعل مايعن له ويحقق مايتطلع لتحقيقه، وخير دليل على ذلك مايجري في النادي من نشاط ومايتيحه من فضاء أمام كل العناصر ومن غير أي تمييز يتصل بمسقط الرأس أوالنشأة لكن البعض لم يستوعبوا هذا التحذير، وقرروا أن يستمروا في الفكرة إلى مداها فتقدموا بطلبهم إلى الجهات المختصة، ربما لوجود فكرة مسبقة، غير أن الأجهزة على مايبدولم تكن غافلة، فتعذر التصريح بالتسمية المقترحة، وكان أن وقع تعديل التسمية، لقد تزامن هذا التوجه مع انقضاء الفترة القانونية للهيئة المديرة للنادي وبما أن القاعدة الشعبية قد تكونت بما فيه الكفاية كان الرد العملي والتجسيد المباشر لفكرة التعويل على زخم المدينة ومؤسساتها الجاهزة والمتاحة هوخوض معركة الانتخابات واستلام رئاسة النادي، تأكيد أحيا بأن المدينة فضاء مفتوح وليست منغلقة أومقصورة على أهلها القدامى وحسب.

* كانت وزارة الأنباء والإرشاد يومئذ قد خطت خطوة أكثر قرباً من النوادي وذلك بإقرار مبدأ الاشتراك باسم الحكومة، كان المبلغ في حدود عشرين ديناراً لكنه يعني شيئاً بالنسبة

لطبيعة النشاط التطوعي ومحدودية الالتزامات.

من الممكن القول إن قناة الاتصال في مقدورها أن تواصل، وربما كان الهدف من الاشتراك يرمي لذات الاتجاه، إلاّ أن شيئاً من ذلك لم يحدث سواء بالنسبة لرئاسة النادي أوالطرف المقابل في الأنباء والإرشاد بالرغم من العلاقات القديمة التي تعود إلى فترات العمل بمجلس الولاية ووجود مستوى لاباس به من التعاطف.

لقد تحسس في الحقيقة من أن ينعت بين الأصدقاء في النادي أنه يروج لمسؤول بعينه، في الوقت الذي كان الشعار العام رفض السلطة بالكامل، ذلك لا يعني أنه كان بمنأى عما يجري في واقعه من صراع، وأنه لايرى وجوب ترجيح كفة على الأخرى، إلا أنه كان ميالاً إلى التحلي بأكبر قدر ممكن من التوازن وداخل مؤسسة النادي بالذات، كان الاستقرار الوظيفي قد لعب دوره هوالآخر، فقد ثبت منذ فترة على الدرجة الخامسة وأعطى وكالة الدرجة الرابعة، عندما ثبت مكلفا بشؤون المضابط حين كلف زميله عمران بإدارة مكتب الرئيس، وقد تابع هذه الجزئية بشكل خاص أقرب الأعضاء إليه في تلك الفترة عبدالله الزدام حين جرى تعيينه ومن ثم اختياره لشؤون المراقبة، كان الرجل خلوقاً إلى أبعد الحدود ومن الذين يرفضون اللعب على الحبال، فلقد عين في البداية من قبل الخاصة، إلا أنه لمجرد اختياره لنظارة المواصلات أقام حفلاً موسعاً لجميع أصدقائه، وأبلغهم أنه من

ذلك اللقاء سيكون بعيداً عن جلساتهم لأنه لايريد أن يكون في موقف الذين يتهمون بأكثر من وجه، كان الخلاف بين الوالي والخاصة قد بلغ اشده وكانت تعليقات الوالي شديدة الحدة وفي أحيان كثيرة تجانب اللياقة، لكن عبدالله وقد قبل العمل فهوإذن لايريد أن يضع يداً هنا ويداً هناك، على أن التجمع المعادي لسلطات الولاية في الجنوب مالبث أن ضاعف من نشاطه، فقد أفلحت السلطات الاتحادية في استيعاب جميع العناصر التي كانت قد أبعدت في وقت سابق عند حل المجلس التشريعي، فوجدت فرصتها في المصرف الزراعي ولجنة البترول وهيئات أخرى كثيرة، كانوا جميعاً من الوجوه المعروفة وقد وقع التضييق عليهم في فترة واحدة لكنهم الآن أخذوا يتنفسون الصعداء بل لقد تجاوزوا المحنة بالكامل وشرعوا يمارسون حياتهم العادية، ويواصلون مانذروا أنفسهم له، إن إمكانيات البلد جميعها قد تحسنت جراء الإتفاق الناجم عن الشروع في تصدير النفط وبدء تكوينات فئوية جديدة في المجتمع، الأمر الذي أدى إلى شئ من النشاط الاقتصادي استوعب أبرز العناصر القادرة وسهل مهمة العودة لرموز وطنية كثيرة خاضت تجربة العمل التجاري الخاص في المهجر مالبثت أن عادت إلى الوطن، وأخرى حالت دونها مواقفها المتطرفة فغدت تدفع ثمن ذلك في صبر حين عوملت معاملة الغرباء على نحوما واجه الشيخ الطاهر الزاوي والأستاذ أحمد زارم، وقد أتاح ذلك

كله مجالاً واسعاً للإلمام بأمور كثيرة تتصل بإشكالات الجهاد وخفايا الحركة الوطنية، كل حسب ظروفه ومستوى إمكاناته، على أن بيوت بعض المنحدرين من الجنوب كانت توفر عديداً من المعلومات عن ظروف تكوين الجمعية الوطنية والفلسفة التي حكمت اختيار أعضاء اقليم فزان ابتداء من كلمة مندوب فزان المتمثلة في قوله (يكون خيراً إن شاء الله) حيث تبين أن أحمد سوفولم يكن عاجزاً عن القول، وإنما لأن الجاسوس الفرنسي كان وسط المجموعة يرتدي ملابس وطنية ويتكلم العربية بطلاقة، ولم يستطع مندوب الصحافة يومئذٍ أن يكتشف الحقيقة وإنما راح يعرض بمندوب فزان الذي اكتفى بهذه الكلمة ظناً منه أن المستمع سيفهم الإشارة ولكنه عجز عن ذلك. وإذا كان أمثال الطاهر بريدح من الذين يتحدثون ببساطة شديدة فإن عبدالسلام مصباح كثير الحدة والإصرار على استقلال الشخصية والتعامل بندية كاملة مع أبرز الأسماء التي كانت تقود المجموعة، في حين يظل كل من الشيخ علي خير الدين والحاج عبدالله بن حمد مثالاً للثبات على المبدأ وعلى التنزه وعلى الرفض المطلق لاستبدال نفوذ بنفوذ، كانا في الحقيقة مجاهدين بكل مافي الكلمة من معنى وفي ترفع لانظير له عن كل مواطن الشبهة لقد احتل الحاج عبدالله على نحو خاص مكانة سامقة في الوجدان لما كان يتميز به من الهدوء والوعي وما يتلألأ به وجهه من عمق الإيمان وفسحة الأمل والرهان

القوي على حتمية النصر ولوبعد حين.

كان من ميزات هذه المجموعة تلك الوشائج القوية التي تربطها ببعضها البعض مهما اختلفت المواقع حين تكون هذه المواقع غير مرتبطة بالتنازل عن مقومات الشخصية، من كرم ورجولة وتنزه عن الشوائب بقطع النظر عن الكفاءة في ميدان العمل، فلدى هؤلاء حكمة سديدة مفادها أن الأمور كلها قضاء وقدر ونصيب مقرر، فلا ينقطع عن هذه البيوت قوم آخرون وظلوا يعيشون في الداخل من أمثال الحاج نصر والحاج النور ومحمد شلقم ولهم جميعاً مواقع داخل التركيبة الإدارية بيد أنهم يختلفون عن آخرين فهم لايشتطون في شئ ولا يتحرجون من أي حوار ولايخشى منهم على أمانة الجلسة ومع أن الكتب تحوي الكثير من المعلومات وتعطي الكثير مما يوسع المعرفة، إلا أن التجربة الحقيقية والتدرب على أصول المعيشة وتقلبات الزمن وحقيقة التركيبة الداخلية لاتأتي سوى من جلسات هؤلاء الذين يكونون خليطاً مختلفاً في الظاهر ولكن غير متنافر في العمق، بل لعله يشكل وحدة قوية لايطالها الانفصام ولايعتريها التناقص الذي يبدوولأول وهلة.

* أشياء كثيرة صارت تبعث على القلق وتثير في النفس المزيد من الأسئلة والحيرة، فعلى صعيد الكتابة تعززت القدرة في اتجاه المقالة النقدية والاجتماعية على السواء،وكان هناك أكثر من مشجع لخوض التجربة والمضي فيها فبالإضافة إلي

محمد البشير وكامل اللذين لم يتركا مثقفاً إلا وحثاه على الكتابة وهناك أيضاً «الشيخ عبدالعزيز» الذي انتقل بصفة نهائية إلى الاذاعة بعد أن ظل متعاوناً وهوبالمجلس زميل من أحسن الزملاء، غدا يحث على الكتابة والمشاركة بالأحاديث وحتى التعليقات وكانت التعليقات لاتتجاوز الخمس دقائق ولاتعبر عن رأي الكاتب ولاتحمل اسمه، والهدف بطبيعةالحال الإفادة لكن الاعتذار عن هذه المهمة قد رجح، أما الناحية الأدبية فقد قدم بشأنها المتوفر، ويومئذٍ اثنى الأستاذ عبد اللطيف ثناء جيداً على ماكتب وذلك قبل انتقاله هوالآخر من المجلس،إن هذا الوضع في الحقيقة صار يجعل من العبث المضي في الاهتمام بما يخص مايجري في الجنوب، لكن المشكلة كانت في الارتباطات وعمق العلاقات مع هؤلاء الناس، خاصة وأن السكن أيضاً غدا الآن أكثر إتاحة للقاء بعديد من العناصر فبعد خوض تجربة البعد عن المدينة والانتقال إلى الضواحي وقعت العودة مرة أخرى إلى شارع المازني حيث مجموعة الأعلام من أمثال الكندي والرازي، حينما اختارت المجموعة بيت الحاج أحمد الذي يصر على الاحتفاظ بحجرة فيه، البعض يرجع ذلك إلى حيلة عقارية بحيث يكون الإيجار مقصوراً على بعض الحجرات وليس البيت ككل حتى لايكون المستأجر في حل للاتصال بالبلدية في أي شأن من الشؤون، إن الكهرباء ذاتها مقدرة، البعض الآخر يقول إن البيت بالفعل ليس من أملاكه ولكن من أملاك الزوجة التي

لها أبناء من زوج سابق، من البيت يقتطع دكان صغير، كان المرور عليه يجري لمدد طويلة، وكان الحديث يوجه لصاحبه بالإيطالية فيما هويقول باستمرار إنه عربي ومن المنطقة الغربية، فإذا به الآن يسكن مع المجموعة، كان الهدف من السكن هنا القرب من المكتبات والقراءة المستمرة لأن الترقية المنتظرة تحتاج إلى امتحان يتصل بطبيعة العمل ومعادلة المستوى الدراسي، لأن وظائف الفئة الأولى تتطلب هذا الإجراء، ولابد إذن من القراءة ، لأن المنهج غير محدد، من حيث الوضع العام كان ثمة ضيق من الحماس الذي أبدي لحركة الاعتقالات، ومن التضييق الذي شمل كل التيارات في العراق والسكون الذي بدا ينذر بقرب العاصفة بمصر ،ولهذا لم تكن مغرية كثيراً تلك الشعارات التي ارتفعت من الحكومة بالاتجاه إلى الداخل ومن الوالي أيضاً بالاتجاه إلى الدواخل، أما الحديث عن الطبقية الذي وقع في مصراتة وفي إطار الرد على بعض الصراعات فلم يحرك أي ساكن، غير أن الشعر مايزال يهز القلب، مايزال يخرج بين الفينة والفينة، وإن يكن لم يخرج من عوالم البياتي ومن سبقه من رواد الفكر الاشتراكي وقادة النضال الوطني، فالأدب الهادف وقضايا الالتزام هي الشغل الشاغل حتى والكتابة تطال أجناساً أخرى.

كان تقدم الوعي يدفع بالمرء إلى مراجعة الأبحاث، بشكل مختلف، ويصل به كذلك إلى نتائج مختلفة، تناقض بالضرورة

مايتنتهي إليه عادة التصور الساذج الذي كثيراً مايستسهله البعض ويحددون بموجبه مواقف تبدو في أحيان كثيرة مضحكة، وفي أحسن الفروض داعية للتعجب، فلقد اتضح - والمرء يراجع نتائج انتخابات مجلس النواب، أن نقطة الخطأ كانت بالأساس في خوض المعركة فمادام الخلاف قد وقع مع تلك القوة المؤيدة في البداية كان من الأسلم العدول عن المشاركة، بحيث يتولى الطرف الذي كسب رهان السلطة خوض المعركة وتحمل نتائجها، ومادامت البلدة نفسها قد انقسمت كان من اللازم أكثر فأكثر أن يتم الانسحاب، تلك هي الحسابات الدقيقة والتي تنسجم تماماً مع النتيجة، فقد كان الأستاذ حامد صادقاً كل الصدق حين أعلن النتائج وهي لايمكن إلا أن تكون كذلك، إن الخطأ الذي لايقل عن ذلك أيضاً هو المتمثل في تجديد أعضاء مجلس الشيوخ، حين مُررت معلومة مفادها أن الولاية قد اقترحت للموقع أحد أبناء البلدة من الذين كان لهم دور في المعركة الانتخابية وكانت المبادرة المتمثلة في تقديم اعتراض مكتوب بشأنه، إذ ليس من الحكمة أن نكرس فكرة الكتابة للسلطة للاعتراض على عنصر من العناصر، فليس ثمة مبرر منطقي وهو على أي حال موضع تقدير ذات يوم وثمة أكثر من مبرر لاختياره، وهو كذلك إن لم يُفدْ فلن يكون ضاراً وكان من المهم أن يقيم الأمر بهذه الكيفية لاأن يبادر بخطوة طائشة ومحكوم بفشلها مسبقاً فضلاً عن مخالفتها للمبادئ المتفق

عليها. وقد ضاعف من معاناة هذا الواقع عديد من الأحداث اللاحقة، كان أولها متمثلاً في التجديد للشيخ بعضوية مجلس الولاية بالرغم من اعتراض الوالي على شخصه، والذي كاد أن يحدث كارثة له شخصياً لولا مبادرة رئيس المجلس باحتواء الأزمة والحيلولة دون نتائجها الوخيمة المنتظرة، لقد عدلت الولاية مجلسها التنفيذي وأدخلت مجموعة من العناصر التي حاولت أن تحفظ بها التوازن في الجنوب بما يعطي الفرصة للمنطقة، وقد جرى ذلك وفقاً لحسابات لا مناص من الأخذ بها في واقع الأمر، وكذلك فعلت الحكومة الاتحادية التي كانت يومئذٍ رئاستها لذات الأقليم حين بادرت بتعيين بعض العناصر في مراكز حساسة، لم تصل إلى مستوى الحقائب الوزارية لكنها متقدمة على كل حال.

لقد أفلحت الحكومة في اتخاذ خطوات جريئة بصدد بعض الوظائف الكبرى التي ظلت شبه محتكرة منذ فجر الاستقلال، هناك من يرى في ذلك الإجراء تطوراً طبيعياً، وهناك من يرجعه إلى مقدرة المسؤول الأول، غير أن وتيرة الدعاية ارتفعت كثيراً وكان ذلك يدعوإلى التراجع عن أي تقدم في اتجاه التعاون، من المؤكد أن بعض ماجرى كان مفاجأة إلا أن الذي حدث كان لافتاً للنظر، وإن يكن من ناحية أخرى يشير إلى قوة الصراع بين مراكز القوى، على أن ماكان يلحظ هوعجز المنطقة عن خوض أية تجربة في إطار المناورة ومحاولة الاستفادة من التناقض، إن

أكثر العناصر وعياً بهذه الوضعية عبدالقادر الذي اختار طريق التجارة منذ سنوات وحاول أن يحقق لنفسه مكانة في عالمها ولكنه ظل يواجه مشكلة التمويل، فقد كان من دعاة الاستفادة من التناقض وعدم قطع الاتصال مع كل الأطراف وبالذات الحكومة الاتحادية لما يشكله الاتصال بها من حد من جبروت الولاية. لم يكن الرجل ذا مصلحة شخصية أبداً، ولكن الوعي المبكر والفهم المركز لطبيعة المرحلة بالرغم من أنه من الناحية الشخصية قد وطد صلته بالسلطات الولائية دون غيرها بحكم الإقامة والعمل، أما سبب الحديث فقد كان بمناسبة تنفيذ الولاية لحكم المحكمة العليا بإلغاء قرار المجلس التنفيذي القاضي بأول قرار فصل تعسفي صدر بفعل مدير التجارة الخارجية،وهوالتنفيذ الذي جرى على هيأة محضر مصالحة، وترتب عليه فتور في العلاقة بين الحكومة الاتحادية والمعني بالقرار وهوفتور لم يكن مفيداً بأي حال ولايتفق مع العلاقات السابقة والتي كانت كل الاعتبارات توجب الحفاظ عليها والعمل على تنميتها، ليس فقط من حيث القيم وإنما بحكم المصلحة التي تقتضي الحفاظ على جميع القنوات، كانت في واقع الأمر نظرة عملية للغاية وكان من أهم مايدفع للوقوف عندها كون القائل بها لم يتصرف بمقتضاها، فهي إذن ليست من منطلق ذاتي يحتكم إلى الموقف الفردي، بقدر ما كانت نتاج نظرة عامة وتصوراً لطبيعة المرحلة وطبيعة الأشخاص، لكن

القراءات يومئذٍ كانت تدين الموقف الانتهازي، وكان الفهم يخلط بين العمل الإداري الصرف والنشاط السياسي الأوسع، كانت الأدبيات ترفض مبدأ المساومة وتنال من أي حالة من حالات الاستقرار،وذلك لوجود شئ من التشويش أولنقل مثالية التفكير ،ولعل هذا ماقلل من الحماس لتلك الرسالة التي حملها البريد ذات يوم يشير فيها محمد افندي إلى شغور موقع السكرتير العام لمجلس الولاية، وكانت ضمناً تعني عرض الموقع، وكان صاحب الرسالة قد استلم في وقت سابق منصب السكرتير العام للمجلس التنفيذي، ولكن الموقف من العرض كان سلبياً للغاية، وتعليل ذلك أن التفسير كان بمثابة السعي إلى إنهاء حال المقاومة وبالأحرى الترضية، وأن الصواب هوالاتجاه إلى عناصر أخرى، إن الأمر في حقيقته لايخرج عن مبدأ المزايدة السياسية بالنسبة للموقف المتردد فلقد انتهت كل أشكال النشاط يومئذٍ، اللهم إلا ماغدا يصدر من أطراف أخرى، ولم يكن هناك في الأفق من لديه خبرة ويعمل في هيأة تشريعية شبيهة بتلك الهيئة، ومن ثم فإن الموقف الذي اتخذ لايفصح عن تمثل لواقع الحال، اللهم إلا الحذر الذي ربما اثبتته بعض الأوضاع، إلا أنه قد لايكون عائقاً حين توجد الوقاية اللازمة، على أن هذا الموقف لم يكن تجاه الولاية وحسب ولكن كان بذات القدر حين جاء عرض آخر، وقد تمثل في رئاسة مكتب التأمين الاجتماعي، وهي وظيفة مشتركة بين المؤسسة والولاية فقد تم رفض تقديم أي

شئ مكتوب في الخصوص ، بحيث طرح الأمر في مجلس المؤسسة ثم طلبت بعد ذلك المعلومات وكان هذا الموقف أيضاً تعبيراً عن الإصرار على الاستقلالية والترفع عن أي سمة من سمات التبعية.

- لم تكن الإقامة في شارع المازني، مجرد انتقال من مكان خارج المدينة إلى مكان في قلبها وحسب وإنما كان نقلة مختلفة للغاية، طالت أسلوب الحياة والتفكير على السواء كانت المرحلة أيضاً تزخر ببعض التطورات التي أخذت تطرق حياة الجايلين، من حيث الكتابة والنشر والاتصال بعوالم الإذاعات ووسائل النشر، وهي توالي اهتمامها بتراث الشعوب وتجاربها النضالية ومواقفها التاريخية، كان أبرز المرافقين (بريش) حفيد أبرز الشاعرات التي عرفها القرن الماضي، والتي انجبت ثلاث بنات كلهن يخضن في هذا اللون من التعبير، فضلاً عن شقيقته التي تقرض الشعر أيضاً. إن الوسط كله وسط شعري، والعيشة الأولى ذاتها عيشة لايمكن لمن يعيشها أن يصمد مالم يكن على صلة بالشعر، إنه عالم الفلاحين، الذين لاصلة لهم بما سوى الأرض ولاتفكير في الحياة إلا ويفضي إلى كونها الواسع وتجربتها العريضة، فهم لايغادرونها أبداً ولايقبلون بما سواها بديلاً،وهم في سبيلها يبذلون النفس والنفيس وعليها يموتون إذا لزم الأمر، عبر أملاك بن موسى التي تعود إلى مئات السنين حين نهض الأول بغرس أول نخيلهم الذي غدا أطول جذوعاً من

كل النخل المجاور هناك جنباً إلى جنب مع وقف علي بن محمد أحد الذين قاوموا مشروع الرحيل وأصروا على البقاء في تلك الغابات التي غرست وتم وقفها على الذرية حتى لايجرؤ أحد على البيع، فإذا ماوقع خلاف بصدد تلك الأملاك الشاسعة ورفع الأمر إلى قضاء طرابلس كانت تهميشته الخالدة بإحالة الأمر إلى الشيخ محمد الخير الذي لم يغادر البلدة أبداً احتراماً لعلمه وثقة في عدالته وسعة اطلاعه، بالرغم من أنه لايملك أي صفة رسمية، وليست البلدة أيضاً مقراً شرعياً للسلطة الإدارية ،ولكنه العلم الذي يعلوأحياناً على كل شئ عداه وعدالة القضاة التي لاتتوقف كثيراً أمام قرارات الإدارة، في تلك العوالم حدثت السيدة بسخونة كل كريماتها الثلاث تنشئ الشعر وترويه، وتغرس فيهن جميعاً حب هذا اللون من التعبير الذي يمثل الملجأ لتدوين الأحداث والتفريج عن النفس المكلومة وحفز الهمم لانتظار زمن النصر الذي لابد أن تشرق شمسه، مهما تلبدت الغيوم لينحدر من هذا الكون كله إلى (بريش) ليروي تلك التجربة الشعرية كاملة غير منقوصة، الجدة التي صورت سنوات الحكم التركى وانعدام السلطة وبروز العشائر التى كثيراً ما تأتى على الأخضر واليابس، الابنة التى تعيش تجربة حياتية عريضة تمثلت فى زيجات كثيرة، جرت تحت غول الزمن وقدرة الأنثى على المقاومة اعتماداً على قول شعبى خالد خلاصة (ألف صداق ولا زلة) وتخلد ذلك فى نصوص شعرية،

إن يكن وصف حادثة (15 نوفمبر) أبرزها فإن ذلك لا ينفى وجود تجارب أخرى كثيرة أمكن التعبير عنها والقدرة على توثيقها وتجسيد صورها حتى تصمد للزمن وتقاوم رياحه العاتية، الأم التى تحدب عليه وشقيقته التى تليه والشقيق الذى يصغر الجميع فى زاد لا ينقص من الصبر والثقة فى رحمة الله التى لابد أن تهب ذات يوم وتنتهى السنوات العجاف وتصور عوالمها هذه فى قصائد شعبية تعبق بالإيمان والتجربة والتآسى بما يحويه سجل الحياة من أنواع المحن وعديد النازلات عبر العصور، حين كان ذبيحها جدياً صغيراً يعانى من الهزال نظرت إليه وهى تتوسط أطفالها الصغار وكأنه يفوق سمان الضأن والإبل، وحين ضاع وليدها الصغير فى الفيافى ولم تجد من يبادر بالبحث عنه من أقرب المقربين لم تيأس من الواقع ولومن باب التعلق ببركة الصالحين، حكايات كثيرة يعيد روايتها بريش عبر الليالى الطويلة عساه يحول بمجالسيه عن التوجه إلى أقرب المقاهى حيث اللهوومخالفة النواهى، فإذا ما لاحظ على أى من الحاضرين ضيقاً بأحد القادمين، كانت لازمة من لوازم الغناء التى تحذر من الشح ومن الاعتداد بالنفس والتفكير بالعودة التى لا مناص منها إلى الأهل، حيث المفاخرة لمن وسع على أهله، ومن استقبل ذويه، والملامة والاستهزاء بكل من أعرض عن قريب أوأشاح بوجهه عن محتاج، الطاهر هوالآخر والذى لايمت إلى المجموعة بصلة أفلح فى استيعابها بالكامل فصار وكأنه أقرب

الأقربين وتحول محله الصغير الذى لايزيد عن مترين فى زاوية تطل على شارعين وكأنه من أكبر المخازن. إن طاهر فى الحقيقة لا يستوعب المجموعة ولكنه يستوعب الحى كله، سواء بعض الكبار الذين تبدوعليهم بقايا وجاهة قديمة، أوالذين دخلوا خريف العمر، العجائز الايطاليات أيضا يجدن ما ينقصهن عند الطاهر، فهوواسع العلاقات يمكنه أن يحضر كلما يطلب منه، المهم أن يرتب المرء طلباته، إن الأمر لايتصل بالشراء أوالبيع وحسب ولكنه يشمل خدمات أخرى لادخل له منها سوى رحمة الوالدين كما يقول دائما رحمة الوالدين مهمة بالنسبة له وهويتطلع إليها من كل طريق ولوكان ذلك من «انجلا» التى ماتزال تعيش فى ذلك البيت الذى يميز بمصباح أحمر ، فهى حين تمر وتطلب منه خدمة من الخدمات وتشكره بغير العربية فهويتعشم البركة ورحمة الوالدين، فلسفته إن كل من لايكذب ولايسرق ولا يتجنب المريض ولا يبخل على المحتاج فلن يعذب (يوم غدوة) من يرحم الناس يرحمه الله ومن لا يظلم لايظلمه أحد، حين تقول له عن أحد الجيران غير المسلمين قولا غير طيب يبادرك بكلمة واحدة (كل شاه معلقة من كراعها) الطاهر شديد الإعجاب بتلك المرأة التي اضطرت ذات يوم إلى نهج ذلك الدرب وتسعى الآن للخروج من مأزقه وتبذل جهداً لصون وحيدتها من الوقوع في مستنقعه، وذلك بتخصيص بيت منفصل وتنشئة متوازنة تجمع بين الدراسة في المدرسة الإعدادية

والإبتدائية الإيطالية، فتبدوفتاة متميزة بالرغم من صغر سنها وليس بها من سوءة عدا ماوقعت فيه الوالدة، كلما وقفت (صلوحة) لشراء بعض لوازمها وهي تتجه إلى مدرسة المعلمات صباحاً أووهي عائدة مساء من المدرسة الإيطالية ولفتت انظار الحاضرين فإن طاهر يتحدث ويرغب الآخرين في الزواج من هذه الحسناء، التي تبدي والدتها كامل الاستعداد لتزويجهالمن يريد وتتعهد بعدم زيارتها مطلقاً، المهم أن يقبل الزوج بالحقيقة ويؤمن أن الورود الفواحة يمكن أن تنبت في أرض مختلفة، حين كانت الفتاة متعثرة في بعض المواد ومصطفى الذي فر من سلطات الولاية وما اقترفته بصدده من ظلم، مما انعكس على زواجه الذي لم يعمر طويلاً ففارق وحل بالمدينة، ويتعهد بالتالي بتدريسها في حصص إضافية، بسط الطاهر كل هذه الحقائق وأقبل مصطفى على التدريس، كان المؤمل أن يدفع به الحديث إلى التفكير وأن تشجعه الرؤية على التقدم بيد أن الأم الواعية، ليست من البساطة التي يتصورها البعض، فهي واثقة بمن أعدت، وهي لاتقبل شخصاً يأتي هكذا فلابد من تزكيته من الأهل أولاً وبتعريف كامل من المعارف، والطاهر لايخون من أمنه ولولم يكن من المسلمين، ومابالك أن يتصل الأمر بصلوحة !

لقد أفلح الطاهر في إحاطة الفتاة بهالة من الإعجاب لدى أولئك الذين دأبوا على التردد على متجره الصغير الذي شكل الملتقى المهم لكثير من الرائحين والغادين ممن اقتضت مصالحهم

المتداخلة المرور من هناك في الغدو والآصال، إن الحياة في الشارع اختلفت كثيراً عن ذي قبل فلقد فتحت وكالات كثيرة للنقل ومحال أخرى للتجارة والمهن المختلفة بعض هذا النشاط أملته طبيعة التطور الذي طرأ على الحياة وبعضه الآخر ساعدت عليه طبيعة الحي ذاته، إذ لم يكن من المستساغ أن تسكن البيوت التي أخذ الأجانب في مغادرتها إلى جانبها تلك التي تعلوها المصابيح الحمراء، فهي إذن تصلح أن تكون محالاً عمومية من نوع آخر، وكان ذلك سبباً لارتفاع أسعارها ملكاً وخلو رجل على السواء، ولم يجد غضاضة ـ على مايبدو ـ بعض أبناء الجنوب من اختيار إحدى الشقق لتكون لهم استراحة يأوون إليها بين الحين والحين، فصاروا هم كذلك يترددون على الطاهر لقضاء مايحتاجون إليه من عديد الخدمات، إن كل شئ يدفع باتجاه الحركة والتوسع في الاستهلاك، فشئ من التحسن طال حياة الناس بدون شك وانعكس على المظهر الاجتماعي الذي شمل فريضة الحج، فالباخرة «لاتسي» تقضي رحلتين في الموسم الواحد ونظام البطاقات المجانية دخل هو الآخر، وإذا كان المدير بوبكر دقيقاً في حساباته حين أعطى الفرص التي لديه لخطيب المسجد ومؤذنه وشيخ المحلة، فإن الشيخ سالم له حسابات أخرى تتصل بأولئك الذين وقفوا إلى جانبه في معاركه الكثيرة، ومن بين هؤلاء بن محمد الذي حل بالبيت في طريقه إلى الحج مرفوقاً بأبنه لتختص المجموعة بالقادمين، لكن الشيخ سالم له

طريقته الخاصة في معالجة الأمور، وله كذلك أكثر من هدف، لقد أتاح هذا اللقاء الدخول في علاقة جديدة تتجاوز برود السنوات الماضية، كان يومئذٍ قد تفرغ للعمل بمؤسسة التأمين ممثلاً لحكومة الولاية بعد أن بلغ نهاية السلم الوظيفي، هولايهتم كثيراً بنوعية الوظيفة بقدر مايركز على المرتب وعلى النشاط التجاري الذي بدأ يعود إليه من خلال العقارات. كان قادراً على تجاوز المسافات إذ استطاع أن يستدرج ذلك الرجل الثمانيني ليتحدث عن تجاربه القديمة، حين كان فناناً ملء السمع والبصر وكانت (ريم الجليبه) قبل خمسين سنة وأكثر موضع صراع بين مجايليه وأفلح فى الفوز بها دون غيره حين غنى أغنيته الشهيرة :

ودك لياصادك غرض دقداقى

على بنت كان صار الكيار تلاقى

كان الرجل كثير التردد على المجموعة التى اختارت تلك الثقة، فهم جميعاً من موظفى الجنوب الذين أخذوا يسعون للاستقرار بالمدينة، لكنه هنا وجد أمراً مختلفا فهويسعى للارتباط بهذه الأجيال الجديدة، ويهمه أن يتجاوز السنوات الماضية، ومن أهم ماقد يمكن من ذلك ولوج هذه العوالم، عوالم الخوض فى تجارب الشباب لم يخف اعجابه بمقال تم نشره بصدد الأدب الشعبى، وهوعبارة عن تناول لمجموعة من النصوص، فكان الحديث عن تجربة بن محمد بداية لأحاديث كثيرة، كان لها أكثر من ميدان عبر سيارة الأوبل التى كان قد امتلكها

ومارس بها هوايته فى ذرع شوارع المدينة وأزقتها وأحيائها وضواحيها .

12

معظم المجايلين تبلورت لديهم فكرة الزواج، بشكل أوآخر فالذين أنهوا دراستهم الجامعية بدت أوضاعهم الوظيفية أكثر استقراراً، واحتفاء أهلهم بهم لايقل عن ذلك فقد مثلوا رأس مال من الضرورى أن يستثمر وأن يفتح المجال أمام صاحبه، والذين اختصروا الطريق هيأت لهم أقدميتهم ظروفاً أفضل، والذين ولجوا أبواب الشركات النفطية تيسرت أمورهم وانعكس ذلك على مستوى حياتهم وثمة جيل من الفتيات صرن يملأن المدينة ويغشين شوارعها الفسيحة فى اتجاه المدارس والمعاهد المتوسطة، والقليل القليل باتجاه الجامعة، وجوه كثيرة تملأ الشوارع وقلة من هذه الوجوه تستولي على الألباب، ولا تجد غضاضة في رد ابتسامة تقابلها وربما التحية أيضا بمثلها ولم يعد خافياً ما بدأ يسود من علاقات بين عديد الأسماء، لكن موقف المجتمع مايزال قاسياً بصدد الاتصال، وقد يسرف البعض فى الحديث وقد تدخل العوامل الشخصية وبواعث الحسد والغيرة فتنال من البعض، لكن الحياة لاتعرف التوقف، وتيار التطور يجرف الواقع ويسوده بما لايقبل البديل. إن الخامسة والعشرين قد لا تكون بالسن المناسبة ولكنها بالنسبة لمن دخل الحياة فى فترة مبكرة تبدومناسبة وربما متأخرة أيضا فضلاً عن أن الابن

الأول له دائما وضعه الخاص فكثيراً ما تتحول المسألة إلى سباق بين الآباء ناهيك من أن يكون الأب فى منزلة الشيخ المتحفز أبداً للفرح بابنه، حين يمن الله بإكمال نصف الدين وكذلك الأحفاد الذين انتظرهم كثيراً، هوأيضاً تسربل بالوقار من البداية فأمست الستين التى لم يمض على تجاوزه لها الا قليلاً، وكأنها الشيخوخة بعينها لابد إذا من الزواج ومن العشيرة بالذات، هوعلى أي حال نشأ وترعرع ولديه أكثر من فتاة أحلام. حقيقة إن المدينة طرحت أسئلة جديدة والحديث مع الرقيعى، والتكبالي والقويرى وعزيز يختلف كل الاختلاف عن الحديث مع من ترك هناك حين كانت الأغنية المفضلة لديهم وهم يتحدثون.

زعمكش نكتب تسكره توصلها

لكن نخمم من بيقرا هلها

لقد انتشرت القراءة، ولم تعد الحياة هى الحياة، مع أن «بورحيل» قد حسم المسألة عندما افترق عن تلك التى اقترن بها في الوسط الجامعى، وعاد إلى القبيلة حفاظا على واقعه واعترفا به، فليكن هوالقدوة، وهوعلى أي حال جدير بذلك ليس فقط لأنه سليل ذلك المجاهد، وإنما لأنه ولج باب الثقافة الوطنية وسلك طريق التقدم، ونبذ بالتالى كل مايدعوإلى الانفصال عن الواقع وعن حركة الجماهير، فلا خير فى ثقافة تدعوإلى التعالى والى الانعزال عن القاعدة الشعبية الفاعلة.

وإذا كانت المرأة العاملة تستطيع أن تقود أبناءها فى حالة التعرض لأي مكروه يتصل بالحرية أوالموقف السياسى، فإن المنحدرة من الوسط لن تستشعر الغربة حين تضطر للعودة إلى هناك، ولن يشعروا بغربتها حين تحل بينهم لهذا السبب أوذاك، وليس في المدينة مايفرض التمسك على النحوالذى يضحى من أجله بالاعتبارات الأسرية، وثمة فى النهاية ارتباط غير منكور وميل يعرفه الجميع والاصل فى النهاية أن يتم الزواج.

لم تكن ثمة مشكلة من الناحية المادية، فكل المطالب أمنت منذ زمن، وهناك أشياء ثمينة ورثت من البداية وشرع عند الوصول إلى القرار بالتنفيذ.

خشي بعض الصحب أن يكون الحضور محدودا بالنظر إلى الانقطاع الذى حصل فى السنوات الأخيرة عن المنطقة، والتغيب عن بعض الأقران، إذ إن البعض ينظر إلى هذه الأمور بمنظار المبادلة ومن لا يحضر مناسبات الآخرين قد لا يحضرونه أيضا لكن الذى حدث أن الجميع تحركوا حركة رجل واحد حتى إن أحدا منهم لم يتغيب، منذ أول يوم من أيام الفرح تقتضى التقاليد أن يتم العقد عقب ختم القرآن صباح الجمعة والثلاثاء فعدد أيام الفرح ثلاثة والزفاف يكون مساء الخميس أوالأحد وقد اقتضى الوضع أن تكون البداية بالجمعة ليحضر أكبر عدد من الفلاحين فالشيخ يقيم لهؤلاء وزنا كبيرا وهم ينظرون إليه نظرة خاصة لم يُستثن أحد من الدعوة، ولم يتأخر أحد عن

الحضور، كل له مبرره الذى حفزه إلى ذلك وزيادة للاهتمام أيضاً.

تبدأ المراسم عادة عقب العقد مباشرة، وهومقصور على الكبار، ليأتي بعد ذلك دور الشباب، ومن التقاليد المتبعة طلاء جدران البيت بالأبيض والمصطلح الشائع فى هذه الحالة (التاريس) لأن الجير الذى يتم الطلاء به يسمى بهذه التسمية، وثمة طقوس لابد أن تتبع، فمع الدهن الذى يتم بطريقة بدائية للغاية، ينطق الرجال بكلمات ملحنة ذات معان دالة تتبعها دقات على الطبل، فى حين تطلق القريبات من النسوة مايتيسر من الزغاريد، فعند هذه الساعات لا يحضر سوى الخلص من الذكور والإناث ويحدث أحيانا أن تطلق بعض الأعيرة النارية، لمن لايزال يحتفظ بشيء من الاطلاقات أويتمكن من الشراء، فقد أصبح الرصاص نادراً للغاية، بعد مضي عشرين سنة من خروج الطليان، بل إن بعض الرصاص لم يعد صالحا، فيحدث أن يشترى وتكتشف عدم صلاحيته.

لقد داهم المرض على دافه قبل بداية الفرح بأيام قليلة، فكان لابد وهوالصديق الأول من ان ينوب عنه أخوه محمد، ذلك الفنى الماهر فى عديد الأشياء الفنية، فكانت مبادرته بطلب إحضار البندقية، وما هى الا دقائق حتى كانت الطلقات تشق عنان السماء فقد أمن دافه الرصاص، وظل صامداً أمام غائلات الزمن وفقدان الحاجة من دون أن يبيع رصاصة واحدة، إنه يدرك

عمق العلاقة وهوشديد الحرص على صونها وتنميتها عبر الزمن، لقد كانت مفاجأة لعديد من الحاضرين، لكنها لم تكن كذلك لكل من يعرف معدن الأسرة ومواقف عميدها سيدى عبدالحفيظ الذى كان مثلا فى شدة الحرص على الأجيال الجديدة لقد كان دافعه من القلة التى أفلحت فى النجاة من مخاطر مخلفات العدومنذ فجر التوجه إليها عقب الحرب مباشرة، وهوالآن يخوض تجربة التصنيع الحديدى بإمكانيات أفلح فى تحقيقها بواسطة اجتهاداته الشخصية فى المقام الأول لقد فضل عدم الشغل فى الإدارة الرسمية، والاعتماد على الجهد الشخصى ،إنه يتميز بقدرة عجيبة وذكاء لافت للنظر، لم يتلق أي تعليم ولم يدخل مدرسة الصنائع كغيره، ولكنه يلتقط كل شيء يراه للمرة الأولى منذ عمله الأول مع الفنيين الطليان، ليخوض بعد ذلك تجربة الفك والتركيب فى عديد من القطع التى بقيت متروكة لفترات طويلة، ذلك أنه لم يهجر البلدة شأن أقرانه إذ لم يخرج إلا لماما، كان مبرزا فى لعبة الصراع، وقد انتصر لمرات عديدة وكانت الوالدة (وعبيه) دائما فى انتظاره حين يؤتى به محمولا على الأعناق فإذا ماحدث مرة وانتصر غيره وفكر الخصوم أن يعبروا من أمام البيت كان ردها الحاسم بإمطار أولئك الاستفزازيين بوابل من الحجارة، مما جعل الكثيرين يحسبون لذلك حسابه ويصرون على عدم السماح للمجموعة بأن تمر أمام البيت، توقّعاً لهذا الرد الذى لايمكن

تفاديه ولا تحديد مسؤوليته.

بدأ العربى متماسكا أمام مرض الوالد، الذى اضطر عبدالهادى للسفر به إلى بريطانيا وهوالمرض الذى تمثل فى ضعف الذاكرة، وهى حالة سبق أن تنبأ بها الطبيب (فليتش) حينما كان يعالجه من مرض الصرع المخيف والشلل النصفى المؤقت، كان رأي الطبيب أن الصرع سينتهى والشلل المؤقت سينقطع لكن الذاكرة ستتأثر، لقد فطن الرجل إلى ذلك التطور من البداية، كان يقول لمحدثيه بصدد أمور كثيرة :

لست بعلى الأول.

لقد ظن الكثيرون أن الأمر شبه وهم ولكن التجربة مالبثت أن أكدت صحة ما انتهى اليه الرجل، ان البعض لا يستبعد أن يكون ماحل بالرجل هونتاج الاضطهاد الإدارى الذى مافتىء يواجهه منذ انتقال تبعية المنطقة إلى الجنوب وقد اضطلع العربى بكل الواجبات المنتظرة.

أظهر ابن حمد، حماسا لا نظير له وهوينفخ ذلك «المزود»، باثا كل ألحانة الشجية مشيرا إلى كلمات يحفظها معظم الحاضرين عن ظهر قلب، ويأخذون فى ترديدها بشكل جميل وأخاذ، لقد استدعى كما يلاحظ كل ذلك الرصيد الهائل من العلاقات التى تعود إلى السنوات الأولى من عودته من موطن أخواله (بنى وليد) حين سكنوا بالزقاق على بعد أمتار من بيت الجدة فضلا عن تآزره مع العربى أقرب الناس إلى الوالد الذى

يدعوه كل الأطفال (بالجد أحمد) لقد كان فى أفراح كثيرة سريع الغضب والخروج قبل أن يتم الفرح، لكنه فى هذه المناسبة ظل حتى النهاية أول من يحضر وآخر من يخرج بالرغم من أن الفصل منتصف الخريف، وتقتضى الفلاحة أن يتفقد النخل الذى غرسه فى أماكن كثيرة. الأسطى جداد، كدأبه فى إظهار الاهتمام بفرح من يحب من الناس، اعاد كبس (الدربوكة) فمشيخة القادرية والعروسية تفرضان ذلك وأكثر، وهوماقام به وهويقود جلسة (النخيخة) ويستدعي أغانى لم تسمع منه لسنوات طويلة.

ذلك ما أسر به (جمعة) للسلطان وهويهمس فى أذنه (جداد مصفى) إن جمعة يقول ذلك لأنه يعامل الجميع معاملة واحدة فهوفنان بطبيعته، وهويغشى الفرح رغبة فى الفن قبل أي شيء آخر. له أصدقاء يهمونه بالطبع، لكنه حين لا يكون الأمر كذلك فإن معاملته لاتتصف بالمزاج، إنه فنان شديد الرهافة. من انبداية اظهر أبوبكر حماسا لافتا للنظر، متجاوزا فارق السن الذى يفصله عن الحاضرين، كان باعثه القوى هوالجيرة وما تمليه من واجب المجاملة وقد سر الجميع بحضوره، ورأوا أنه جميل ومؤثر. طلبوا منه أن يغنى ما كان قد غنى فى سنوات الصبا، حين كان شابا ملء السمع والبصر، قبل أن تموت تلك التى ولع بها وهوفى مطلع العمر، تلك التى لحقت بالحاج حسين الذى ذهب ضحية الألغام فى مطلع الاحتلال البريطانى، حين غنى

أبوبكر اغنيته الشهيرة :

بيضه كيف رويس السكر

محجوبة والباب امسكر.

غير أن السلطان كان يعلم أن لأبي بكر أغنية أخرى أكثر حداثة وأكثر تفصيلا تناول فيها حبا معاصرا لم يكتب له أن يتم ولكنه منقوش في الذاكرة، ومعروف لدى الجميع وهكذا تم الالحاح على الرجل ليغنى أغنيته، وليتذكر بطبيعة الحال تلك القصة التى جرت حوادثها بالمزارع، حين لا يتعذر اللقاء بين الأحبة، حتى ولولم يستكمل الفرح بالزواج فعلاقات الانتاج تقتضى هذه الكيفية فهى بطبيعتها لا تقبل بالعزلة وتفرض دائما شروطها فى اللقاء لهذا السبب أوذاك لقد بنى الأوائل بيتهم فوق التلة التى يدعونها (الرأس) ويغدومن أسهل الأشياء أن يشاهد الناظر الفتاة وهى تدخل أوتخرج ضمن الداخلين والخارجين، فكيف إذا كان فى الأمر مشروع رغبة من الرغبات كيف إذا كان إدخال الكلب أوإخراجه وهوالذى اختير له من الأسماء (فرعاس) !؟ كيف إذا كانت الحياة لاتقبل التوقف!؟ إنها قصة طويلة وممتعة التى تحدثت عنها أغنية أبوبكر الجميلة وظلت محفوظة عند الجميع فى ذلك المجتمع الزراعى القائم على البساطة والتفتح وكل ما فيهما من طعم لذيذ انعش الرجل وهوينشط الحاضرين :

(ناداى من حوش الراس

اللى مسمى كلبه فرعاس

قصة كاملة تسردها الكلمات تبدأ من الوصف الذى يشمل المشية والنظرة والابتسامة وجميع الأعضاء ليصل بعد ذلك إلى لقاءات كثيرة حصلت أصر على تنزيهها من أي خطأ يخدش الحياء أويمس الشرف لتوها كانت قد غادرت الحي، عندما بنى بها البيت أحد الذين أمكنهم تأمين الحياة، قبل أن يتحصل أبوبكر على عمل بمصلحة الأرصاد، ويهجر عوالم الفلاحة من باب الارتزاق يمارسها فقط من باب عدم التفريط فى النخل فمن لا مرتب له أومتجر لا يمكنه أن يعيش من الفلاحه، لكن أمثاله من الذين لم يرثوا الملك وإنما غرسوه بأيديهم لا يتركونه أبدا إن هذا الحب جزء من الماضى ولكنه يحيا فى مثل هذه الجلسات، وهوأيضا يقتنصها من باب إنعاش الذاكرة وطرد لحظات اليأس القاتلة.

تساءل وهويستمع إلى (مازن) يغنى عن الحب الذى يكون جميلا حين يأتى فى الصواب ومع ذات الأسنان البيض التى يعتزم الزواج بها حال حصوله على دبلوم المعلمين الذى أدى امتحان دوره الثانى منذ أيام، عندما اشترى زجاجة العطر التى سيقدمها هدية، تساءل هل يدرك أن ماينتظره من الأخبار لن يكون سارا، لأن الأهل غير مستعدين للانتظار والوالد هوالآخر لايفكر فى هذه المسألة، فأين هوالصواب الذى تتحدث عنه الأغنية ؟ ورد على التساؤل، المهم ألا تكون بديلة، وماعدا ذلك

لايهم كثيرا.

لكن الأغنية التى ظهر بها جمعة كانت اشد تأثيرا ولفتا للنظر، وتعبيرا عن التجربة التى يعيشها الشاعر :

نهيت خاطرى عن جميع العوايب
نبى نظل تايب، شوى ريت مولى العيون الرغايب
نهيت خاطرى عن جميع المعاصى
ولا نيش ناسى
وين نشبح الزين بيخف باسى
ولا نتركه لاويات العكاسى
لوكان شايب
ورا خالتى ما يقولوش عايب

جمح الخيال بعيدا وهم يرفعون أصواتهم ويوالون حماسهم مصفقين وأصوات النساء ترتفع بالزغاريد، حتى صرخ فيه أحدهم من بعيد.

- وينك ياسلطان.

أعاد النظر، مستشعرا الخجل،محاولاً أن يخفيه بمشروع ابتسامة فليس الآن وقت التفكير فى النص الذى ألقى أمامه، ليس وقت المعايشة والتساؤل، فيما إذا كان هذا النص من إبداع الحاج خليفة أوقبله بقليل، لكنه على كل حال يندرج فى عوالم القلق الذى عاشه أمثال الحاج خليفة من الذين أقلقهم تأخر التوبة والميل نحوالغواية وحب الحياة، إنه العالم الذى عبر عنه

بقوة وإدراك وتبصر وعايشه بعمق ومعاناة الحاج خليفة، منذ أن أسس له الشيخ الشنقيطي بكلماته الشهيرة :

سكب سال دمع الميامي حذايف

وعقلي مرايف

أنا الليل ما نرقده من الزنايف

ذلك الشاعر الذى كان أكثر صدقا وأقوم قيلاً، كيفما كان الأمر، فإن اللافت للنظر والداعي للتأمل والتفكير، هوقوة الصراع الذى عبر عنه النص، هوتقابل الأفعال وتضادها بين بعضها بعضا. لقد أوشك النهي أن يأخذ طريقه نحواقناع صاحبه عن العوائب مجتمعة، وكاد أن يصل إلى شاطىء الأمان حيث التوبة التى هى أعلى المراتب، وغاية ماتتطلع إليه النفس المؤمنة، لما وعد به التائبون من المغفرة، وحسن الرضا، لكن رؤية العيون الراغبة كانت بالمرصاد، فكانت النظرة التى أفسدت كل ذلك التوجه، لما تفضى إليه النظرة من إثارة الشهوة وما ينتج عنها من تخل عن النية ونكوص عن العمل، إنه الذى عبر عنه المقطع الثانى الذى حدد العوائب فى معنى أوضح ألا وهى (المعاصى) لولا إطلالة الزين وما ينتج عن الجمال المطلق الذى يتميز به المحبوب فيخف البأس الذى هوالمرض أحيانا والرشد والعقل أحيانا أخرى، ليصل الأمر إلى التصميم على المضى فى الحب ولوشاب الرأس واحدودب الظهر وضعف النظر فلا عيب فى الثبات على ذلك الحب، إذا هوترك الحبيب. جميع الكلمات

تعمل على توكيد هذه الحقيقة على ترسيخ فضيلة التمسك بالحب والإمعان مهما كان الثمن وأيا كان الموقع الذى تطؤه قدم الحبيب، ان كل الأمور تتداخل وكلماتها هي بذات القدر الذى يتماهى فيه الحبيب، جمال الخصال، جمال التقاطيع، محاسن فى محاسن، مفاتن فى مفاتن ليصبح الانحياز والإصرار ليس منه بد أووجود لكنه الجزاء الأوفى لما اتصف به المحبوب من الشمائل.

لقد أفلح النص فى السيطرة مرة أخرى، فرض الاستغراق فى التفكير والتدبر والسفر خارج الحاضرين لكن الصوت ما لبث أن ارتفع.

- وينك ياسلطان.

الفرح وفقا للتقاليد يقام نهارا بمنزل الرجل (العريس) فيما يكون نصيب (العروس) ليلا على أن الجميع يذهبون راجلين ينشدون أغانيهم مستعينين بالطبل والمزود (الزكرة) معظم الكلمات مكررة سواء وهم يقدمون التهنئة فى اليوم الأول أويحملون الكسوة فى اليوم الذى يليه، أويرافقون عروسهم فى اليوم الأخير لتحل ببيت الزوجية، الكلمات تخص الجميع ومن حق الجميع، كل عروس سيدة جيلها وكل عريس خيار الناس ورأسهم الأول، وأهله كذلك، التهنئة تقدم من الجميع بمن فيهم النسوة اللاتى يكن فى حكم الأمهات، العريس ومن حوله يتلقون التهنئة فى اليوم الأول وتجرى المجاملة حتى اليوم الأخير.

إن الحجاب قائم، لكن الأمور تترك فى الغالب للشطارة ومن يتعاون ويساعد على النظر فى ذلك اليوم،الفرح يتم مرة واحدة وكل يسعى إلى مشاركة العريس فرحه ويبحث عن المبرر الذى يدفعه إلى مضاعفة المهر، النسوة فى الغالب تحركهن علاقات القرابة، والجيرة والزيارات المتبادلة وربما تقع مداراة الأم حتى وهى فى رمس القبر وقد يحدث أن يجلب اليتم عطف الأباعد فيشاركون فى الفرح مع أنها غير مسبوقة وذلك ما قامت به الخالة التى جاءت أول مرة وربما تكون قد خرجت للمرة الثالثة أوالرابعة منذ زواجها الذى تم منذ سنين طويلة فأنهت بذلك تحفظات قديمة.

وحدها كانت الحاجة عواشة التى عادت من الحج منذ أيام تتقدم للتهنئة وترافق الكسوة وتشارك فى تهنئة أهل العروس، كانت القرابة موجودة والعلاقة أيضا لكن ذلك لم يكن كافيا بالنسبة لها فقد أصرت على تهنئة (سمي المرحوم) هى خمسينية توشك أن تعانق الستين لكنها جاءت مرتدية الحرير وشيئا من الذهب ولم تنس أن تخضب الشعر وتكحل العين التى لم يهزمهما الزمن، عندما كان يتقبل التهنئة فوجىء بها تسحبه وتضمه إليها مرسلة دموعا مدرارة مع كلمات لم تفهم فإذا بالماشطة تشاركها غمغمتها وتضمها إليها :

من آخر الصف كانت هناك كلمات تقال :

كان خطاك اللفت يكاله

تعال تمرغ فى مياله

لم يطل الاستغراب فقد أمكن استرجاع الأمر بسرعة لقد مضى على رحيل العم مايزيد على الثلاثين سنة، لكن جذوة الحب لم تخمد أبدا، قد يكون الاستشهاد من الأمور المساعدة بل والمبررة أيضا فهى لن تبعث الغيرة والغيرة على كل حال لايمكن أن تكون من الأموات، هوفى جميع الاحوال فى عمر أصغر الأبناء، وسن اليأس لا حرج منها والمسألة أولا وأخيراً مسألة قلب لايعرف الموت ولا ينهزم أمام الزمن كانت اللحظة مباغتة للغاية والاحداث متتالية لكن من اعتاد رصد المواقف لايغفل عن أي شيء وبالذات فى مجال الحب، والموقف الآن فى حضرة الحب والشعر دائما هوسيد المواقف ولوسألت واسعفها الرد فلابد أن تقول :

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى
وحنينه أبدا لأول منزل

وحنينها على مايبدوكما تظهر كل المواقف مايزال لذلك المنزل، لذلك الاسم حتى وإن بلت العظام فلم تجد الآن سوى الاسم لتبثه كل هذا الشوق وكل هذه اللهفة، ماذا يمكن للمرء أن يقدم حين يدرك الحقيقة ؟

ليكن مايكون، العروس أيضا لها ذات الاسم فليبعث الحب من جديد، هى صدفة، لكنها خير من ألف ميعاد كما يقول المثل القديم، قبل عشر سنوات لم يكن منتظرا أن تكون قرينة العمر،

وهى تملأ الحياة حركة، كأى طفلة صغيرة كانت دون العاشرة فيما هو تخطى الخامسة عشرة ودخل عامه السادس عشر الذى قال عنه أحمد عبدالمعطى حجازى جميل الشعر وصور بصدده أعمق التجارب كان التطلع إلى عوالم أخرى مع تحرك أشياء كثيرة وتغير أكثر من لون، يؤمُّ الناس، يصوم رمضان، وثمة من يغض النظر عن ذلك يوم القدر وقد يجلس إلى الأهل فى موعد الإفطار وهو ليس معهم، تجارب كثيرة تحدث يقع التصريح بها أحيانا ويطويها الزمن أحيانا أخرى.

- إن الشوق للذين تركوا هناك لم يكن أمرا مفتعلا يعاش من جانب واحد يقابله لا قدر الله تخل من الآخرين وانصراف عما كان يعيشه من استشعار الوحدة نحو عديد الأمور وفى مقدمتها تأمل هذا النص وغيره من النصوص التى دأب على القائها معظم الفنانين فى ليالى العرس ولكنه إحساس متبادل وممارسة مشتركة جسدتها رسائلهم وهداياهم التى حملها القادمون حين حالت الظروف دون الحضور الشخصى عندما تضاعف الدور وازداد الجهد المبذول تجاه قضايا كثيرة أهمها الاقتراع العام لاختيار أعضاء مجلس الولاية الذى فاز فيه نفر من العناصر الوطنية القادرة ذات الارتباط الوثيق بالجماهير العريضة والتمثل الواعى لمشكلاتها، وبالذات (صفر) ذلك الوجه الوطنى المشرق والصوت النقابى المتميز الذى كان - إلى وقت قريب - فى مقدمة العناصر التى تصدت للإنجليزى العتيد (ڤاو)

الذى ضرب أمثلة لا تحصى فى مجال اضطهاد العناصر العمالية والوقوف أمام طموحها، فواجهته بشديد المقاومة حيث كان صفر دائما فى المقدمة، وإذا به الآن يخوض المعركة ويطرح برنامجاً وطنيا طموحا فيدخل بالتالى تجربة جديدة أغفلها كثير من مجايليه فجاء هوالآن وعمل على تبنيها، وغدا يطرحها فى شكل اسئلة ومقترحات ومتابعة ذكية لمشروع الميزانية بما يوفر مبالغ يعاد رصدها لشؤون انتاجية تلائم البرنامج الذى تقدم به، والذى كان فى الحقيقة برنامج القوى الوطنية مجتمعة، ذلك أنه قد تجاوز لأول مرة فكرة النقد التجريدى التى طالما انتهجها نظراؤه وعمد إلى تقديم مقترحات تسهم فى حل المشكلات فيكون الموقف وفقا لهذا التوجه بديلا للإصلاح يستفيد من مرونة السلطة بمشاريع موازية يمكن تمريرها بالعدول عن فكرة الرفض المطلق والأخذ بفكرة التعديل والاصلاح من الداخل، إنها فلسفة تحقيق الممكن التى تستثمر فى اتجاه النفع العام وليس النفع الشخصى الذى طالما سقط فى مستنقعه البعض، حين راهنوا على الرفض السلبى، وفرطوا فى الأسلوب الايجابى على أنهم حين بعد عنهم ظلوا يذكرون مكانه ويفيضون عليه من مشاعرهم واهتمامهم ما أكد أن الشوق الذى يعيشه يقابله شوق مقابل، تجسده الآن أشياء قد تكون بسيطة فى مظهرها ولكنها كبيرة وكبيرة فى معناها ومبناها.

تطل الوجوه كلها أمام الناظرين ، كأنما هى جزء من

العشيرة، لا أحد يغيب، لقد انتجت السنوات التى انسلخت عمقا لا يستهان به، وشكلت حضورا يستحيل القفز عليه أوالتقليل من أهميته، كل له أهليته، كل له ماقدم طوال هذه المسيرة الطويلة التى تحددت أثناءها مسارات وتأكدت مواقف، وأمكن التغلب على مصاعب لا حصر لها، غير أن حضور الشيخ توفيق كان أكبر أثرا وأعظم دلالة، لقد أصر على العودة من سبها برا حتى يمكنه المرور بالمنطقة وتقديم واجب التهنئة للشيخ صديق العمر ورفيق الهجرة المبكرة لمصر عشية الاحتلال الإيطالى عندما احتل الرجل مكانة مرموقة فى الحركة الوطنية التى تصدت لمقاومة المحتلين الفاشيين، فعمل الشيخ توفيق سكرتيرا لإحدى التجمعات، ثم عاد وشكل تجمعا آخر، كان معروفا بسوء الحظ، ما من جماعة حل بها ألا وانقسمت على نفسها، لم يكن ذلك بسبب تصرف الرجل ولا لحرصه على الانقسام ولكنه الحظ السيء الذى يشهد به الاصدقاء قبل الأعداء. كثيرون هم الذين عرفوا الرجل وشهدوا له بجميل الخصال، شجاعة نادرة، قدرة على المناقشة ذكاء وفطنة كرم بما لديه، تواضع غير متكلف حرص على الصديق كلما كان ضعيف الحال أومحدود المكانة، واحدا واحدا تفقدهم، أصر على أن يراهم جميعا، كانت مناسبة لا تقل عن الفرح ذاته بالسبة للجميع ومن باب أولى الشيخ، لقد تبوأ الشيخ توفيق مقعده بمجلس الولاية عندما آل الأمر إلى كل من فاضل بك

والشيخ على اللذين عرفهما منذ أول مجلس وقع حله وكان الشيخ توفيق من ابرز أعضائه، ليبقى بعد ذلك بعيدا عن الأضواء، ولولا أنه قد دخل البلاد قبل اعلان الاستقلال وتحصل على الجنسية لكان قد دفع ثمن مواقفه القديمة، عندما كان عضوا باللجنة الطرابلسية، أوما يشابهها من التجمعات التي عارضت فكرة النظام الملكي، وهوالآن ليس عضوا بالمجلس فقط ولكنه أصبح نائبا للرئيس وفي ذلك مافيه من رد الاعتبار، إذا كانت الاعتبارات تفقد حين لاتوجد المواقع، لقد بادر بتمديد الإجازة إذ إن مشكلة السكن ستطل الآن، ولذلك فهويحتاج إلى مزيد الإقامة لكن وجوه الغائبين ملحة يتمنى المرء أن يلتقيها، أن يتحدث عن أشياء كثيرة، عن مفارقات حصلت.

لم يكن الشيخ وحده الذى مر، فالسيد أيضا أصر على الحضور وعلى زيارة المسجد الذى قام بفرشة كاملا غير منقوص، وكان لابد أن يستقبل بالرغم من أن التقاليد تقتضى أن يبتعد العريس عن والده بعض الوقت لكن الشيخ ينظر إلى ابنه نظرة الأخ وهويريد منه أن يشترك فى الاستقبال، وبقية الأهل يريدون ذلك فلا حرج والحالة هذه من اللقاء وتأدية الواجب المطلوب.

غير أن التهنئة الأكثر شأنا تلك التي بادر بها سيف ذاته، الذى قام بزيارة للمنطقة وأعرب عن رغبته فى التوجه إلى الفرح وتقديم التهنئة، وكان أن دعي ليلا باعتبار مراسم الفرح قد

انتهت، فكانت التهنئة عند اللقاء والهدية المناسبة، ثم التوجه إلى أقرب فرح من الأفراح القريبة، كان واضحا أن المستهدف هوخلق مناخ من الحميمية وتجاوز فترات البرود، وأن العلاقة مع الأهل قديمة للغاية فهى تعود إلى النشأة الأولى، بيد أنها تكدرت لاختلاف وجهات النظر وللتطرف الذى طبع ممارسات بعض الأعمام، لكن الرجل قادر على تجاوز كل شيء وتلافي أي خطأ وأي تقصير، كان الصراع على أشده بين الحكومة الاتحادية وسلطات الولايات وكان الضغط الأقوى موجها إلى الجنوب هناك بطبيعة الحال مصالح دولية تسعى لإضعاف الولايات تمهيداً لإلغائها، وقد أفلحت الحكومة الحالية فى استغلال الموقف والدفع به نحوآفاق أكثر تأثيرا فكانت خطة الدفاع متمثلة فى استقطاب أهم العناصر ومحاولة سحبها كي لا تبقى فى متناول الطرف الآخر.

- كان معروفا بأنه قد فوتح فى رئاسة مكتب التأمين الاجتماعى، وهومن الوظائف التى يرشح لها من مجلس المؤسسة ويصدر القرار مجلس الولاية التنفيذى، ومن المؤكد أن اللقاء كان من بين مستهدفاته أن يبدي رغبته للانتقال ولكنه عف عن ذلك مثلما رفض فى وقت سابق أن يكتب طلبا فى الخصوص، واشترط أن يتم الترشيح من دون أي طلب، ولما كان الشيخ سالم يهمه هذا الموضوع فقد تولى هذه المهمة ولم تفلح اعتراضات مندوب الولاية المكلف بالعمال الرامية إلى ثنى

مجلس الادارة فكان قرار الترشيح، كان واضحا أن الصراع على أشده بين القوتين، ولم يكن في الواقع يجد أي حماس للدخول في هذه اللعبة ومن المؤكد أن المدينة غدت أكثر اغراء ولهذا لم يحرك ساكنا في الخصوص لقد أجرى في ذات الفترة امتحان الترقية إلى الفئة الأولى حيث تمت معادلة المؤهل ثم طبيعة العمل، كان يومئذ يضطلع بالعبء الأكبر في تحرير المحاضر وأعمال اللجان من حيث التقارير بالذات فضلا عن موضوع الأسئلة والاستجوابات وكل مايتصل بشؤون التحرير، بل حتى التفكير بالنسبة للبعض وكان ذلك موضع تقدير من عديد الأعضاء الذين وجدوا في هذا الجهد مايساعدهم على أداء مهمتهم النبيلة، ومحاولاتهم الاصلاحية الرائدة وكان ذلك يتم بمساعدة معظم المثقفين الوطنيين الذين قدروا هذا الجهد ورأوا فيه مساهمة جادة على درب التنوير وتفعيل دور المؤسسات وتوظيفها في العمل الوطني مما كان له أطيب الأثر في المستقبل.

ان الحياة الزوجية في بدايتها تكون عند البعض بسيطة، وقد كانت كذلك كما أن عالمها محدود كل يحاول أن يكتشف عالم الآخر، لكن التجربة مختلفة فالمرأة من حيث هي في الغالب تقل إدراكا عن الرجل وهي في عالم الزوجية لا تمل السؤال، فكل شيء لديها جديد، الملبس، الأكل، الحديث، أما العالم الآخر فمجهول ومقلق تلك هي طبيعة المرحلة وقد كان الرقيعي نصوحا عندما أوصى بضرورة المصارحة بروتين الحياة من البداية

ليصبح كل شيء عاديا فما تزال الغلبة للرجل، وقد تم الأخذ بهذه النصيحة من البداية ولم تحصل أي اشكالات فقد وجد القبول كما هومن حيث ما كان متاحا في الحياة غير ان الزواج يفتح دائما أبوابا جديدة أمام كل من يخوض التجربة ويقع تحت طائلتها، يبدوالأمر عاديا وربما بسيطا حين تكون الأسرة مقيمة مع بعضها البعض وقد كانت المدينة حتى ذلك الوقت خيارا ثانويا فالعودة إلى الأهل أشد إلحاحا وأكثر صوابا. معظم المجايلين مايزالون هناك وكل الذين لديهم شهرة أوتاثير يستبعدون فكرة الزواج من خارج العشيرة ومن يخرج بعوامل الوظيفة مايزال ينظر للأمر بشكل مؤقت فالعودة آتية لا ريب فيها. لقد أمنت الاقامة وفقا للإمكانات المتاحة والمعمول بها، ولم توجد بعد التزامات تذكر، لكن الأمر لم يبق كذلك في الواقع، لمجرد أن نفدت الإجازة وتمديداتها، وتمت العودة الاضطرارية، بدون من صارت قرينة كان هناك إلحاح من البعض على الانتقال للجنوب وفقا للارتباط الاداري للمنطقة وثمة مواقع جديدة وأخرى قديمة شغرت وقد تولى أكثر من طرف إثارة هذه المسألة في لقاءات سابقة ولاحقة وقد توجه أكثر من عنصر إلى هناك، بالرغم من أن آخرين سعوا إلى الانتقال للمدينة لم تكن ثمة حاجة للتفكير في سر ذلك الإلحاح الذى يبذله أكثر من صديق فلا شك ان المجال واسع كما أن ما امتلكه من امكانات صارت في مقدمة مايشجع على الدفع في هذا

الاتجاه، كان هناك سباق بين الولاية والاتحاد على الاستقطاب، لكن تحرك الولاية كان أكثر قوة فالاتحاد له أكثر من جبهة، وقد لاتكون ثمة نصيحة جادة في الخصوص، إن السر بدون شك يعود إلى الفاعلية والى ذلك الدور الذى كان معروفا وموجودا قبل سنوات لكن الامر ليس كذلك فهوفي واقع الأمر اعتاد الصراحة، وإن كان ذلك فيما يتصل به شخصيا غير أن الخشية تكون في أن يتبادر إلى الاذهان أن الهدف هوالتنصل من المسؤولية في ذات السياق ماتزال ثمة رغبة في أن يكون الدور مكرسا لإفادة عناصر أخرى وليس فقط لمن حامت حولهم شبهة النشاط المعتاد إذ سيتحول الأمر إلى نوع من المساومة إذا لم يشمل الأمر الآخرين.

يمكن القول بأن ماتحقق من نضج في التفكير، وسعة في الإدراك أصبح ينعكس في الممارسة اليومية وفي الموقف تجاه عديد العناصر من الذين كانوا إلى فترة قريبة يواجهون برفض كامل يصل إلى حد القطيعة لقاء بعض المواقف التي اتخذوها بصدد المنطقة وكان هذا الموقف مسرفا في التطرف وفي غير الصالح العام إذ كلما حصلت القطيعة وشتت الشمل ضعفت الفاعلية، هذا على صعيد العصبية القريبة فماذا عن المسألة الأكبر مسألة الوطن وحرية الرأي والتوجه إذ كيف يجوز لمن يدعي الثقافة والنشاط الفكرى أن يمارس لعبة القطيعة مع من يختلف معهم في الرأى وكيف يستطيع أن يدافع عن هذا

السلوك أمام الفئات المستنيرة ؟

من هذا المنطلق، تم تجاوز كل الخلافات وبدأت العلاقة تتطور مع جميع الفرقاء فقد وجدت الأرضية التى تسمح بالحوار والحديث عن الخلاف بشيء من الموضوعية والاحترام المتبادل واستشعار المسؤولية وفى هذا الصدد تطورت العلاقة مع الشيخ سالم الذى وقع الالتقاء به على درب المواقف المتقاربة والتسليم بجدوى كل المواقف وبهذا الفهم أيضا لم يقع التوقف أمام الموقف غير الودى الذى أبداه المجلس التنفيذى للولاية حين عرض موضوع رئاسة مكتب التأمين الاجتماعي فلقد كان واضحا أن الذين رفعوا أصواتهم بالمعارضة لا يملكون خيارهم وأنهم كانوا ينطقون باسم غيرهم ومادام الأمر لم يحسم مع رئيسهم فلا حرج من مواقفهم ومن لديه مصلحة فلابد أن يسعى اليها ولا مصلحة بدون سعى، ذلك هوالموقف الذى تم الانتهاء إليه بصدد شؤون كثيرة.

وقد ترسخ هذا الفهم أوتبلور بالأصح إزاء ما كان يلوح من قلق يطال الواقع العربى عامة والمحلى خاصة لقد تأكد أن الانفصال الذى اعتقد البعض أن فترته محدودة قد حصل ليبقى وأن استراتيجيته ليست بسيطة وإنما محمية من كل النواحي، وأن البديل الذى لاح بتفجير الثورة اليمنية بدعم مصرى لن يمر بسهولة مادام سيف الاسلام البدر على قيد الحياة وأعلن نفسه خلفا لوالده، كان هناك حديث عن حركة مماثلة يمكن أن تصدر

من الخارج ومن الضرورى أن يرحب بها وتدعم فى حين كان ثمة رأى آخر يصر على رفض أى تدخل خارجى، مهما كانت الخلفية السياسية عربية قومية أوماركسية لينينيه، أوإسلامية قطبية، إنه الرأى الذى يفرق بين تبنى الأفكار من أجل تغيير الواقع أوتطويره وبين تحويل الأفكار إلى سلاسل تربط المواطن بما وراء الحدود، بل والذى يذهب إلى أكثر من ذلك فينفذ إلى الموقف المعلن تجاه الجزائر، حيث يصل الأمر إلى شحن السلاح من مطار الملاحة، كما تقول بعض الروايات، لقد كان الأمر مثار حديث طويل وتفكير عميق يشمل كل الساحات.

- فرغت شركات النفط وبعد سنوات طويلة من التنقيب الواسع والحفر المستمر من تجهيز الموانىء التى سلمت لها فى وقت سابق، وشرعت - بناء على ذلك - فى تصدير النفط بعد أن اعتمدته الأسواق العالمية، وحددت أسعاره ضمن نوعية المادة ودرجة الكثافة، بيد أن الإعلان عن التصدير بشكل رسمى، رؤي تأجيله إلى يوم الاحتفال بذكرى الاستقلال وهوالذى يبلغ فى حساب الزمن سنته العاشرة، مما استوجب أن يكون مقترنا ببعض الأمور، ومن بينها الايذان بتصدير النفط باعتباره ثروة لا مجال للتشكيك فى أهميتها وما ينتظر البلاد في ضوء تصديره من تطور، مهما كان مستوى السياسات والواقع أن ملامح التغير سبق أن أخذت فى الظهور منذ سنوات عديدة تمثلت فى نوعية السيارات التى شرع البعض فى امتطائها والمساكن التى

بدأ تشـيـيـدها وأمـاكن اللهـوالتى انتـشـرت وأنواع كـثـيـرة من الخدمات والمظاهر، ليس أقلها شركات المساهمـة التى أصبحت بمثابة البـدعة «الموضـة» والتسهيلات المصـرفية التى غدت متاحة أمـام كل من لديه عـلاقـة من الـعـلاقـات بأي طرف من أطراف النفـوذ، هذا فـضـلا عن النشـاط الاسـتـهـلاكى الذى هيـأ طرقـا ميسرة للكسب والالتصاق بالعجلة الدائرة، حتى الذين التحقوا بالسلك الدبلوماسى من المسؤولين السابقين شرعوا في العودة والمضى في تأسيس منظومة من المؤسسات الاقتصادية لتسويق السلع المطلوبة والمرافق الضـرورية التى صـارت قـبلة الكثـرة وموضع اهتمامها وطلبها المستمر وقد سادت في هذه الأثناء أوبدت بالأصح فـترة يمكن وصـفـهـا بأنها نسـبـيـا فـرضـهـا على مـايبـدوذلك الصـراع الذى طبـع ملامح كـثـيرة من الحـيـاة حين عرفت الحيـاة السيـاسيـة ذلك المقتل الغامض لأحد الضبـاط من ذوى السـمـعـة الطيـبـة وفى ظروف غـامضـة للغـاية، لم يتـرتب عليـها أي اجراء تحفظى إزاء أي ضابط من الضباط المعروفين ولم تحدث كـذلك حركـة من حركات الاعـتـقـال التى اشتُمّ منها أن وراء الموت شيء من النشـاط الهدام حسب المصطلح الذى يسود كل نظام ممسك بالأمن العـام، فكان لذلك الحادث أثره الكبيـر على نفوس الذين يرصدون الأحداث لما جسده من إمكان الموت بالمجان ومن دون أن تحـصـل أي مـتـابعـة تذكـر. إلا أنه من جـهـة أخرى صار يشـيـر إلى مـايمور في العمق من صـراع غيـر مـرئى

ولكنه موجود بكل ما فى الكلمة من معنى وخير تعبير عن ذلك ودليل عليه ذلك الموت الغامض، والذى لم يتم عبر القضاء والقدر وإنما جاء بفعل فاعل حيث كان الموت قتلا بالرصاص، كان الشعور العام أن الموت قد تم من خلال المؤسسة ذاتها، ولكن ليس من قبيل التصفية العادية التي يحاول الترويج لها بعض السذج.

- ان أهم الأمور وأخطرها تتم مشاركة بين الحكومة المركزية والتى تسمى الاتحادية والولايات الثلاث، طرابلس، برقة، فزان، وفقاً لما ينص عليه الدستور وما يدعى حسب المصطلح بالاختصاصات المشتركة التى حددتها المادة الخامسة والثلاثون منه، حين جعلت أمور الاقتصاد والزراعة والأمن والتعليم والمواصلات والنقل والمطبوعات والنشر وغيرها تدخل ضمن الاختصاص المشترك، بحيث يكون لهذه المرافق وزير اتحادى وثلاثة من الإقليميين أطلق عليهم اسم ناظر، ولكن دون أن يكون للاقليمى علاقة بالاتحادى فهذا الأخير يشرف على الأمور الاتحادية، فى حين يكون المختص بالولاية مهيمناً على أمور الولاية ومرتبطا بمجلسها وواليها دون غيره، لم يكن هناك والحالة هذه أى تنسيق، فكل ولاية مستقلة فى الداخل استقلالا تاماً تصل فى أحيان كثيرة إلى درجة التناقض مع الغير.

وفجأة وفى أجواء الاحتفالات الخاصة بالذكرى العاشرة للاستقلال قامت الحكومة المركزية بمفاجأة غريبة للغاية وذلك

باستصدار مرسوم بقانون يقضي بتعديل المادة الخامسة والثلاثين من الدستور، المتعلقة بالاختصاصات المشتركة بما ينقل الاختصاص بالكامل للحكومة الاتحادية، ويجرد الولايات من جميع الصلاحيات، كان الإجراء ماكراً بكل ما فى الكلمة من معنى، فهولم يلغ الولايات بحيث يقتضى الأمر دعوة المجالس التشريعية للانعقاد ولكنه نقل الاختصاص المشترك دون أي شيء آخر، بحيث جعلها مجرد إطار شكلى يمكن إلغاؤه فى أي مرحلة قادمة، وهكذا تم وبدرجة آلية للغاية تغيير الولاة ورؤساء المجالس التنفيذية بما يتفق والمرحلة المنتظرة وغدت السلطة الاتحادية صاحبة الهيمنة الكاملة فى مختلف الشؤون بدءا من النفط والأمن ووصولا إلى التربية والتعليم وعرف الناس لأول مرة سلطة واحدة تمسك بجميع أمور البلاد.

ولما كانت طرابلس تختلف عن غيرها من حيث السكان والاقتصاد والفضاء السياسى فقد كانت الأسئلة المثارة فيها أكثر جوهرية وأدعى إلى تناول الأزمة فى عمقها، فلم يتوقف الحديث أمام الاختصاصات المشتركة وإنما تناول الصلاحيات التشريعية بالأساس، من حيث التوقيع على المراسيم وضرورة أن تكون مشمولة بتوقيعات رئيس الوزراء والوزراء المختصين فهى المعضلة التى رافقت الكيان الوطنى منذ سنواته الأولى، وهى تجربة استخلصت من التجربة المصرية قبل ثورة يوليو، حين كان الوفد يناضل من أجل الحد من تدخل السراي أي القصر فى

شؤون السياسة، من خلال حكومات الأقلية، وبالرغم من أن الوفد قد استلم السلطة فى مرحلة من المراحل بواسطة الإنجليز، إلا أن الثابت بأن الموقف من السراي كان دوماً متمثلاً فى سياسة الوفد قبل غيره وكذلك الأمر بالنسبة لليبيا، حيث كان أكثر الساسة رفضاً من الشارع أشدهم معارضة لتدخل القصر وأصلبهم موقفاً فى مسألة الاختصاصات وفى رفض هيمنة رجال الحاشية وحرصهم على تمكين أصدقائهم من تقلد بعض المواقع على نحوما فعل فاضل بك فى مطلع الخمسينيات والشيخ ابوبكر فى الستينيات وهكذا جاء الموقف مرة أخرى أكثر جرأة إزاء الوضع الجديد إذ نظر إلى التعديلات الدستورية وكأنها لا تستهدف سوى المزيد من التدخل فى شؤون الولاية التى تمثل من الناحية الفعلية الثقل السكانى والمركز الاقتصادى الذى يستطيع أن يعيش بدون نفط، وإذ بها تتحول إلى وضع هامشى للغاية، ومن هنا فإن الحديث عن الوحدة الذى وقع أيضا التنويه به يومئذ لم يجد أي صدى عند الناس ولكنه ظل من الأمور العادية التى لاتخرج من (المرابيع) وقد ذهب الأمر إلى ما هوأكثر من ذلك إلى ولاية عهد العرش ذاتها، والتى كانت حسب هذا الطرح فاقدة للسند الدستورى. وكان أبرز الأسماء التى أثارت هذه المسألة الشيخ توفيق نائب رئيس مجلس الولاية وصاحب المكانة الشعبية الحسنة والدراية التاريخية الواسعة الذى كان يغشى عديد المجالس وتتحلق حوله مجموعة فى شارع

الولدى (قهوة عبدالله) فقد كان كثيراً مايطعن في شرعية ولاية العهد، وحجته في ذلك أن الدستور حصر ولاية العهد في أصلاب الملك وليس ابناء أخيه أوعمومته من البداية، من الجمعية الوطنية ذاتها، ورغم أن الجمعية في حد ذاتها لم يجر اختيارها بواسطة الاقتراع وانما شكلت تشكيلاً فوقياً إلا أنها على كل حال حسمت هذه المسألة حسماً نهائياً، ولم تضع لها أي شكل من أشكال خط الرجعة، وبالتالى فإن التعديل الذى أدخله مجلس النواب وبالأحرى الإجراء الذى وقع تمريره بعد الاستقلال بأربع سنوات يعتبر باطلاً من الأساس، ولابد لإقراره من الرجوع إلى الشعب مباشرة، وهوما لم يتم في أي يوم من الأيام، ويبدوأن الكلام يجد آذاناً صاغية والاحساس بمبدأ المخالفة وانعدام الشرعية يقوى بين الفترة والأخرى فصار بالتالى ينعكس على بعض الممارسات كما لوحظ أكثر من مرة.

13

ترتب على التعديلات الدستورية المتصلة بالاختصاصات المشتركة تغيير شمل جميع الولايات، بحيث لم يبق من الولاة الثلاثة سوى واحد هووالى طرابلس الذى شاءت الظروف أن يكون أول من تقلد هذا الموقع في بداية الاستقلال ويوشك أن يكون الأخير الآن. ويبدوأنه قد فضل البقاء لإنقاذ ما يمكن انقاذه، أوأن أصحاب القرار فضلوا الإبقاء عليه لحسابات أخرى على أن مايجمع عليه الجميع هوأن الأمر يتصل بشخص السيد فاضل، إذ لم يكن لديه مايدعوه للتشبث فهومتقدم في السن وليس له خلف ولا عشيرة تذكر وإن يكن لديه من الأصدقاء من يقف إلى جانبهم ويحرص على صونهم بذات القدر الذى يصون فيه الأب أبناءه، أوالمقربين من عشيرته، ولاشك أنه لهذا السبب قد أصر على ما يمكن وصفه بتوجيه العربة إلى الخلف، وذلك عندما تبنى فكرة اختيار الشيخ علي لرئاسة المجلس، بعد أن خرج من رئاسة المجلس التنفيذى، وكان ذلك يعنى ببساطة شديدة عدم الانصياع للإرادة التى اقتضت خروجه من ذلك المكان، لقد حاولت بعض الأطراف أن تقف ضد رغبة الوالى ولكنها فشلت، وكان أن اتجهت إلى التصرف بالمقعد الثانى الذى كان يشغله الشيخ توفيق. إن البديل فى حقيقة الأمر أكثر

حيوية وأقدر على مواصلة الرسالة، إلا أنه كان فى بداية الطريق ولا يشكل الموقع لديه إضافة تذكر فى حين أن إبعاد الشيخ توفيق بدا وكأنه دعم للتوجه الرامى إلى إبعاده من دائرة الضوء ، وهوموقف قديم تبنته الجهات الحكومية الخاصة، كان آخرها بدون شك، مايقوله الآن بصدد ولاية العهد. إن من الممكن القول بأن ماجرى بصدد هذه الجزئية يعتبر من الأمور التى أسهمت فى تصدع صفّ العناصر ذات التوجه اليسارى، إذ لم تكن فكرة مزاحمة الشيخ توفيق موضع اتفاق كامل، ذلك أن القائلين بذلك يرون أن المقعد الذى فاز به صفر لايشكل له أى إضافة، بقدر ما سيحد من تحركه ويفرض عليه بالضرورة شيئا من الاعتدال، فى حين أن المرحلة تحتاج إلى حركته ووعيه وإلى مايمكن القيام به من المواقف التجميعية، وإن الإبقاء على الشيخ توفيق يعتبر نوعا من الوفاء للعناصر الصلبة التى ماتزال فى حاجة إلى مايرفع من معنوياتها وما يدفعها نحومزيد المواقف الجريئة، إذ يكفى أن التحفظ عليها أوالاعتراض بالأصح مايزال يأتى من القصر والسائرين فى ركبه، غير أن الانتباه إلى هذه المفارقة لم يكن ماثلا بما فيه الكفاية، مما أتاح الفرصة أمام دعاة التفرقة ليدقوا مساميرهم كما يشاؤون، لمجرد أن خرج هذا الموضوع للنقاش فى بعض اللقاءات المسائية لدرجة أن استنكف البعض أن تثار مثل هذه الأمور من الأساس.

إن الطريقة التى تدار بها الأمور تقوم فى أحيان كثيرة على

المفارقة وعدم الاستقرار، بل التنقل من النقيض إلى النقيض، إذ لم تكد التعديلات الدستورية تبلغ مداها فى التنفيذ وتصدر مجموعة من القرارات اللاحقة، حتى أقصيت الوزارة التى أنجزت هذه المهمة الكبيرة مما أشار إلى أن هذه التعديلات لم تكن موضع إجماع من الأطراف المؤثرة فى صنع القرار، بل لعل من الممكن القول إنها قد تمت استجابة لضغوط أكبر، فكان بالتالى تغيير الوزارة، مما أوحى بأن المهمة الدستورية جاءت منافية للإرادة التى أصدرتها وإلا فما الداعى لتغيير الوزارة وأمامها كما هومعروف أكثر من مهمة تحتاج إلى الإنجاز.

لقد اسندت رئاسة الوزارة إلى مندوب ليبيا بالأمم المتحدة، والذى تمت دعوته كما ذكر فى حينه ـ عن غير طريق الخارجية، كما تقتضى التقاليد بالنسبة لاستدعاء العاملين فى السلك الدبلوماسى ممن لم يشغلوا منصب رئيس الوزارة فى وقت سابق والذين لايرأسهم وزير الخارجية كما هوالعرف المتبع.

وقد مكث ذلك المندوب أكثر من شهر ونصف بعد أن تم استقباله، وكاد أن يرجع من حيث أتى، إلا أنه فى آخر لحظة كلف بتشكيل الحكومة، فجاءت تشكيلتها عجيبة إلى حد كبير حيث أهملت التركيبة الاجتماعية المتصفة بالقبلية كما خلت من العناصر المؤهلة تأهيلا عاليا، كما هوالحال بالنسبة لرئيسها، لقد كان المثقف الوحيد هوالأستاذ عبداللطيف الذى شغل قبل هذه المهمة وظيفة «السكرتير» العام للمجلس

التنفيذى، وعرف بحضوره الثقافى عبر البرامج الإذاعية والأحاديث المختلفة، فى حين كان الدافع لاختيار وزير الخزانة - كما اشاع الناس - هو المصاهرة، بالرغم من أن الرجل كان من المعروفين فى عالم المصارف طوال عيشه فى المهجر.

لقد كان القصور إزاء فهم الواقع واضحا فى تلك التشكيلة كما أن الانسياق إلى بعض المعارك الجانبية من الأمور التى بدت جلية، والانصياع لردود الأفعال كان واضحا هو الآخر. إن الرجل فى الحقيقة - دون أي تجنٍّ - لم يستطع استيعاب الواقع ولم يتفطن إلى المصاعب التى من الضرورى أن تواجه حكومته، كعنصر مؤهل تأهيلا عاليا، وغير ملم بطبيعة العلاقات السائدة، وقد عاب عليه الكثيرون عدم قدرته على الوقوف فى وجه تدخلات شقيقه الممعن فى الضحالة والسطحية والاكتفاء بمفاخر الماضى، مما ساعد خصومه على التشكيك فى سلامة ولائه للنظام القائم، واتهامه بالطموح الجامح الذى يتجاوز رأس النظام وهو اتهام لا أساس له من الصحة، لكنه الصراع بين مراكز القوى والمنافسة إزاء المواقع والمصالح المتضاربة التى تشجع على الحرب فى أكثر من جبهة واستعمال أكثر من سلاح، لقد نشطت المجموعات المعادية بسرعة فائقة لتبنى هذه المشكلات بالذات.

وقد كان من أخطر ما واجه الحكومة يومئذ الحكم الذى أصدرته المحكمة العليا بخصوص التصاريح اللازمة لإصدار

الصحف الخاصة، وفقا لما ينص عليه قانون المطبوعات الذى شرع فى وقت سابق ونص على ضرورة التصريح لكل من يتقدم بطلب مستوفى الشروط ويتحصل على إيصال بتسلم المستندات اللازمة، إذ يكون من حقه يومئذ أن يلجأ إلى القضاء، وكان بعض المهتمين بالشأن السياسى والمعروفين بنشاطهم الفكرى قد تقدموا بطلبات فى الخصوص اعتبرها المسؤولون عن النشر مستوفية الشروط، فأمكنهم، بناء على ذلك التصريح، أن يلجأوا للقضاء وكان حكم المحكمة العليا بأحقيتهم فى إصدار هذه الصحف، مما أوجب على السلطة التنفيذية أن تبادر بالاذن، ولكن الذى حدث أن شيئا من المماطلة قد حصل تجاه البعض، بل لقد تعذر استقبالهم بهدف المراجعة والوقوف على وجهة النظر اللازمة فى الخصوص مما جعل البعض يحملون الموجدة نحوهذه الحكومة التى عجزت - وفق هذا الفهم - عن التحلى بالمصداقية، وبقطع النظر عن ردود الأفعال التى حصلت فى الخصوص فمن المؤكد أن الموقف من حكم المحكمة العليا كان إلى حد كبير محكوما بالهوى بل لقد رفض البعض الذين لم يلجأوا إلى المحكمة العليا وإنما قدموا طلباتهم للسلطة القائمة ثم وقع اختيارهم للترخيص، فى حين كان من الأولى أن تنفذ أحكام المحكمة العليا سواء باعتبارها أحكاما واجبة التنفيذ أوباعتبارها قد شكلت مبادرة من مبادرات المقاومة لسلطة تلكأت فى الترخيص لممارسة حق كفله

الدستور وعمدت إلى اقحام القضاء فيه وأضعف الايمان أن يجازى أصحاب الطلبات على طلباتهم ويؤذن لهم بإصدار صحفهم، فغدوا بالتالى متحفزين للثأر من هذا الموقف غير العادل، لقد كان واضحا أن النظام الاتحادى وشيك الإلغاء منذ الأيام الأولى للزواج، إذ أسر بذلك الخبير المالى «ديفز» حين تمت مفاتحته بشأن السكن، فكان رده متمثلا فى خيارين إمّا القبول بالتأجير أوالانتظار عندما تعلن الوحدة وبأجل أقصاه 1 / 4 / 63، وكان القبول بطبيعة الحال منصرفا إلى مبدأ الإيجار الذى ينص على أن تتحمل الحكومة الايجار لقاء خصم 6 ٪ من المرتب كما تنص لائحة السكن المعمول بها إزاء الموظفين المنقولين والتى وقع التوسع فيها فبدأت تشمل آخرين.

لقد اتخذ المجلس بعض الخطوات المتصلة بحل أزمة السكن لعدد من الموظفين، وذلك بإقراض كل من يتحصل على بيت يمكنه الانتفاع به من البيوت المشغولة من الإيطاليين الذين بدأوا فى تصفية ممتلكاتهم والعودة من حيث أتوا كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا، وكان خلوالرجل المشار إليه يسدد كتعويض عن بعض الأثاث الموجود. هوحل لم يشمل الناس جميعا ولكنه أسهم فى تخفيف أزمة البعض وكان من الممكن أن يتم الانتفاع بهذا الإجراء مادام الزواج قد وقع وتم أوحتى وقع التصميم عليه ولكن فكرة العودة إلى مسقط الرأس أوالانتقال إلى الجنوب أجلت ذلك بعض الوقت. وكل تأجيل يفضي إلى مزيد

المصاعب، وبما أن ديفز كان قد حل بالمنطقة قبل هذه الفترة وحصلت بينه وبين الوالد علاقة، فكان ذلك سبيلا إلى مفاتحته فى الموضوع بعيدا عن الإحراج الشخصى وبعيدا عن طلب المساعدة من أي عنصر قريب قد يتخذ من صنيعه سبيلا للمن وقد لايقوم بذلك من الأساس بدعوى أن اللائحة لا تسمح بالتأجير لغير المنقولين. والمشكلة آخذة فى التفاقم وكلٌ يواجهها بطريقته، والإخفاق يحبط الأكثرية، فى حين يكون التوفيق حليف الأقلية، كانت البيوت التى تباع بواسطة خلوالرجل صغيرة للغاية وبناؤها كذلك يعود إلى الثلاثينيات وهوبدائى جدا إلا أن الحصول عليها يشكل بداية حل للمشكلة، فضلا عن أن المساحة مشجعة للغاية ومبدأ تمليكها مستقبلا كان إجراء لامناص منه، لقد بنيت هذه البيوت بواسطة مؤسسات عامة أغلبها مختصة بالتأمين الاجتماعى وأصناف أخرى من الرعاية وخصصت من البداية للعمال ومن فى حكمهم بل إن أكبر حي كان قد سمى باسم العمال «كازابارايو»، غير أن الذين صاروا يتمتعون بها حين بدأ السكان فى الرحيل هم بدون شك ليسوا من العمال وإن يكونوا من الطبقات المتوسطة على كل حال.

ما كان يشغل النفس يومئذ، ومثار فرح وسرور هوالحصول على السكن حين تمت الموافقة على الإيجار فى حدود الثلاثين «جنيهاً» شريطة أن يتم البحث من قبل المعنى أوانتظار الشاغر،

ولأن الوقت من ذهب، فقد تمكن الشيخ سالم من الاستعانة بالحاج حمزة أبرز أعيان بومشماشة وصهر العائلة للحصول على المطلوب فتم توقيع العقد في لمح البصر وجرى استلام المفتاح في يوم مشهود، جعل من فكرة الانتقال خارج المدينة التي كانت ماثلة إلى وقت قريب تدخل حيز الأمور الثانوية بالكامل.

إن أهل الله لايتركون من عول على بركتهم وحسن قبولهم، فهم كما وصفوا في النص القرآني (لاخوف عليهم ولا هم يحزنون) ولأن الشيخ قد أودع الابن منذ ولادته أولئك السابقين فلا خوف عليه، بفضل العناية الإلهية، ولن يربح من وقف في طريقه، وسينال الجزاء كل من كدر الصفوأوبادر بالإساءة وسيأتي الجزاء دائما من غير أن يطلب، فالله أعلم بعباده وأولى بالمؤمنين منهم والضعفاء ومن سلكوا طريقه أوحملوا كتابه، وفي تفسير النص (كان أبوهما صالحا) تستمر إلى سابع جد، ذلك ما قاله الشيخ عندما دخل البيت الواقع في ضاحية بومشماشة لتقابله دالية تضلل الباحة بالكامل وقد بدأت بعض عناقيدها تطل خضرا وتبشر بالنضج في وقت لاحق. كان طول حياته يتشوق للعنب ولم يتمكن من غرسه فأرض المزرعة لاتصلح للكروم ولكنها فقط تصلح للنخل دون غيره، مما جعل الابن الصغير يذهب في كل موسم إلى الخال الذي يشبعه من تلك الفاكهة ويمده بكمية يعود بها لأهله في كل موسم، ومع

أنهم يعيدون الماعون معبأ برطب التامج الذى لايمتلكه السنوسى الا أن العنب يظل أكثر إثارة للاشتهاء.

لقد ازدادت هذه المشاعر، حين وجد البيت قد أثث أيضا حيث أفلحت علاقة سالم بإبراهيم سيكره ذلك النجار اليهودى الذى أصبح يبيع الانتاج المصنع محليا بالتقسيط ويتقن ذلك الصنف من حجرات النوم ذات الثلاثة أبواب وبالإضافة إلى الأرائك لقد تم كل شيء دون أن يكلف بأي مساهمة مالية ربما يكون قد هيأ نفسهً لها، مما جعله يدفع بالأمر فى اتجاه تعلم القيادة لتكون لهم سيارة في المستقبل. وكان يومئذ الكثير من الكلام عن المستقبل، في حين كان ما يشغل الساكن الجديد هوبقاء هذه الغريبة من دون أى قريب، وفى حي ليس به جار، لقد تخلى السكان عن البيوت المؤجرة وانتفعوا بفرص شارع الصريم وزاوية الماعزى وغدا الملاك يتطلعون إلى الإيجار للأجانب فإمكانياتهم المالية أفضل، وطلباتهم أقل، وهم لايعرفون البلدية ولا يحتجون على أى إجراء من إجراءات المالك، وعليه إذن أن يواجه واقعه معتمدا على نفسه فلتكن القراءة هى البديل، ولا بد من التقليل من جلسات المساء بل والتخلى عنها فى الفترة الأولى على الأقل، معظم المقيمين فى الزقاق من الأجانب، يصعب الاقتراب منهم، فى حين سيكون الزوار المنتظرون من الأهل الموغلين فى التقليدية.

استكملت الاجراءات الخاصة بإلغاء النظام الاتحادى

كمشروع هيكلى، ودعيت مجالس الولايات فى جلسات علنية لإقرار التغيير المقترح، وفقا لما ينص عليه الدستور بشأن ضرورة الموافقة الجماعية ليتسنى الإلغاء، وأعلنت الوحدة فى أجواء تقل كثيرا عما كان متوقعا لها من الناحية الجماهيرية، ويبدوأن الأمور العملية لم تكن مهمة للعامة، بقدر ما هى مسألة تخص شركات البترول، والواقع أن الكثيرين لم يخفوا هذه الحقيقة، أن الوحدة مسألة فوقية، ولم تعد بذات الطعم القديم، خاصة وأن العالم أصبح يتجه نحواللامركزية ولم تعد مسألة النفقات بذات بال إثر التطورات الاقتصادية.

المهم أن الوحدةأعلنت وأحيل جميع العاملين فى أجهزة الولاية إلى شؤون الموظفين لإعادة توزيعهم. وفى محاولة مبكرة طرحت فكرة الانتقال إلى المواصلات للعمل فى ديوان الوزارة ولعدم الاقتراب من المجال الإعلامى المتمثل فى الأنباء والإرشاد، حتى تظل الكتابة تمارس من خلال الهواية وليس العمل، وفى اتجاه الثقافة ليس غير، ولكن اتضح أن المواصلات مقرها البيضاء، والمطلوب الآن هوالإقامة بطرابلس بعد أن حلت معضلة السكن، فلا مفر والحالة هذه من الأنباء والارشاد وفقا لما جرى عليه الاتفاق بين كل من المدير أبوبكر الذى كان المسؤول الأعلى للخدمة المدنية ووكيل وزارة الأنباء، وقد تبين فى ذات السياق أن الأستاذ عبداللطيف أشار أن ينتقل كل الزملاء، وتتاح لهم فرص العمل وفقا لإمكانياتهم، فهم جميعا زملاء

ومن حقهم أن يجدوا الأمكنة الملائمة، هكذا أكد الشيخ عبدالعزيز الذى انتقل إلى الوزارة فى وقت سابق واستلم مسؤولية الأحاديث حين تقرر إقصاء الاستاذ إبراهيم لخلاف مع الجامعة الإسلامية بالرغم من الجهود الممتازة التى بذلها فى قسم الأخبار والأساليب الجديدة التى استخدمها عندما اتخذ من وجوده بالقسم دليلا على عدم موالاة الحكومة للعرش باعتباره من قيادات حزب البعث. إن العمل فى القطاع لم يقدم مزية الاستفادة من ثلث المرتب التى تمنح لمن يعملون خارج ساعات الدوام، وقد كلف من البداية وفورا اسناد مسؤولية الشؤون الادارية إليه بالعمل فى سكرتيرية اللجنة العليا للإذاعة وهى عمل مسائى من شأنه أن يوفر التمتع بهذه المزية ويساعد على تحسين مستوى المعيشة وتوفير عديد النواقص.

- حرك السكن فى (بومشماشة) كوامن نفسية كثيرة، ووفر حركة اجتماعية لا بأس بها بالنسبة للبيت، وبقدر ما وجدت فيه بعض العجائز اللاتى اتضح أنهن يسكن هناك من فرصة الزيارة وتنشيط العلاقات التى كادت المدينة أن تنهيها بقدر ما أعاد البيت الارتباط بالتأسيس من جديد بعد أن عصفت بذلك الارتباط سنوات العزوبة والانغماس فى الوسط الثقافى دون غيره وبما أن سالماً فرح بالعلاقة التى استؤنفت حديثا وأعادت له جسراً مهما للاتصال بالاجيال الجديدة والفعاليات المؤثرة، كان عليه، لترسيخ هذه الصلة، أن يداوم على الحضور

ويقوم بالزيارة مرفوقا بالأهل لما فى ذلك من معانى التكريم ومظاهر الاحتفاء ومن ثم توجيه الدعوة لزيارة بيته، ليقص بعد ذلك قصته مع المدينة، ومع هذه المنطقة بالذات فقد كانت فى الثلاثينيات موضع لقاء جميع القادمين من هناك، يقيمون فيها ألعابهم التى يتميزون بها عن غيرهم، ويطهون أكلاتهم التى لا يعرفها سواهم، إذ على بعد مسافة قريبة كانت هناك محطة الوقود التى دعيت قديما بـ(ديبوستو) الغاز.

يوم أن كان المهدى منصور يأوى الجميع من القادمين من هناك من القرية البعيدة، البعض يبحث عن عمل والبعض يراجع فى شأن من الشؤون، إن قصة المهدى مع الشيخ سالم قصة عجيبة إلى حد كبير، فقد تولى المهدى مهمة الوقوف إلى جانب صاحبه فى سنوات مبكرة واستمرت بلا توقف.

كان يومئذ فى مقتبل العمر حين جمعتهما دروس الشيخ مصطفى، وإذ لم يستطع المهدى الاستمرار كان عزاؤه الوحيد الحرص على تمكين صاحبه من القراءة حتى أجيز وأصبح يلقب بلقب الشيخ عن جدارة، إن الرجل لا ينكر فضل صاحبه بل إنه خلافا لما عرف عنه من تغيير فى مواقفه يظل نحوالمهدى بالذات أحرص من الحريص. إن كفته ترجح على كل ماعداها، وهولايسأم من الحديث عن تجربته المريرة وعن دور المهدى فى صون هذه التجربة، الذى مكن الشيخ أن ينشأ نشأة مختلفة عن جميع مجايليه الذين لم يتجاوزوا ماتيسر لهم من القرآن، فى

حين استطاع هوأن يواصل تعليمه عبر مدرسة عصمان وجامع الباشا وحلقات مصطفى معروف، والفضل كله لذلك الدعم الذى دأب على تقديمه المهدى، «أوسى المهدى» كما يحرص على النطق، لقد كان الحى موضع إقامة صهره مفتاح أيضا منذ قدومه من هناك وآخرين وآخرين من الذين يتحدث عنهم كثيرا أويفيض فى الإشادة بتجاربهم طوال الأربعينيات حين واجه الجميع ذلك الكساد الممل الذى خيم عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، وتعرض الناس إلى ما يشبه المجاعة، حيث لم يبق لدى الجميع سوى ما يسد الرمق ويحول دون الموت المحقق.

- حين وصلت الجدة، التى تجاوزت الثمانين من عمرها، بذات المكان وشاهدت هاتيك الطلول، أخذت هى الأخرى تتحدث، فى إفاضة وتأثر، عن كرام بررة أكرموا وفادتها وآزروها فى محنتها، أبرزهم الحاج محمد بن غيث، فى تلك الحقبة من الثلاثينيات، أي قبل ثلاثين سنة ونيف، عندما حلت ساعية للإفراج عن الجد القعيد، وكان بن غيث على رأس الذين استضافوا الأسرة المكلومة بإعدام فضيل وموت أيوب وسجن الحاج الذى لم يعتقه من الموت سوى كبر سنه والذى لم يحل بينه وبين غياهب السجون فى ذلك الزمن كما تقول الجدة، اكتفى بعض الأقارب بالملامة لأنها لم تأت اليهم ناسين أن الواجب يقتضي منهم المبادرة بالسؤال لأنهم الأقدر. ومن ثم يمكنهم توجيه العتاب، أما الاكتفاء بالعتاب وحده فلا يعدوأن

يكون مجرد تبرير لعدم الاستضافة لأولئك القصر الذين تفرض كل الاعتبارات الاهتمام بهم ولومن باب الإحسان، مابالك بالقرابة لقد حلت يومئذ بالبلد غريبة ومثقلة بالاحزان والاطفال فلا يمكنها أن ترفض أي دعوة من الدعوات لمجرد أن لديها أقارب فالصواب أن تذهب إلى أقرب مكان ومن يهمه أمرها فليبادر حين يتناهى إليه الخبر، لقد انعش المكان ذاكراتها حين جاءت من هناك، كان ذلك فى شهر المحرم عاشوراء إذ الحلول بالمدينة جاء عقب عيد الأضحى مباشرة، ومن أجل ذلك جاءت الجدة مرفوقة بشريدها الذى يطلقون عليه اسم (الفتات) لإحياء عادة يوم عاشوراء فلقد اعتاد الأهل أن يصوموا ذلك اليوم ويطهوا طعامهم الذى هو(الفتات) ويأكلوه فى اليوم التالى بحيث تكون وجبتهم موحدة فى كل مكان، حتى عندما يحلون بالمدن البعيدة فإنهم يصرون على أحياء العادة أوالفطرة، إنها على مايبدومن عادات الشيعة، مع أنهم جميعا لاصلة لهم بالشيعة من قريب أومن بعيد ولعلها من موروثات امتداد حكم الفاطميين «الشيعة» لهذا البلد «أوليس المعز لدين الله الفاطمى هوالذى مر به وأقام مقرا له فى اجدابيا ليستريح وهوفى طريقه إلى مصر ومع ذلك تكتسب عاشوراء هذه العناية الشعبية وهذا الاهتمام وتترتب عليها هذه العادات» صحيح أن الحديث عن الحسين غير موجود كما يجرى فى أماكن أخرى لكن ممارسات كثيرة تشير إلى ذلك العمق، أغلب الظن أن كثرة الاتصال

وبعد المسافة انتجا شيئا من التلاقح بين العادات وإن لم يقترب الأمر من المسألة المذهبية، بالنسبة للفهم الدينى فإن المفارقة العجيبة هوالموقف الذى واجه به ذلك الاستعداد والاهتمام بالمناسبة والذى كان خلوا من أى حماس مما كان له أثره على المزاج، إن الجدة تعرف هذه الجزئية عنه منذ القدم غير أن الأمر نم يكن كذلك بالنسبة لمن ملأت البيت منذ وقت قريب، والتى تستشعر الآن علامات الحمل الأولى، لقد مضى على الزواج أكثر من سنة، ومن الممكن القول بأن شيئا من القلق بدأ يلوح، وتلك هى طبيعة الحياة، زواج ورغبة سريعة فى الإنجاب، وفى الذكور تحديدا، لا فرق فى ذلك بين من تعلم ومن لم يتعلم، ولهذا فإن عدم السرور بما حُضّر لعاشوراء كان بمثابة الصدمة التى يخشى منها على الحمل، لكنها مرت بسهولة لتستمر بعد ذلك الحياة ويتداخل الفرح بالعروس، بالذى ملأ بطنها فبدأت الفرحة تملأ البيت كله، كالعادة بدء الحديث عن الاسم المقترح للولد والفأل دائما للولد، لكن الجدة تحبذ أن يكون اسم الوليدة تخليدا لاسمها فليس هناك من هوأحق بالتسمية، كانت تحس أن الزمن قد ابتسم لها نسبيا، لكن العمر ولى كما هوواضح مع ذلك فقد بقيت واستوحت من المكان ما استوحت، كان ثمة مجموعة «من الحناطير» التى تجرها الخيول تقف قريبا من الزقاق، مما استوجب على هؤلاء أن يقوموا بالتنظيف بين الفترة والأخرى، فالحرس البلدى يقف بالمرصاد فهوسريع البطش بكل

من تسول له نفسه أن يتقاعس، كما أن الناس من جهتهم يمارسون هذه الرقابة.

14

حاول الأستاذ عبداللطيف أن يحقق بعض الخطوات المبدئية في المجال الإعلامي بعامة فقد أعطى هامشا جيدا للتعليقات الإداعية كي تكون أكثر موضوعية في تناول القضايا العالمية، وخفف من لهجة الدعاية الصارخة، لقد كان الموقف من الامور الداخلية أكثر تماسكا، وأقل تهالكا على المدح المبتذل، كما اظهر قسطا من التفتح على العناصر القادرة من دون تمييز بين التيارات الفكرية، بالرغم من أن الصعوبات كانت كبيرة، وفي خطوة ملموسة للنهوض بالفن أنشأ الفرقة الوطنية للفنون الشعبية بهدف إحياء التراث الشعبي «الفولكلوري» المتكون من الرقص والألحان، وعمل على تطوير كلمات الأغنية بتفعيل دور لجنة نصوص الأغاني ودعمها بالعناصر القادرة فضلا عن احترام قراراتها وصون استقلالها. لقد أعطى باهتمامه الشخصي للفن هيبته وخلصه مما ران عليه من بعض النظرات المتسلطة وبذل جهودا ممتازة للنهوض (بالمالوف) ابتداء من طبع سلمه الموسيقى في كتاب إلى إنشاء (فرقة المالوف) وإسناد إدارتها للفنان القدير محمد مرشان مستفيدا من ألمع الخبراء في الملابس والمناظر، في الوقت نفسه توقف أمام موضوع النشر حين أذن بإصدار سلسلة الكتاب الليبي مبتدئا بالتاريخ والمالوف

وبواسطة تقديم تم اعداده وأقره بشكل ديمقراطى، إذ لم يضق ذرعا بالملمح المنهجي الذى يفصح عنه كل سطر فى المقدمة، لقد كان حريصا بحق على توسيع الدائرة وعلى إعطاء الفرصة لكل العناصر القادرة كما تجسد ذلك قراراته المتصلة بتشكيل اللجان المختلفة والتى اتسعت لجميع العناصر القادرة، وقد حاول فى ذات السياق أن يسهل مهمة إصدار الصحف الخاصة، وهى تجربة بالرغم من حساسيتها وتداخل الأطراف الفاعلة بصددها فإنه لم يتخل عن المحاولة ولومن باب ضمان النصيب لمن فهمه من المثقفين ويرى فيهم الأهلية والكفاءة.

- إن العناصر المثقفة أيضا أوبعضها بالأصح، قابلت المناخ الذى أتاحه وجود الأستاذ عبداللطيف على رأس الأنباء والإرشاد بشىء من الثقة والأمل، فكانت المبادرة بالعطاء الجرىء من ذلك حادثة محمود الشهيرة، حيث كان إلى ما قبل هذه الفترة معروفا بأنه أحد أفراد رياضيى نادى الاتحاد، وأكثرهم حركة ونشاطا وحضورا فى الأوساط الاجتماعية، وكانت قرابته لونيس الذى يشاركه نفس الحيوية ونفس الحضور تضاعف من هذه الحركة، ولكن محموداً ما لبث أن تربع على صفحات جريدة «طرابلس» ناشرا «حكاية الشجرة» التى كانت وفقا لما يوحي به العنوان ذات اتجاه حكائى يتحدث عن شجرة قديمة وجدت فى البلاد وجاءت كنبتة من الخارج وماتزال تؤثر فى عطاء بعض الأشجار المفيدة، كان بناء هذه الحكاية محكما

وكـان الـرمـز أيضـا شـبـه واضح، إلا أن التـوقف أمـام النص لم يتحقق إلا عندما ألحق تلك الحكاية بكتابة أخرى أكثر مباشرة أطلق عليهـا عنوان «حكاية أمي» والتي كـانت واضحـة الدلالة والرمـز على السـواء فـقـد تحدث عن أخـوة خـمـسـة تولوا إدارة شؤون الأسـرة، قام أولهـم بتأجير الأمـلاك بشروط مجحفة، في حين لم يتجاوز ثانيهم في ولاية الأسرة أكثر من ستة أسابيع ولم يقم بالتالي بأى شيء فيما توالى الثلاثة الآخرون على ممارسة ما رأى الحاكي أنه غـير مفـيـد، بل لقد تنوعت أخطاؤهم جـمـيـعـا وتعددت إخفاقاتهم في حق الأسرة، حتى جاء السادس وهوأكثر هؤلاء الأخـوة تعليـمـا وعيـشـة خارج الأسـرة، بحيث يمكن أن يكون الأمل فيه كبيرا، باعتباره لم يختلط بأحد ولم يدخل في مـشاحنات حول شؤون الدنيا، ولم يعرف الصـراع مع أي طرف فـمن الممكن والحـالة هذه أن تشـهـد الأسـرة في ظل مسـؤوليتـه شـيـئـا من التطـور في مـداخـيلهـا وتعليم أبنائهـا الا أن الـكـاتب يكتـفي بـالأمل في هذا السـادس للاعـتـبـارات السـالفـة الذكـر، ولوأنه شديد الخوف من صدق المثل الشعبى القائل :

«منين ها العرف ـ من ها الشجرة».

وبالـرغم من وضـوح المثل وعـدم وجـود أي تفـرقـة بين الأخ الأخيـر ومن سبقه الذى هوبطبيـعة الحال رئيس الوزراء، فـقـد أقـيـمت الدنيـا يومـئـذ على هذه الحكاية التى ربطت بسـرعـة بالحكـاية السـابقـة حيث اعتبـر الرمـز يقصـد الأسـرة المالكة،

وذهب الظن إلى أن الموضوع متفق عليه مع أركان وزارة الأنباء والإرشاد، مع التشكيك في إمكانية محمود على الكتابة واعتباره مجرد واجهة لعناصر أخرى كانت قد أنشأت علاقة إنسانية مع محمود عبر نشاطه في نادى الاتحاد وبروزه كنموذج للصديق الذى يضحى في سبيل أصدقائه. إن الصدفة أيضا فعلت فعلها أن دخلت الحكومة في اشتباكات ومما حكات واعتبر رئيسها معبرا عن مرحلة جديدة وليس استمرارا لمن سبقه مما ساعد أولئك الذين يديرون اللعبة على ضرب الفخار ببعضه وصولا إلى تفجير الوضع من الداخل، لقد تزامن ذلك مع حوادث الطلبة والاصطدام الذى جرى مع قوات الأمن، مما أدى إلى نشوب خلاف حاد بين ما كان يعرف بولاية طرابلس والقيادة العامة للأمن التى كانت، إلى ماقبل هذه الفترة بقليل، تدير، فقط، شؤون ولاية برقة.

وفى الفترة التى وقع فيها التصريح لبعض الصحف الخاصة من بينها بالطبع ما كان للأستاذ عبداللطيف الدور الأساسى فى الترخيص لها والتحرير على السواء، لقد واجهت الحكومة يومئذ صعوبات جمة اضطر رئيسها، فى وقت لاحق، إلى تقديم استقالته وكانت المبادرة بقبولها كما لوكان المخطط يهدف إلى هذه النتيجة. فحدث نتيجة لذلك تداخل كبير فى المواقف تمثل فى استشعار الخسارة بالنسبة لمن لهم علاقة بالحكومة أما الذين لم يجدوا فى البرنامج العام مايشجعهم على التحرك فقد وقفوا

حائرين، فى حين كان موقف الذين لديهم فكرة عن الصراع الذى عرفته البلاد فى بداية الاستقلال بصدد الإشراف على الولايات والتمسك بتنفيذ حكم المحكمة العليا وعدم وجود أى شائبة بصدد الذمة المالية، فقد كان موقفهم مختلفا تماما.

- بدأ البشير متحفظا فى استقباله فى ذلك الصباح، ومقتصدا فى كلماته، عند المرور بمكتبه وإعلامه بالانتقال إلى وزارة الأنباء والإرشاد، وكانت مشمولاته الوظيفية تجمع بين إدارة مكتب الوزير والوكيل فى آن واحد، لقد كانت مسؤوليات الوكيل فى فترة ماقبل مجيء الأستاذ عبداللطيف تفوق الوزير (السيد حسن) لصلة الوكيل الشخصية برئيس الحكومة واشرافه على قسم الأخبار المحلية، المجال الذى اختص به البشير من الأساس، لم يتوقف كثيرا أمام الانقباض الذى أظهره حين علم بأن زائره موظف جديد فمسألة التحسس من أي مسؤول جديد لم تكن خافية، وما كان يجرى فى قطاع الأنباء والإرشاد لم يكن سرا وصلة هذه المؤسسة بالدوائر العليا معروفة، بيد أن الفراسة أفضت إلى الاحساس بأن البشير يمكن أن يكون من الصنف الذى يستحق الرهان، فى هذا المحيط الذى انتشرت أخباره فى المدينة، كان النظام المتبع يقتضى أن يتجه الموظفون إلى مقر عملهم محمولين فى سيارات الوزارة فتتيح الرحلة الجماعية الحديث فى مختلف الشؤون منذ الساعات الأولى من كل صباح، بيد أن الإحساس السائد يشير إلى أن

الشاب يعيش ببحبوحة من العيش تفوق الجميع والدليل ما يحمله من أوراق نقدية فضلا عن الملابس الرفيعة والانفاق السخي وخلافا لما يلوح من بوادر العنجهية كان ثمة مايشير إلى أن النوعية فريدة وان الصعوبة ستكون فى اقتحام هذا العالم. إن من أهم مايدعولخوض التجربة القضاء على الإحساس بأن القادم الجديد سيكون أداة من أدوات العهد الجديد فالقطاع مستقر منذ سنين طويلة، وثمة شعور بأنه سيتعرض لبعض الهزات للحساسية الموجودة بين الوكيلين السابق واللاحق واللذين هما فى الأساس من منطقة واحدة وثمة مصاهرة تجمعهما فليس من الحكمة أن ينظر الموظفون إلى زميلهم الجديد وكأنه وجد ليكون أداة للتنكيل بهم أوإلحاق الأذى بأي شكل من الأشكال.

إن الهدف العاجل هوتكوين قاعدة بالقطاع وبالتالى فلابد من غض النظر عن بعض التعليقات التي أملتها بعض الكلمات غير المسؤولة التى أسمعهم إياها أحد المسؤولين، حين حسبهم على الوكيل السابق بشكل شخصى وليس من واقع العمل وفى خطوة عملية حين استلم العمل كسكرتير إدارى مساعد عمل على إيقاف اجراء تأديبى تقرر بصدد أحد العاملين فى القسم حتى لايكون ذلك مفتتح العمل لما يوحى به الإجراء لونفذ من إشاعة الخوف والتذمر، فكان ذلك الموقف مؤشرا اللآخرين.

البشير، من جهته على مايبدوكان يرصد خطى القادم

الجديد، يتبين ما إذا كان من محاسيب الوكيل أم هوشخص من عموم الناس، ثمة من أسر للسكرتير الادارى أحمد أمين بأن القادم الجديد قطب من أقطاب اليسار، أحمد لم يخف هذه المقولة عن مساعده، لكنه لم يذكر الشخص ولم يطلب إليه كذلك، كانت جريدة طرابلس قد استحدثت نظام الصفحات، وقد اسهم من جهته في صفحة الأحد التى أشرف عليها عبدالسلام دنف الذى ارتاد الميدان بقدرات مختلفة وبمقالات ذات طعم خاص ونزعته الديمقراطية واضحة وقدرته التجميعية ظاهرة، الأمر الذى كان له الأثر الفاعل فى تحريك الجوالثقافى والمناخ الصحفى على هدى من توسيع الدائرة وتفعيل الشراكة بالرغم من عديد المصاعب والمنغصات التى لم يكن له من سند لمواجهتها سوى الموقف المسؤول والإنسانى الذى بادر به الأستاذ محمد بن زيتون مدير المطبوعات الذى يقدر نجابه عبدالسلام ولم يتأخر بالحدب عليه كما تشهد ملفات الأنباء والإرشاد التى أمكن الاطلاع عليها والوقوف على ملابساتها وماحوت من كتابات غير سارة لم يوقف أثرها سوى محمد بن زيتون، ويومئذ رحل عبدالسلام، دفن إثر حادث غرق شابه شيء من الغموض واللغط المشكك، فكان الحادث موضوع تناول الصحف وكتابات الزملاء الذين أحزنهم رحيل عبدالسلام الشاب والزميل والصحفى المتميز.

كان لابد من المشاركة فى تلك الكتابات التى تناولت

الحدث، ليس فقط للاعتبارات السابقة وانما لأن عبدالسلام يمثل رهانا من الرهانات بالنسبة للتوجه الذى يسعى للتأسيس له، ومن ثم فإن المشاركة لابد أن تكون متميزة ولابد أن تصدر عن مسؤولية وعن الايمان بحقيقة مفادها أن الحزن لايبرر المبالغة وأن الشخصى لايسوغ تجاهل العام وأن الكلمة حين تكتب لابد أن تراعي مستويات القراءة.

من هنا تجنبت الكتابة نقيصة المبالغة، ولم تركن إلى البكائيات، وإنما انصرفت إلى تناول الكاتب فى إطار المرحلة والامكانيات المتاحة، ولم تتخذ من الحدث مبررا لافتعال مالم يكن موجودا فكان ذلك نوعا من التعبير عن الشخصية المختلفة، والتفريق بين فداحة الحدث الشخصى وحقيقة الأثر الثقافى إذ إن موت شاب فى عمر الربيع وعلى هذا القدر من الحيوية والمثابرة والود شيء وكتابات لم تخرج بعد من إطار الخاطرة والمحاولة الواعدة شيء آخر.

فكان هذا الموقف بداية حوار جاد مع البشير الذى لم يسترح كثيرا لبعض الكتابات التى لم تتصل بالفقيد فى حد ذاته بقدر ماكانت اصطيادا لمناسبة من المناسبات بهدف الاستفادة من الفراغ واستغلال الحدث، خاصة حين كانت بعض الكتابات صادرة من بعض الذين لم يقصروا فى الايذاء حين كانت الأمور بأيديهم وهكذا تأسست أرضية أدت فى نهاية المطاف إلى مزيد التفاهم والتعاون. كان اللقاء يتم فى ساعات العمل دون غيره،

ولكنه يتطور في كل يوم بل في كل ساعة، كان ثمة تجارب سابقة بصدد الذين يتوفرون على السجايا الخلقية الرفيعة، المتمثلة في المروءة والكرم والشجاعة والإيثار التي طالما تحدثت عنها كتب العرب وأخبارهم، عبر الشعر والمأثور المتناقل، إنها الخصال التي فاقت في خلودها وشائج أخرى انطلقت من العقائد السياسية المختلفة، فهذه السلوكيات الفطرية من شأنها أن تجعل المتحلي بها أكثر فاعلية في مجموعة الشباب الليبي ومن الممكن أن تتكرر الآن، سيما وأن البشير من المدينة ذات الرهان على السمعة، لقد ثبت من تلك التجربة أن ذلك النوع من العلاقات كثيرا ما يكون أكثر جدوى وأدعى إلى الاستمرارية من تلك القائمة على الوفاق الفكرى وحتى النشاط السياسى حيث تمارس الغيبة الرخيصة بدعوى الموضوعية وتنشط النميمة بدعوى النقد ويتخلى العزيز عن عزيزه حتى لايتغلب الخاص على العام، لقد تكونت منذ تلك التجارب قناعة مفادها أن العلاقة الشخصية كثيرا ما تكون أخلد وأن حبل الود قد يكون أبقى وأكثر فاعلية، وأن القول بأن الخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية يندر تطبيقها في دنيا الواقع.

كان البشير محاطا بكوكبة من الشباب يقضى معهم ما يكون لديه من فراغ وما يتطلع إليه من الترويح، ويفرق بين إدمان الشهوة وممارستها، وقد عاش تجربة حياتية متميزة، سرعان ما قفزت أمام الذاكرة لمجرد اللقاء، فقد كانت كامنة في

العمق، عندما رآه قبل ذلك بسنين إلى جانب فتحي وعدد غير قليل من الفنيين، فكان الحديث يومئذموزعا، ومع أنه كان يعمل في ذات المحل، إلا أن المظهر لم يكن يدل على ذلك، إن خصلة القناعة التي يتحلى بها تجعله دائما يكتسب مظهر الموسر وليس الذي يعيش على قوت عمله. ربما تبادر إلى الذهن يومئذ أن البشير أحد أنجال الحاج سالم صاحب المحل وإن يكن فارق اللون واضحا ولا يدل على هذا الاحتمال، وربما فكر حتى عند لقاء الوزارة أن الوظيفة أكبر من الواقع بكثير، وقد علق أحد العاملين يومئذ قائلاً :

ـ الشيباني مخليها واسعة وعريضة.

الغريب أن البشير يسعى لتعميق هذا الاحساس كلما تحدث القوم عن هذه الجزئية تحت المثل المعروف :

ـ ان شاء الله وين يظنونا يلقونا.

حين يكون الظن حسنا.

كل المظاهر توحي بأنه من الأثرياء، إن الأفعال أيضا توحي بذلك فهومن أسرع الناس في تسديد أي مبلغ تستهلكه المجموعة، بمجرد العلم بتجربته الغرامية قفزت إلى الذاكرة إحدى المنافسات التي كان بطلها ذات يوم، كان ذلك قبل سنوات وفي زمن العزوبة بالذات، لم يكن ثمة فارق في العمر، ولكنها الظروف، في حين بدأ انتظار المولود الأول، يبدوزواج الثاني مايزال بعيدا، لقد أدت تلك المنافسة إلى مشاجرة يدوية،

كان المنتصر فيها بشير والتعاطف له فى الحى كله، لم تكن المعنية وحدها المتعاطفة فالأخريات أيضا كن كذلك.

لتوه قد انتقل يومئذ إلى شارع الصريم، الذى حل به ضمن مجموعة من المواطنين أخذوا فى امتلاكه بواسطة خلوالرجل، كان بناء الحى قديما للغاية وقد أنشىء من صندوق الخدمات العمالية ولكن الموقع جميل للغاية، ما يهم هذا النوع من الناس هوأن يكونوا قريبين من المدينة القديمة فكل ارتباطاتهم هناك، أسباب كثيرة جعلت الطليان يعمدون إلى تصفية أمورهم فهم لا يشعرون بالاستقرار وما حصل ليونانيي مصر وغيرهم ليس غائبا عن تفكيرهم، إن الناس فى الحقيقة يشجع بعضهم بعضاً وقد تصدر بعض القرارات الإدارية الضاغطة، ولكنها غير مقبولة فالأولوية للشراء وهوعلى أى حال فى حكم الرمزى مهما تصور البعض أن المبلغ ذوقيمة، طبيعى أن الاسعار فى الزيادة ولذلك فى الحقيقة أكثر من سبب منها القرب من الأحياء الشعبية حيث لا يشعر من يحل هنا بأى انفصال عن أولئك الذين ارتبط بهم ، ومنها كذلك تحسن مستوى المعيشة ووجود بعض القروض المصلحية، إن الإقدام على الشراء لا يخلومن مغامرة إذ لا يعرف أحد مصير هذه البيوت ولا الطريقة التى ستعامل بها مستقبلا، فما يزال الإيجار هوالفيصل، ولكن لا حرج، فمن الذى سيجرؤ على ابعاد الساكنين، والحاجة تفرض على المرء أن يقبل أى حل مهما كان متجنياً أوغير

منصف.

من الأكيد أن انتقاله من أعماق المدينة مسقط الرأس لم يكن بالأمر الهين فلاشك أنه من الصعوبة بمكان، ولكن الانتصار لتلك الشقيقة التى استطاع زوجها أن ينضم إلى الاسرة ويشترى هوالآخر سكنا من المساكن، كما أن الصراع الذى حاول أحد العاملين فى الأجهزة أن يخوضه بدعوى أن البشير أعزب وليس من حقه أن يتمتع بسكن كان هوالآخر سببا من الأسباب الضاغطة، فلقد قرر أن يخوض التجربة معتمدا على علاقاته وجيرانه وكذلك وجود الوالدة معه، فبكل المقاييس ليس من حق ذلك المتسلط أن يكمل مخططه وأن ينغص صفوالحياة وينال من راحتها.

هوعلى أى حال اختار الموقف واشترى البيت ولن تعيش الشقيقة وحيدة فخليفة الذى رحل من الدنيا منذ فترة وجيزة كان مثالا للوفاء تجاه أخيه من الرضاعة فهل يمكن أن يكون أقل وفاء من والده تجاه أخته، وهى الأنثى الوحيدة لقد قرر أن يهجر المدينة وأن يترك «زنقة» «حواء علجية» مسقط الرأس وموطىء أهل البلد الخلص، فى سبيل الحرص على مجاورة الأخت وهويومئذ يؤمن، إيمانا لا يتزحزح، بأن ذلك سيسعد الوالد فى قبره، ولذلك فإن قسمه المحبب إذا ما اطر للقسم.

-وتربة بوى إلا هكي.

إن أحاديثه تكون دائما بالفصحى وقد اعتادها لدرجة أنها

غدت عادية ولا مجال للقول بالتكلف بيد أنه إذا اضطر للقسم واستنفد كل الكلمات الفصحى، تكون النهاية.

ـ وتربة بوى إلا صارت.

إن تغيير السكن لم يحل دون المواصلة اليومية ليس فقط من أجل المواصلة وإنما للقاء المرتب بمحل الشيخ حافظ شقيق محمود الرفيق اليومي، البيت عبارة عن حجرة في تجمع يطلقون عليه «الفنيدقة»، ويسمون عليه الزقاق أيضا، فالشيخ حافظ بالرغم من أنه دخل الوظيفة العمومية إلا أنه مايزال يمتهن صناعة النول، وهي التي يمتهنها عادة معظم سكان المدينة، وهي على أي حال ضمان من الفقر، ونوع من النعم التي ينبغي للمرء أن يحمد الله عليها، ذلك ما ورثه حافظ من الوالد كامل افندى الذى حين أدرك عجز مهنة المحاسبة عن المعيشة في مطلع الأربعينيات أصر أن يوزع الأولاد جميعا ليتعلموا مهنا مختلفة من بينها النول الذى تفنن فيه حافظ عندما كان يقرأ بكتاب حورية ويكون من أحسن حفظة القرآن، ويسهم في معيشة أسرته من حياكة النول، ومع أن حافظ كان على علاقات واسعة ووطيدة مع أسماء أخرى ذات شهرة وحضور، مثل صفر الذى أحتل حيزه ووجدانه كصديق ورمز وطني، الا ان دور البشير كان أكثر فاعلية من حيث المداومة والعلاقة مع المجموعة ان هذا الفضاء لا يتوقف عند الشخصي، فالعام دائما هوالمسيطر وهوالذى يطبع حياة كل الناس، وقد كان محمد عزيز ذلك

المدرس الذى ولج باب الرياضة من خلال الملاكمة، وعرف عنه شدة ضربة الدماغ بمن فى ذلك بعض الذين تحدثهم أنفسهم بالتطاول والتحرش واللجوء إلى العضلات، إن محمد عزيز يعرف هؤلاء حق المعرفة، بل يعرف المدينة بالكامل وله صولاته وجولاته فى قطاع الشباب تحديدا، وفى مقصورة الشيخ حافظ - كما يدعونه الجميع - وليالى رمضان خصيصا كان عزيز من المراجع المهمة لمعرفة المدينة ومعرفة المجايلين وعديد الحوادث التى مرت بالحياة الثقافية والسياسية وصراعات الصحف بالخمسينيات، وأشهر مباريات كرة القدم وتدخلات الحكام، وخلفيات تأسيس الفرق والنوادى ويبدوأن العم إحسان الذى كان من أبرز موظفى البلدية وعلى علاقة بأكثر الأسماء المعروفة قد أعطى الكثير من الخبرة لأبنه هذا.

إن الصديق الأدنى والرفيق اليومى، هوإبراهيم الذى نشأ معه فى الظهرة وفى المدرسة بالذات طالبا ومدرسا، ومع أن الكلفة لا تعرف طريقها نحوالاثنين الا أن عمق العلاقة والوفاء المتبادل يفوق كل وصف، وعلى كثرة الأقارب لدى الاثنين فإن كليهما لا يقبل قيد أنملة بصاحبه.

إن بعض الجلسات تبدوأحيانا وكأنها مراجعة للتاريخ، لتاريخ الظهرة تحديدا وأشهر الأحداث التى مرت والسكان الذين توالوا على الامكنة منذ الحرب أوقبله بقليل، عندما يكون إبراهيم هوالشريك الأساسى، ولكن فى أحيان أخرى

يكون الحديث تفصيلا عن ميزران وماجرى فيه من أحداث وما انتاب بعض الأسر من قلاقل وخلافات بسبب الإرث أوالمصلحة والتى كثيرا مايفتش لها عن غطاء كخلاف المؤتمر والفدرالي. إن محمد عزيز لا يخفى امتعاضه من الناس الذين تلكؤوا ذات مرة عن مناصرة السيد عبدالعزيز الذى ما كان له ان يظفر بالنصر لولا أصدقاؤه الخلص الذين كانوا فى الحقيقة ليسوا من أنصار المؤتمر ولكن حز فى نفوسهم أن يخسر السيد عبدالعزيز، وهومن هذه الناحية يقترب من البشير الذى يشكك فى إمكانية صمود الطلبة أمام قوات الأمن وهم الذين يرتدون قمصان الحرير وأزرارهم من ذهب، فمن تصل به الرفاهية إلى هذا المستوى يستحيل أن يصمد أمام الطغاة وسجونهم والجلادين وغطرستهم.

كان فى الحقيقة شديد الرفض للنظام القائم يتوفر على ميل لكل ما هوشعبى بالرغم من مظهره الارستقراطى، يحرص على مواصلة كل القطاعات التى عرفها وارتبط بها فى مرحلة من مراحل العمر، شعاره أن يكون الباذل الأول يدافع عن وجهة نظره بحماس شديد يبد أنه يحرص على إرضاء اصدقائه حتى إنه عرف بكلمته المأثورة.. رأي وإلاقرار.

فإذا ما سئل أجاب بتوضيح أكثر :

ـ بالنسبة للرأي هذا هورأيى أما الموافقة فأنا مع اصدقائي، عمل فى الأخبار المحلية سنوات طويلة، واكتسب خبرة جيدة،

ولكنه بعكس الاخرين لم يتخذ منها يوما سلما للاقتراب من المسؤولين الكبار عندما سقطت الحكومة كان ضيقه شديدا بالرغم من أنه أبعد الناس عن الاستفادة، بل لقد كان شديد الضيق من الوكيل الذى جاء متسلطا على الذين سبقوه، لقد اعتبر نفسه معنيا بالمسألة مباشرة مع أنه كان غير معني بذلك تماما، لكنه رفض هذا الموقف وظل إلى جانب زملائه وصارح بذلك الأستاذ عبداللطيف نفسه الذى يعتبره فى حكم القريب باعتباره من سكان المدينة المعروفين.

ان الفترة فى الحقيقة كانت قلقة إلى حد كبير ومنذرة ببعض الصعوبات فقد اشتدت المعركة بين القوى السياسة ابتداء من رئاسة مجلس النواب حين كان الفارق بين رئيس الوزراء السابق ورئيس المجلس منحصرا فى صوت واحد، قد تم الحصول عليه فى آخر لحظة، حين أمكن التغلب على الموقف وبالأحرى التراجع بواسطة ضغط عشائري معروف. لقد اختلفت الآراء بصدد هذه الإشكالية، ثمة من رأى أنها يمكن أن تكون بداية معارضة قد تتطور وقد تشمل مسائل أخرى، فى حين عارض آخرون بأن رئاسة الحكومة المسندة الى رمز وطنى جيد من الخطأ أن يقف أحد فى وجهه على أن فريقا آخر فضل أن يكون منعزلا عن هذه الأمور مجتمعة.

كانت الوزارة منهمكة حتى النهاية فى المعركة، فالصمت والحالة هذه أقرب الى الموقف المستقل فضلا عن ذلك فإن فوز

سى محمد أدعى الى تحقيق التوازن المطلوب. لم تكن هناك قدرة حقيقية للتأثير، ولكن على الأقل فليترفع عن المساهمة الإعلامية التى انطلقت فى مواطن كثيرة، ولعله ودّ لويسلك جميع أقاربه هذا الموقف لكن المصالح لها دورها، والموقف الانتهازى هوالآخر يتحرك، إذ هناك من لايستطيع فعل أي شيء ومع ذلك يدعى أنه قد فعل كل شيء لقد حدثت مجموعة من التطورات شملت الحياة العامة، وصارت المسألة الثقافية أكثر إلحاحا وحضورا وقد تحصل أشياء تمس فردا أوأكثر فتثير فى المرء مشاعر لا يستطيع أن يقف بصددها موقف المحايد، من ذلك ما حدث لأحد المواطنين الذى اقتيد فى احدى المحافظات الجنوبية من قبل رجال الأمن بدعوى أنه مدعولمسائل أمنية، وإذا به يواجه أغرب عدوان عرفه التاريخ الحديث، إذ جرى إشباعه ضربا بحماية رجال الأمن وممن لايملك أي صفة رسمية، فإن الأمر لابد أن يكون مثيرا للاشمئزاز داعيا للتحرك ولوبأضعف الإيمان.

لايهم أن يكون الضحية صديقا أوعدوا معرفة أونكرة تربطه علاقة ود أوغير ذلك فالمسألة فى هذا الصدد مبدئية صرفة، ومن العيب أن يصمت أمامها أي إنسان فما بالك أن يكون من الذين يملكون قدرة على التحرك، بعض الشركاء لم يقدروا هذه الجزئية، بل إن منهم من لم يكتف بالصمت وإنما عمد إلى تأييد المعتدى.

ولم يرضهم أن يقف المرء على الحياد، كان بعض الناس قد

بادروا بالتحرك والاحتجاج، البعض بواسطة الكتابة المعلنة والبعض الآخر بواسطة التحرك السرى أوالكتابة المجهولة المصدر، والتى كانت تعرف بالمنشورات، لم يكن أهل الجنوب فى حاجة الى من يتحرك فقد امتلكوا كل الامكانيات لكن شبهة النشاط القديم ظلت تلاحق الجميع، لمجرد إعادة الهيكلة وتقسيم البلد إلى عشر محافظات واختيار بعض المسؤولين السابقين لهذه المواقع، وقد حدث فى سبها تحديدا شيء من التحرك، بالرغم من أن الموقف لم يخرج عن إطار الامساك عن إدانه التحرك، فقد ظن البعض أن الأمر قد تجاوز ذلك إلى إطار الفعل، ونقلت بعض المعلومات إلى الجهات الرسمية فى الخصوص، وقد فهم ذلك من المناقشة التى أجراها وكيل الوزارة، وكانت الإجابة أن أهل الجنوب لهم امكانياتهم وقدراتهم وأن تعاطفه مع بعضهم لا يحول دون واجب الوظيفة، كان الوكيل الاستاذ رمضان رجلا طيباً للغاية وعلى قدر وافر من نظافة اليد، إلا أنه على ما يبدو لايمحص مايصل اليه من معلومات، بالرغم من أنه لم يتجاوز اللياقة فى نقاشه ولم يصدر أي حكم، حدث ذلك عقب لقاء تم فى عطلة العيد حين مر هناك أحد ضباط الأمن النشطين الذى جرى أبعاده من هناك جزاء على مواقفه الصلبة وتم الحديث معه فى شؤون كثيرة من بينها الموقف من المحافظة ولكن دون الاقدام على أي خطوة فكان أن سبقت الإشاعات الوصول إلى طرابلس.

15

قبل أن يتفجر الموقف السياسي العام جراء الاصطدام الذى حصل بين الطلبة وقوات البوليس، فى منتصف يناير أو ما اصطلح على تسميته بحوادث 13 ـ 14 يناير 64 التى أدت إلى إقصاء الحكومة أصدر أحد الصحفيين المصريين الذين عاصروا التجربة السياسية التقليدية فى بداياتها الأولى (سامى حكيم) أكثر من كتاب متناولا الواقع الليبى من خلال أبرز الأصوات السياسية وأهم المشكلات التى أثارت الصراع وأدت إلى تغيير العديد من الحكومات وكانت جميعها تنطلق من أول رئيس للوزراء، من حيث نظافة اليد والحرص على تقوية السلطة المركزية والرقابة على الولايات من الناحية المالية، الامر الذى عورض بقوة.

وهى كتب لم يصرح بتداولها فى المكتبات الليبية فبدت وكأنها قد أعدت خصيصا لتلميع بعض الوجوه بل ومراكز القوى، هى كتب لم تأت بأشياء جديدة فكل ما حوته من معلومات كانت متداولة لدى كل من تابع مجريات الأمور، على أنها لم تكن كذلك لمن لم يتحقق لديه ذلك العمق إما لعدم الإطلاع على الوثائق، أو لعدم ملاحظة بعض الخصائص المميزة لعديد الرجال فضلا عن أن شيئا من التكرار قد طبع هذه

الكتب لكن المفاجأة كانت فى عودة الرجل مرة أخرى إلى الصدارة حيث عهد إليه بتشكيل الوزارة من جديد أي بعد عشر سنوات من ترك المكان.

وقد تزامن ذلك مع الموعد الوارد لإعادة النظر فى الاتفاقيتين المبرمتين مع كل من المملكة المتحدة «بريطانيا» والولايات المتحدة الأمريكية. وقد طرح، تأسيسا على ذلك، موضوع الإجلاء بقوة. وكان أكثر النواب يدفعون باتجاه عدم التمديد للمعاهدة وترسيخ فكرة الإجلاء ومن الواضح أن لإكمال مدة المجلس أثرها الكبير فى هذه المسألة فمادام الأعضاء قد اكملوا مدتهم فمن مصلحتهم أن يراهنوا على المطروح فى الشارع إذ ليس مضمونا لهم الحصول على مواقعهم مرة أخرى فأولى بهم أن يعمقوا ارتباطهم بالخيار الشعبى الذى هو فى اتجاه تحقيق الإجلاء هل كانت المواقف المعلنة حقيقة أم أنها مواقف مزدوجة تظهر موقفا وتتبنى موقفا آخر، كما هو شأن السياسة فى أماكن كثيرة ؟

يبدو أن ماطرأ على عديد المواقف من تغير، يمكن أن يصون المرء من تهمة التحامل والتشكيك التى قد يرمى بها، إذا ما قال إن مواقف كثيرة لم تكن مطابقة للواقع، فأكثر الذين رفعوا أصواتهم فى ذلك الزمن، معارضين للقواعد وداعين للإجلاء، كانوا فى بداية حياتهم شديدى التأييد لهذه القواعد، فهل هى الهداية الإلهية وحدها التى حلت وأدت إلى تغير المواقف.

لاشك أن السذاجة ستكون هي الصفة التي يستحقها كل من يقول بهذا، فإذا ما جاز الظن بأن البعض قد غير من موقفه عن قتناع، فلا شك أن الكثيرين لم يكونوا كذلك فأغلب الظن أن لرهان كان قائما على احتمال بقاء الأمور حيث هي، وبالتالي فإن الجهر بأي رأي لن يكون ضارا. من جهة أخرى فإن الذى لاشك فيه أن حدة الصراع بين القوى الاستعمارية لم تعد تسمح باستمرار القوتين. لقد بات من الضرورى أن يحسم الأمر وأن ينتهي ذلك الموقف الرجراج الذى كثيرا ما طبع السياسة الليبية، وأن الملل قد أخذ يتسرب إلى كل الأطراف، وأن مايجرى فى المنطقة لم يعد يسمح بذلك التردد الذى اتصفت به كل الممارسات كما أن قوى أخرى فى المنطقة كانت تنظر بفهم إلى ما بات يظهر من أشكال الإنفاق التى صارت تسيل لعاب الكثيرين وتفتح آفاقا لم يعد من الممكن أن يستمر الوقوف أمامها موقف المتفرج. إن الشعار الذى رفع يومئذ فى مقولة «لا تجديد ولا تمديد» لم يكن عاديا بأي حال من الأحوال. ولعل هذا ما أدى إلى التغيير الذي طرأ على شكل السلطة، إذ سرعان ما اختفت كل الوجوه التقليدية حتى إن الفارق فى العمر لم يعد مستساغا بين المسؤول الأول وعديد الشركاء ربما بطريقة فاقت السلف كلهم. إن الرأي العام كان فى عمومه غير واثق من امكانية تحقق الجلاء.

بل لعل الشعور السائد هو أن الجدية بالأساس ليست

موجودة إذ لا يمكن لمن أبرم الاتفاق في البداية أن يتولى مسؤولية الإلغاء، إن هذا الشعوريصدر عن نظرة تهمل أو تجهل بعض حقائق التاريخ إذ أن من أبرم اتفاقية 36 بمصر هو ذاته الذى بادر بالغائها سنة 51 فلماذا لا يتوقع مثل هذا الموقف ؟!، إن الكلام في هذا الموضوع كان في أغلبه يصدر عن رؤية غير مسؤولة لأنه يجيء كيفما اتفق ومن غير توقف أمام بعض السياسات، حتى إن أهم إجراء مس حياة الناس وتمثل يومئذ في التخفيض الذى طال ثمن السكر بنسبة 50 ٪ دون أن يتوقف أمام الإجراء أى من الوجوه الشعبية في حين كان قبل هذه الخطوة مطلبا شعبيا عرفته المجالس، لقد كانت مشكلة الصحافة من أبرز المشاكل المطروحة فلقد عمدت بعض الصحف التي جرى التصريح لها إلى استفزاز السلطة ومواجهة بعض الرموز إثر تفجر حوادث الطلبة وكانت في بعض تناولها شبه شخصية، على حين استطاعت صحف أخرى أن تدرك أبعاد اللعبة وتتفادى الضربة المنتظرة أما التي صدر بشأنها حكم من المحكمة العليا فما زالت تنتظر استكمال بقية الاجراءات لتشرع في الصدور وكان الوضع مبرراً التفادى الإحراج والوقوع في دائرة الاصطدام من البداية لقد اتضح فيما يبدو استحالة التفاهم مع بعض الصحف ولعل أصحابها أنفسهم لم يكن يعنيهم الاستمرار بقدر ما كان يهمهم تسجيل المواقف إذ توالت المواقف الاستفزازية فكان أن طبقت مادة من أخطر المواد

وهى المتمثلة بتدقيق الحسابات المنصوص عليها قانونا. إن الصحف لم توزع بما فيه الكفاية ولم تتحصل بعد على دخل مشروع يمكن الدفع به، ولم يكن من الممكن أن تثار مسألة التبرع فبدأ وكأن المخرج جاهز وأصدرت إدارة المطبوعات قرارات القفل بكل يسر.

- إن كل ضربة توجه بواسطة إجراء إدارى ماكر، يفترض أن تدعو إلى مزيد من التفكير والبحث لاتقاء ذلك مرة أخرى. ولهذا كان الاتجاه إلى مسألة التمويل بالنسبة للصحف طى الاجراء إن الأمر لم يكن يحتاج إلى كبير جهد فقد كانت الإعلانات التى تطرح من قبل لجنة العطاءات حول مشاريع الدولة كثيرة ويقتصر نشرها على صحيفتي طرابلس وبرقة وهما الصحيفتان الهامتان لدى قطاع النشر ومن ثم وقع السعى الى تعميم الإعلانات الحكومية على جميع الصحف مما اقتضى نقل الاختصاص من لجنة العطاءات إلى وزارة الأنباء والإرشاد، بل لقد استحدثت معونة تسدد لكل صحيفة معلنة وتقيد بصددها إيصالات. وكان حجم الإعلانات فى حدود الصفحتين وعدد صفحات كل عدد لايزيد على ثمان أي بنسبة 25٪ مما غدا يتكفل بتسوية مصاريف كل صحيفة بالكامل خاصة وأن ثمن الطباعة قد خفض بنسبة 50٪ إن بعض الامور تخضع للعلاقات الشخصية بدون شك وإلى ماتقدم الصحيفة من خدمات وما تبديه من أوجه حسن النية الا أن شيئا من الحد

الأدنى ظل مقررا وليس من حق أحد أن يعبث به. ثمة من يرى في هذا الوضع مساسا بحرية الصحيفة وحدا من تحركها ولكن وجهة نظر أخرى ترى أن المساعدة المعلنة والمقدمة من الدولة أفضل بكثير من أخرى تسددها شركة أو جهة أجنبية أو أي طرف من الأطراف غير الرسمية، كان من الممكن حسب هذه القراءة أن تؤدى الصحافة الوطنية جزءاً لا بأس به من مهمتها وتعوض الجزء الثاني في وقت لاحق، إذا ما تحلت بشيء من المرونة، وسلمت من المواقف الاستفزازية التي تجرى في الغالب نتيجة التسرع والافتتان بالمعالجات الاستعراضية ومن المهم أن تنطلق المحاولة الصحفية الناشئة من إهداء الورود لمن عارض الصدور بذات القدر لذلك الذى أيد ، إذ يحتاج المشروع وفق هذا الشعور إلى المرونة والمراهنة على المستقبل. وليس الوقوف أمام الماضي ومتابعة أي طرف عارض أو لم يبد حماسا أو اتخذ أي موقف غير ودى في أي مرحلة من المراحل كان ذلك ما تبناه حين سئل من قبل أحد الأصدقاء الذى ألح فى إقناع السلطات بتنفيذ الحكم الذى صدر بشأن مطبوعته. إن الوقوف في لعبة التقاطع يعتبر من أخطر ما يهدد المشروع الصحفي الوليد وتأجيل ذلك ولو لبعض الوقت وسيكون دائما هو الأسلوب الأمثل. كان ثمة فراغ ثقافي تعيشه البلاد وخسارة فادحة من بقاء معظم العناصر خارج الدوائر إما لأنها لم تدخل قطاع النشر وإما لأنها قد وضعت في أطر خاصة وبات من العسير

عليها أن تقتحم الميدان لهذا السبب أو ذاك. وتبعا لذلك فإن المواقف قد اختلفت إزاء ذلك الواقع الذى ساء فى منتصف الستينيات حين عرفت البلاد مجموعة من الصحف الخاصة سواء بواسطة أحكام قضائية أو بالتراخيص التى أعطيت استجابة لمساعٍ معينة وخبرة سابقة فى الحقل الصحفى الرسمى فكلا الموقفين ما كان لهما أن يحققا شيئا لولا العامل الشخصى، إن الهوية السياسية لم تكن غائبة، وان يكن ذلك بالنسبة للبعض أكثر وضوحا وإن شئنا أكثراستقامة. صحيح أن الحذر كان واضحا والعمل على تحرير البرنامج أكثر هدوءاً، ومع ذلك فقد كانت هناك بعض المواقف المقصودة أو شبه المقصودة، وكان الحوار بصدد ذلك لايجد مبرره المقنع فالعامل الشخصى كثيرا مايكون هو المحرك. وإن يكن لايخفى حقيقة المسؤولية الأكبر فيما يتعلق بمحاولات التشويش التى تكرست فى الفكر العربى وعن طريق بعض الممارسات المعروفة ولكن من الممكن غض النظر لو وجد من يعطى الأهمية لمشاعر الشارع، على أن السبب دائما يعود إلى الأرضية التى يجرى الوقوف عنيها، فمن كان لديه وزن عند أهله قد لايهمه ذلك كثيرا ومن يئس من التعاطف لن يهتم كثيرا هو الآخر، فالمسألة أولا وأخيرا تتوقف على المشروع المستقبلى. ومن الممكن تصنيف الصحف الفاعلة يومئذ فى أربع صحف إحداها فى بنغازى وثلاث بطرابلس. وأكثرها حضورا من الناحية التاريخية لم تكن تعول

كثيرا على الرأي بقدر ما كان محركها الأساسي الخبر وعلى الأخص ما يتصل بالأسرار وبعض الأحداث المثيرة، فيما عمدت الأخرى إلى الجمع بين الخبر والرأي، بالاضافة إلى مجموعة من العلاقات القوية مع عديد المسؤولين والنافذين اقتصاديا، بحيث كانت بعض المكاتب تجمع بين العمل الصحفي والحضور الشخصي. وتبقى في خضم ذلك كله تلك التي حاولت أن تنفرد بخطاب مختلف وشخصية ظاهرة في المادة والإخراج والممارسة، مع الحذر في بعض المواقف والجمود في بعض المواقف الأخرى، ومن الممكن القول إن أهم محاولة نظرية وعملية تلك التي انطلقت من بنغازى حين كان الحديث عن معنى الكيان ومشكلات الواقع وقضايا التاريخ ومفهوم الدين وتاريخ الكنيسة والأديان. وقد ضاعف ذلك أن الاذاعة لم تتخلف عن العمل الثقافي فقد كانت مجلة الاذاعة فضاء ثقافيا واسعا للغاية. كما أن مجلة الرواد كانت مشروعا للتخصص لقد فشلت فكرة إصدار صحيفة واحدة قدم بصددها تصور إلى مجلس الوزراء إذ رؤي الإبقاء على تجربة صحف الولايات لكن الذى لاشك فيه أن المجال قد فتح أمام عديد من الأقلام لا سيما بعد أن تأسست اللجنة العليا لرعاية الفنون والآداب والإدارة العامة للثقافة حين أجريت أول مسابقة أدبية كبرى شملت الشعر والقصة وأتاحت الفرصة لفوز مجموعة من الكتاب الشباب مما شكل نوعا من الاعتراف الرسمي رافق في ذات

السياق انفتاحاً على الجميع للإسهام فى النشاط الثقافى الإذاعى أدبا وفنا ونقدا مختلفا على السواء.

- كان الواقع يطرح أسئلته الكثيرة . والحضور تجاه الأحداث يختلف من شخص لآخر، لكن المبدأ موجود لقد أجرى الإحصاء العام تمهيدا لإجراء الانتخابات العامة. وكان التنفيذ سيئا عندما منع عدد من المواطنين من ممارسة حقهم فى الترشيح، وهو إجراء تم فى صمت مريب ومن دون أى مبرر، حتى إن هناك من التقط لمجرد أن أشار أحد بضرورة ترشيحه حين حجز المرشح الأساسى، على أن الخطير فى الأمر أن الذين فازوا لم يكونوا مقتنعين بما قدم لهم، إذ سرعان ما اصطدموا بالسلطة التى سهلت لهم الطريق منذ الأشهر الأولى. إما لأن تطلعهم أكبر، أو لإحساسهم بضعف السلطة وحاجتها إلى الدعم مما يلزمها بعطاء أشمل. فكان الإسراع بقرار الحل تحت مبرر ماشاب الانتخابات من شوائب، فى حين كان السر الحقيقى هو عدم التعاون وبالأحرى الرضى بالقليل، وليس كما أشيع لأمر يتصل بالقواعد الاجنبية أن الأمر فى حقيقته لايخرج عن الصراع الذى اشتد بصدد الغنيمة، إذ لم يعد هناك من يقبل بالقليل بالنسبة للذين تطوروا فى التجربة، فيما كانت السلطة وقمتها تحديدا لم تعد تقبل بأى شراكة، كانت تبحث فقط عن الإمعات وربما من هم أقل من الإمعات.

لقد اختلفت مواقف المثقفين إزاء هذا الوضع فالذين لديهم

حرص على التطور الديمقراطي يختلفون تماما عن الذين اعتادوا لعبة التشكيك غير المسؤول والرفض لمجرد الرفض فالعنصر القادر هو ذلك الذى يستطيع أن يختار أخف الضررين أما الرفض المطلق ففى أحيان كثيرة يكون الخيار الأسهل ومن المؤكد أن المنحدرين من الريف والمرتبطين به بشكل أو بآخر يختلفون فى مواقفهم وفى تجربتهم أيضا فهؤلاء بطبيعتهم أكثر اتصالا بواقعهم وأكثر مشاركة فى مصيرهم كان نصيب الجنوب قد بقى محدودا فى خمس دوائر وهو العدد الذى وضع منذ أول تجربة وتفيد بعض المعلومات أن القسمة قد تمت قبل عملية الاقتراع. وثمة من خصص له مقعد سواء فى سبها أو غيرها وكان أسوأ ما أثار الكثيرين قيام بعض السفهاء بالتعبير عن موقفهم بواسطة رجم الحجارة دون أي خشية من العلاقات السابقة والمكانة السابقة أيضا عند الجماهرة باستهجان الموقف تبين أن أكثر الذين قاموا بذلك الصنيع المشين كانوا إلى وقت قريب فى مقدمة من يصفق فهو إذاً الكذب فى الأولى والثانية على السواء. لقد أقبلوا مع الدنيا حين أقبلت وأدبروا حين أدبرت.

– مثل هذا التحليل التبريرى مريح للنفس دون شك والمعركة بالكامل هى معركة مراكز القوى بدليل أن الاستقطاب يجرى اليوم نحو عناصر كانت إلى وقت قريب ذات مواقف مختلفة. انها السياسة التى لاتعرف الصداقة وإنما تعرف

امصلحة. كان الذين يعنيهم الأمر بالدرجة الأولى هم المتطلعون إلى مراكز الإدارة فثمة من تكون عينه دائما على هناك ولذلك يكون حلمه الفوز بالمقعد النيابى والحيلولة دون من يمكن أن يفوز به فى مكان آخر إذ يكون سبيله هو الآخر نحو ماهو أكبر. إن المعارك تحسم عند تقسيم الدوائر وكذلك التسجيل وقد أحكم التخطيط فى مناطق كثيرة وفقا لما يقول الخبراء فى هذا السبيل لمجرد أن وضعت مناطق كاملة مع جزء من منطقة أخرى، مما يعنى أن المنحدر من المنطقة الكاملة ستكون حظوظه فى لنجاح أوفر وأوفر. أما الذين لم يحل بينهم وبين خوض المعركة ووقع التغيير فى دوائرهم فقد خسروا فى حقيقة الأمر من جهتين بطولة المنع والنتيجة المحسوبة سلفا، وإن لم يكن البعض قد كسب الأمان من حيث موقف السلطة وبالأحرى عقدة الملاحقة. كما أن التسجيل شهد في مناطق محددة تلاعبات كثيرة أفضت في نهاية المطاف إلى مفارقات مختلفة، فما أكثر الذين عملوا على ضمان تسجيل مناطق معينة آملين ولاءها فإذا بها تغير الموقف آخر المطاف. وقد كان أدق موقف ذلك الذي واجهه إدريس الشغيوي حين قرر منافسة الشيخ عبد الرحمن وهو العنصر القادر أكثر من غيره. بصرف النظر عن مواقفه التي يختلف بصددها البعض. لقد اختار إذ لم يمنع من الترشيح ومنع غيره، رفض فكرة الانسحاب حتى لا يتهم بأن الهدف من التقدم إلى المعركة كان مساومة وليس مسألة مبدئية ولم يجد

بالتالي سبيلا سوى أن يختفي إلى يوم الاقتراع أو قبله بقليل ليترك الأمر إلى جماهير الشعب دون غيرها.

استوطن الشغيوي المدينة عقب إعدام والده شنقا في مذبحة هون التي جرت سنة 1928 حين استقرت الأسرة بطرابلس ونزحت في فترة الحرب إلى جنزور وعقب الحرب كان ضمن الذين تطوعوا لفلسطين. عمل في بداية حياته في التعليم ثم انتقل للجوازات (القسم المدني) ومارس الرياضة والمسرح، حتى أصبح علما لا تخطئه العين ولا يخلو منه موقع من المواقع. شجاعة في غير سفه ورجولة في غير إدعاء ونفس كبيرة لا تقبل بما دون السماك. علاقات واسعة مع معظم طبقات الشعب، صلة جيدة بمسقط الرأس مكانة ممتازة لدى معظم مجايليه، كان على ما يبدو متصلا بالصراع الدائر حول بعض المواقع. لم يكن الرجل طرفاً في ذلك بدون شك، فقد خاضه من حيث لا يدري ومن المؤكد أن من راهنوا عليه كانوا يعرفون الرجال فقد صمد حتى النهاية. أمن له صديقه بشير المكان وتولى توفير مسؤولية الأسرة وظل هو مختفيا إلى حين الموعد ربما يكون ذلك قد قلل من دوره إلا أنه حقق له العون الذي ينشده وإن لم يكن يعجب الذين حيل بينهم وبين الترشيح عندما تبنوا فكرة الانسحاب وربما كان ذلك منطقياً أما الشغيوي فقد كان وضعه مختلفا إذ لو انسحب فستكون التهم جاهزة، سيقال فقط إنه قبض الثمن، فكان لابد من المضي في الموقف حتى النهاية لكن

القوى الأخرى تخلت ولم تبذل أي جهد إذ لو بادرت بالتحرك لأمكن تحقيق نتيجة جيدة.

- كانت هناك ثلاث مجلات شهرية حملت بشكل أو بآخر مسؤولية الثقافة بشقيها الفني والأدبي : اثنتان جمعتا بين الأدب والإعلام هما ليبيا الحديثة والإذاعة، وواحدة اختصت بالأدب والفكر هي مجلة الرواد. إن مجلة الإذاعة في الحقيقة كانت أكثر رسوخا من حيث القدم فقد تأسست منذ تأسيس الوزارة غير أنها همشت في السنوات الماضية وكادت ليبيا الحديثة أن تتجاوزها. إلا أن اسناد المصلحة إلى مصطفى إثر عودته من مصر، جعل المجلة أكثر حيوية بالإضافة إلى مبادرات المدير الفني (فرج)، كان مصطفى قد قضى فترة طويلة بمصر كملحق ثقافي وارتبط مع كل الطلبة الدارسين هناك وتكونت لديه خبرة واسعة ما لبث أن استفاد منها في مهمته الجديدة، عندما استحدث فكرة نقد البرامج الإذاعية أو العمل على تطويرها بالأصح، فأمكن بذلك أن يستوعب الجميع وأن يحول دون النقد في الصحف الخاصة حيث يتحول النقد في أحوال كثيرة إلى نوع من القدح والتحامل. كانت أعمال الإذاعة تثير الكثير من النقاش وتستحق الكثير من الآراء ووجهات النظر فتحقق من وراء ذلك كله مناخ جدلي لا بأس به أفلح في سحب البساط من جهات كثيرة استمرأت لعبة مهاجمة مرفق الإذاعة وبرامجها حتى إنه من الممكن القول لو كان الرجل مختصا بكل

المطبوعات لاستطاع أن يحدث حركة غير عادية وأن يحقق نشاطا كانت الحياة الثقافية في أمس الحاجة إليه، وقادرة على تفعيله وإغنائه. كما أن الأركان الثابتة والبرامج الثقافية الناجحة ظهرت هي الأخرى فنتج عن ذلك متابعة عديد الإصدارات وعديد القضايا الفكرية ذات الحضور في الشارع العربي الثقافي.

لقد أمكن وضع القدم على السلم في مجال النقد الأدبي والاجتماعي سواء عبر الأعمال الأدبية التي نشرت محليا أو التي كانت ترد من الوطن العربي، فضلا عن المسائل الاجتماعية والقضايا التي ملأت الحياة. وقد تزامن ذلك مع الانتقال من ديوان الوزارة إلى وظيفة أدنى بمصلحة الإعلام إلا أن ذلك لم يقلل من الدور الأساسي المتمثل في القراءة والكتابة، لقد أسر له يومئذ الصديق عمر الفرجاني أن ثمة رغبة أبديت ترمي إلى عدم إعطائه وظيفة قيادية في الإعلام، وأن الأمر يشمل صديقه "كامل" لكنه استبعد ذلك فحبل الود مع خليفة كبير للغاية والعلاقة معه توطدت أثناء ترؤسه للجنة العليا للإذاعة الليبية ويمكن أن يصرح بذلك لو صح النبأ غير أنه كان في حيرة من أمره بالنسبة لقرار النقل، وربما عزاه إلى المسؤول الثاني على أنه اختير عضوا في هيئة تحرير مجلة الرواد في وقت لاحق وكذلك الإدارة العامة للثقافة والفنون وتم يومئذ تقييم كل الأعمال الأدبية التي طبعت ووقع تناولها بصراحة وموضوعية

ودون هيبة من أي اسم. إن الكتابة في مجلة الإذاعة كانت تتم عبر ركن موسع اطلق عليه عنوان شؤون ثقافية، فضل أن يوقعه باسم مستعار هو "ابن القيم" وكان ذلك الباب نافذة شبه شهرية أمكن بواسطتها تناول معظم القضايا المطروحة ومتابعة ما يثار في الوطن العربي بالإضافة إلى تسليط الضوء على عديد الانتاج الذي اتصف بالالتزام بالأدب والفن. فقد عرفت الحياة الفكرية مستوى من الازدهار نتيجة الاستقرار الذي ملأ الحياة المصرية، والمنعطف الذي دخلته الناصرية حيث مكنت جميع الفعاليات الفكرية من استلام دورها في التجربة الأدبية وعلى الأخص عقب الاصطدام الذي حصل مع قوات اليمين بقيادة الإخوان المسلمين. مما جعل المجلات الثقافية الليبية جزءا لا يتجزأ من الحياة الثقافية العربية، لا شيء يهمل من المتابعة، يوسف إدريس وجائزة حوار، غالي شكري وأزمة النشر، معين بسيسو وخلافه الحاد مع البياتي، محمود أمين العالم وانجازاته الفكرية ومعاركه التي لا تعرف التوقف كل ذلك مع عدم إغفال أهم الرموز الثقافية الليبية وعديد القضايا التي أثيرت في سنوات بعيدة في محاولة دؤوبة لإنعاش الذاكرة وإعادة قراءة منتوجها القديم. ولا شك أن خليفة كان صاحب فضل كبير في هذا الصدد بما تميز به من ترفع صادق عن أي شكل من أشكال الملاحقة، وتسامح محبب تجاه الهوية الفكرية التي كانت بالنسبة للجميع واضحة، بل أنه قد عمد إلى أكثر من ذلك حين سعى إلى تحسين

أوضاع العاملين في حقل الثقافة من الشباب على وجه الخصوص والذين كانت أوضاعهم الوظيفية سيئة للغاية، فنظمت مجموعة من المسابقات المقصورة التي أعطت الفرصة لتحسين درجاتهم والرفع من مستواهم حتى لم يبق واحد منهم في وضع سيء وحين حاول البعض أن يحابي ويتخذ من ذلك الأسلوب وسيلة للقفز غير المعقول وغير الشامل للأكثرية ولقي الأمر معارضة من الأقلام الشجاعة كانت مبادرته بالتدخل ووقف كل المحاولات الرامية إلى الإخلال بالتوازن وإعطاء البعض حقوقا ليست لهم وما كان لهم لولاه أن يتبوؤها. لقد كان هذا الموقف المتعقل علامة من علامات الإصغاء لما كان يعتمل في الوسط من آراء وما كان يشوب بعض الأجراءات من الاستخفاف بالمسؤولية، وعدم مراعاة مبدأ العدالة في المعاملة وتكافؤ الفرص في القرارات والقدرة على العودة إلى الصواب، ولو بعد قطع بعض الخطوات في الدرب الخاطيء. لقد كان الوسط العام مشغولا بعديد الأمور؛ ففي حين يصر البعض على رفض الواقع جملة وتفصيلا. كان ثمة من ينصح بضرورة اقتحام الواقع والمساهمة في الجهود الرامية لإصلاحه من الداخل، إذ من الممكن ـ حسب هذا الفهم ـ أن يكون المرء داخل الدائرة ويعمل في صمت ويسعى إلى تأسيس ممارسة فرصته متنزها عن استغلال النفوذ والإثراء غير المشروع، خاصة عندما صار الإنفاق العام يشكل فضاء يسمح بالاستفادة القائمة على الجهد

والمـرأة من فـسـاد الذمة والدخول في دوامة الانحراف. على أن دور الكلمة كـان ضعيفا والتعويل عليها في مجال الكسب غـير ممكن، اللهم إلا العمل الصحفي الخاص، لكن الظروف لم تكن مناسبة ليتحصل كل من يريد على رخصة لإصدار صحيفة خاصة أو ما في حكمها، فجميع المهن الأخرى غدت تنظم بواسطة التشريعات التي تشترط شيئا من التخصص أما الصحافة فقد كانت إلى حد كبير غير منظمة التنظيم الدقيق، إذ يكفي أن يفلح المرء في كتابة موضوع يقترح عليه ويدرس تاريخ ليبيا منذ الغزو الايطالي وحتى الاستقلال. ولعل واقع الحياة لم يكن ليسمح بغير هذه الوضعية، وإن تكن بعض التراخيص قد صدرت بطريقة عجيبة وبعض التشجيعات كانت لافتة للنظر، ومتجاوزة للأصول والظروف الموضوعية، كما أن نبرة الدعاية أخذت تتطور يوما بعد يوم، بالرغم من أن رأس الهرم في وزارة الإعلام لم يكن شريكا في هذه فهو ـ كما سبق وقلنا ـ بعيد عن كل هذا. ويكفي أنه طيلة تقلده منصب الوزارة لم يكتب في أي مناسبة من المناسبات الرسمية، بل لعل موقفه النقدي من شعر المناسبات قد طبقه بحدة في الموقف الثقافي الرسمي، إذ لم تشترط أي مسابقة من المسابقات أن يبحث النص الشعري مثلا معبّراً عن أية صفة من الصفات التي كثيراً أغرقها الإعلاميون في شجاعة من دون أي تعقل أو روية. ولا شك أن هذا الفهم هو الذي أدى إلى فوز ثلاثة شعراء من أنصار

التجديد في أول مسابقة أجريت على مستوى البلد، وجميعهم من الذين يعادون في العمق كل شعر يفضي إلى المدح ويروج للمداهنة، أو يقبل بأي شكل من أشكال التخلف، بل وقد كان من بينهم من سبق وأن قدم للمحاكمة لنشره نصا شعريا رؤي فيه المساس بالعقيدة الدينية والترويج للمباديء الهدامة وهي التهمة التي يرمى بها كل من يعادي بشكل أو بآخر ما يطرح رسميا في المجتمع. لقد كان ذلك كله من الأمور اللافتة للنظر في نظام تقليدي تتمتع فيه المؤسسة التقليدية بالسيطرة. إنه الوضع الذي لوحظ في القصة القصيرة أيضا حيث كان الفائزون من حملة الفكر التقدمي ؛ اثنتان كانت في غاية من المقاومة ابتداء من القواعد الأجنبية التي لم تخف بعض النصوص مقاومتها لها بشكل لا يقبل المواربة ومن أكثر الرموز وضوحا وأقربها إلى إدراك الناس كما جاء في قصة"الكرامة"أو في إدانة المجتمع الرأسمالي كما في"البذور الضائعة"فضلا عن كشف النموذج المتخلي عن القضية الاجتماعية (مفتاح) أو ذلك الوالغ في ملاحقة المناضلين أو المتخاذل أمام العقيدة المعادية (الرجل الآخر) إلى جانب بعث النموذج الشعبي البسيط الذي يكدح من أجل لقمة العيش والسعي من أجل الحاجة (عليوة) تلك القطعة التي مجدت بذكاء وعمق صمود الإنسان وإصراره على توفير لقمة العيش وعدم الاستسلام لمؤامرات الاحتكاريين الذين لا يتورعون عن ابتزاز أبسط الدخول التي تأتي عادة من

الصحف.

لقد أتاح الانتاج المقدم للمسابقة والفائز بالضرورة مناخا واسعا للنقاش والتقييم، وكان ذلك متزامناً مع صدور بعض الكتب الرائدة في النقد والقصة أيضا مما أدى إلى نشاط الكتابات المتعلقة بشؤون الإبداع بشكل عام فكان ذلك الازدهار وتلك الخصوبة التي تجاوزت كل السنوات السابقة وربما اللاحقة أيضا.

16

إن الواقع العام كان في الحقيقة، يدفع بالأزمات، الواحدة تلو الأخرى، فبالإضافة إلى عدم الاستقرار الواضح، في السلطة التنفيذية، حيث تكرر تغيير رؤساء الوزارات بواقع كل عشرة أشهر أكثر من مرة مما أصبح يشير إلى قلق يسود النظام بالأساس ناهيك من كلام كثير يتصل بخلاف بين القصر ورجال الحاشية، فتأكد بالتالي أن لذلك علاقة بالقوى الدولية المتصارعة. كما أن الإجراء القاضي بحل مجلس النواب تحت مبرر عدم النزاهة في الانتخابات قد فقد مصداقيته هو الآخر وذلك عندما حصل التدخل مرة أخرى وبشكل أكثر وضوحا سواء من حرمان المرأة من التصويت مع أن القانون ينص على ذلك أو كسر الصناديق على مرأى ومسمع الناس. ليس هذا فحسب، بل طال الاستخفاف بالقانون تعديلا كان قد طرأ على إلغاء مبدأ تعيين الموظفين من منطلق المفاضلة، والاحتكام إلى الأقدمية دون غيرها، فحصل التجاوز في حالات كثيرة وفي مخالفة واضحة للقانون. فضلا عن فترة انتقالية استمرت أربعة أشهر أمكن أثناءها مساعدة جميع المحاسيب والمقربين لهذا المسؤول أو ذاك، فاضطر الذين جاؤوا بعد ذلك إلى المضي في مخالفة القانون واعتبار النص حبرا على ورق وكان لذلك كله

أثره البالغ في فقدان المصداقية وعدم الثقة في أي مسؤول .

لقد أدت زيادة الاستثمار في مجال النفط إلى وجود وضع اقتصادي أكثر رخاء ونتج عن الإنفاق في قطاع الخدمات زيادة ملحوظة في مجال الاستخدام وانعدم وفقا لذلك دور الفئات الوسيطة وصار من المتيسر على كل من يبحث عن عمل أن يجد فرصة من دون وسيط معروف. لكن ذلك كله لم يخفف من السخط العام والترويج للموقف السلبي. إن ظاهرة عدم الاحساس بالمسؤولية بصدد ما يتهدد سلامة المجتمع من الأمور المخيفة لما تنذر به من إفساح المجال للدعوات المتطرفة والمواقف غير المسؤولة كما أن وجود قاعدة عامة شعارها الرفض والتشكيك وعدم الثقة في أي شيء محلي، تبدو أحيانا باعثة على السرور، عندما يتهيأ لمن يركب الموجة أنه قد أصبح عنصرا قياديا قادرا على التأثير في حركة الجماهير، في حين أنها بقليل من التدبر لا تبدو كذلك، ولا تبعث على أي قدر من الاطمئنان. ذلك أن التيار العام يسير بهذه الكيفية، وليس ثمة من دور لأولئك الذين يعتقدون أنهم يقودون المسيرة، بدليل أن أيا منهم حين تسول له نفسه أن يغير موقفه، لا يجد معه أحدا، والسر هو أن التيار العام فوق الأفراد.

كانت الطفلة الثانية قد عانقت الحياة، وأخذت تضيف أعباء جديدة. إن المرء يفرح في البداية بأولئك الذين يملأون الحياة بهجة، فهو يجد في الأولى تسلية للأم التي اقترن بها، لا سيما

حين تكون منحدرة من مسقط الرأس، وليس ثمة أقارب، كما حصل في البداية عندما جاءت الأولى، أما هذه المرة فقد تغير الوضع تماما إذ أفلح في الانتقال إلى منزل آخر، إلى شارع اسيدي الذي حل به"العديل"حين أمكن نقله بموجب مساعٍ لدى السيد حسن، وصار من حقه أن يتمتع بالسكن، باعتباره منقولا من خارج المدينة فذلك هو الأسلوب المتبع، إسكان وأثاث في ذات الوقت.

لقد خلد بهذه الطفلة اسم الجدة (للوالد) وكان لذلك أثره لدى الجد الذي سره ذلك، لما انطوى عليه من الوفاء من ناحية، ولعدم الاتجاه إلى الأسماء المستحدثة من ناحية أخرى، فهو لا يميل كثيرا لما أخذ يملأ الحياة من تهالك على الأسماء التي شاعها الفنانون، وإنما إلى الأسماء التقليدية أو التراثية إن شئنا. إن الجدة في الحقيقة لها حضور في الوجدان فقد كانت مثالا نادرا في العطف والود،كان غيابها في مطلع العمر من الاحداث التي ملأت القلب حزنا وجسدت وجه الموت الكريه عندما واصل هجماته عقب الحرب وما رافقه من كساد موحش في كل شيء وها هي الآن تعود إلى الوجدان من الاسم الذي اختاره وهو على أي حال إسم أحب زوجات الرسول اليه لقد اكتملت الصورة في البيت ابتداء من الزوجة الكبرى فابنتها الأولى وتثلث الآن بالصديقة بنت الصديق.

إن الوضع المادي هو الآخر قد أخذ في التحسن، اذ استطاع

أن يحل مشكلة المواصلات بشراء سيارة جديدة "فيات 1500"، فقد أدخل نظام التقسيط، أفلح في تجميع الدفعة الأولى ومن ثم قسم المتبقي على أقساط، كان ما يهمه هو أن تكون الالتزامات المالية واجبة التسديد يمكن أن تدبر من الراتب الأصلي وليس من خلال العلاوات فلقد آلمه ذلك الوضع الذي عاشه أبرز الأسماء الإعلامية، حين تقرر نقله بضغط من الجامعة الإسلامية وكان مرهقا بالالتزامات المالية ومن بينها قسط سيارة (المرسيدس) وغدا يشكو في كل مكان ويوسط جميع الأطراف للتغلب على الأزمة فآثر من البداية أن يضع نصب عينيه هذه النهاية المحتملة، ذلك أن المرء ابن التجربة ومن المهم دائما استخلاص الدروس، كانت كلمة الشيخ سالم جميلة :

– السيارات مثل النساء أكثرهن بركة أخفهن صداقا.

إن الواقع الفكري لم يكن معتمدا على الليبيين وحدهم فثمة عدد لا بأس به من المستنيرين العرب لعل أبرزهم أولئك الذين ينحدرون من أصل فلسطيني عندما عملوا في البلاد منذ الخمسينيات، ومنهم من كان يحضر للحركة الوطنية الفلسطينية التي بدأت في تلك الأيام. كان الحضور في البداية مع مشاريع النقطة الرابعة وغيرها من الأنشطة التي ارتبطت بالأمريكان ومع ذلك كان لها دورها الوطني الفلسطيني، كان موقف بعض الهيئات والجهات منصرفا إلى استيعاب العناصر الفلسطينية في حين عملت هذه العناصر على إخفاء هويتها

السياسية فعمدت إلى الانغلاق على نفسها وتجنبت الدخول في أي حوار يؤدي إلى كشف هذه الهوية فقد كانت في الحقيقة ذات اتجاهات يسارية بالأساس، سواء تم ذلك عبر الموقف القومي التقدمي أو الأكثر وضوحا ومع ذلك اعتقد الكثيرون أنها عناصر أمريكية حين ارتبطت بقطاع الإعلام، لقد دخلت كما سبق القول عن طريق النقطة الرابعة ثم ارتبطت بالإدارة مباشرة وركنت إلى الإقامة المستديمة، ودخل بعضها في حالات من المصاهرة وقد كان أبو علي واحدا من هذه العناصر التي أفلحت في إخفاء الهوية سنين طويلة. إذ كان السواد الأعظم يرون فيه مثال العنصر المرتبط بالدوائر الغربية في حين كان يساريا واعيا للغاية. بيدا أنه لا يفصح عن ذلك إلا عندما يعرف محدثه ويقف على ممارساته، كان مدركا لخطورة الواقع وصعوبة الحياة وتعقيداتها ولذلك تحلى بقدر لا نظير له من التحفظ والهدوء فظن أنه من رجال الإدارة الامريكية وما دروا أنه يقضي أصعب الفترات حين يحين موعد تجديد العقد فلا يجد سوى الخلص من أصدقائه لتسهيل هذه المهمة. إن الجهات الأمنية تدري دون شك حقيقة الرجل ولكنها على ما يبدو فضلت أن يكون ذلك سرا من أسرارها. ومع أن الدليل تم الوقوف عليه لمجرد انفجار حوادث الطلبة حين لم يبادر بإعداد البرامج الإذاعية التي طلبت لتلك المناسبة وأفلح في التخلص بطريقة مقنعة، إذ عزاها إلى عدم الرغبة في منافسة الليبيين ليس غير، فيما كان الباعث

الحقيقي هو الترفع عن الممارسة السيئة.

وقد كان من أهم ما تميز به الرجل ووفر له قسطا وافرا من التقدير حدبه على كل عنصر قادر، أو تبدو عليه بدايات المقدرة بالأصح ولكنه سلك إلى ذلك أكثر من أسلوب بما في ذلك استدرار عطف الآخرين حين كانت البرامج تقر من اللجنة العليا للإذاعة وكان هو عضوا أساسيا في تلك اللجنة كان ما يهمه في الحقيقة هو الأخذ بيد من يريد الأخذ بيده سواء بلفت النظر نحو الكفاءة أو بإثارة مسألة الحاجة وسوء الحالة الاقتصادية، وما ذلك إلا لما توفر له من دراية بالجانب الإنساني لدى أولئك الذين يعملون في تلك اللجنة. على أن من أهم ما اضطلع به إن لم نقل الأهم بالكامل هو مشروع "التلفزيون" الليبي، وهو مشروع بحساب الزمن ضخم للغاية، سواء من حيث الإنشاء أو الصيانة أو التدريب، وهو تأسيسا على ذلك سيتكفل بتحقيق شيء من المردود لكل من اعتاد أن يستفيد من إبرام العقود المالية مباشرة أو بواسطته، وقد حصل الصراع بصدده في أكثر من وسط، وحاول أن يظفر به أكثر من طرف يهمه أن يكون وكيلا عن الشركات المنفذة.

ومن هنا كان المستشار موضع ضغط من أكثر من طرف وفيما كان خليفة شديد الاعتماد عليه من حيث تحقيق أفضل الشروط وسد كل الثغرات كان ثمة آخرون لا يخفون ضيقهم من وجوده غير المريح بالنسبة لهم. لقد كانت متابعته جيدة للغاية وعلى

الأخص فيما يتصل بالمواصفات الفنية ليكون التنفيذ فوق الشبهات أو هي محاذير من المهم أن يقع التفطن لها قبل الدفع بالمشروع إلى الجهات المختصة بإبرام العقد، وكانت يومئذ لجنة العطاءات مركزية، حيث جرت إحالة المشروع كاملا غير منقوص من حيث مواصفاته وشروطه والضمانات اللازمة للتنفيذ وتم الإعلان عنه، وكادت اللجنة أن تبت فيه، لكن الوزارة بادرت بتأجيل المشروع بموجب رسالة من خليفة الذي قال كلمته المعروفة لو نفذ في زمن (محمد بن عبد الله) فلابد أن يلحقه حديث إفك جديد.

بمعنى أن العطاء الذي كانت قيمته تصل إلى اثني عشر مليون دينار، ليس من المعقول أن يمر بدون عمولة، لأن العمولة ستدفع لهذا الطرف أو ذاك، فليس أمام الوزير إلا أن يعمد إلى إلغاء العطاء وتأجيله حتى يقع التنفيذ في عهد غيره اتقاء للشبهة التي يمكن أن تطال المرء بسهولة شديدة. كان واضحا أن الفترة التي يمكن أن يقضيها قد استنفذت ومن الضروري أن يشمله التعديل المنتظر آجلا أو عاجلا لقد أخذ بأسهل الحلول تجنبا لمراعاة بعض الاعتبارات وترجيح كفتها عند اتخاذ القرار.

كان وضع المستشار في حقيقة الأمر حساساً للغاية، وبقدر ما كان يهمه أن يطلع أصدقاؤه المثقفون والمشتغلون في الحقل الصحفي على حقيقة الصراع الذي يشهده القطاع والفرق الكبير بين مسؤول يترفع وآخرين يهمهم الكسب من أي

طريق. كانت خشيته كبيرة من عدم توفر السرية فهو في النهاية رجل غريب وقد يمس ويساء إليه في أي لحظة من اللحظات.

إن الحوار مع هذه العناصر لا يتوقف عند حدود معينة ولكنه يشمل القضايا مجتمعة، فثمة تداخل بين عديد القضايا، وإن يكن العمل الصحفي من أهم الفضاءات التي لم يتم فيها التحرك وتبدو الحركية في الحرص على إثارة عديد القضايا الدولية والعربية، وفي أحيان كثيرة بدون توقيع، فكان لذلك الإسهام أثره الفاعل في ترشيحه لبعض الصحف وإعطائها نكهة تختلف عن جميع الصحف الموجودة كان أكثرهم يومئذ مشغولا بالقضية الفلسطينية التي تتلمس طريقها نحو آفاق أخرى عند تشكيل فصائل المقاومة، حين شاخت قيادة المنظمة، واستهدف السيد أحمد الشقيري بحملة صحفية شعواء ركزت على سلبياته الكثيرة وعجزه عن إدراك المستجدات.

لقد كانت شخصيته كاريكاتورية إلى أبعد الحدود، كما أن النقد الموجه إلى ممارساته كان مطابقا إلى حد كبير لواقع الحال. إن الصفحة ذاتها وهي التي عنونت بالصفحة الثالثة كانت تجربة متفردة في الصحافة الليبية، من حيث التناول ومحاولة التعبير بما في ذلك اختيار الصور الدالة على الموقف والكفيلة بتفصيل الخطاب المقصود والأثر المستهدف لدى المتلقي، كان ذلك موضع متابعة من أوساط كثيرة بعضها يتم إقناعه وبعضها

يستفز وقد يضطر إلى القبول بذلك مكرها. إن أكثر الشخصيات إثارة للجدل وأدعى إلى التفكير والتأمل، هو الشاعر معين بسيسو وهو الذي خرج من غزة ذات يوم وحل بمصر عقب نكبة فلسطين وانغمس في أتون الحركة الوطنية المصرية، ضمن الفصائل التي نهجت النهج اليساري فنعتت بالشيوعية أحيانا ووقفت عند التقدمية أحيانا أخرى. لكنها في جميع الأحوال كانت عنيدة في موقفها ضد الغرب انطلاقا من بريطانيا وفرنسا في البداية والولايات المتحدة في نهاية المطاف. وهي فصائل رأت في أمريكا قلعة الاحتكار العالمي، وقمة الإمبريالية، والقوى المناهضة للمعسكر الاشتراكي الذي يقوده الاتحاد السوفيتي وتمثل فيتنام ضميره النضالي، والصين زخمه الكبير، فهذا الرجل الذي قضى في سجن الواحات سنوات طويلة ضمن المثقفين المصريين الذين اصطدموا بالتجربة المصرية الجديدة ووقعوا ضحية في أيدي بعض الزبانية من أمثال حمزة البسيوني وغيره كثيرين، يجيء وهو شديد الإنحياز إلى عبد الناصر مضربا صفحا عن كل المتاعب التي لاقاها في ذلك. ولكنه يحل ضيفا بمنزل فاروق ذلك المثقف الناضج والشقيق الأكبر "للصهباء" زوجة معين والتي بقيت سنين طويلة تنتظر خروج معين من السجن، ثم ينزح بعد ذلك إلى ليبيا وبيروت منذ كانت حبلى بطفله الأول توفيق إلى جانب شقيقته داليا دون أن تضعف أو تلين لها قناة. معين نسي كل ذلك متجاوزا

أزمته الشخصية قابلا بسلامة النهج التحرري الذي نهجه عبد الناصر القائد الوطني الشجاع. كانت هذه المواقف قد تناقلتها الأخبار كثيرا من باب الإشادة بأولئك الذين يتجاوزون تجاربهم الشخصية المريرة رهانا على الواقع العام للجماهير.

ولكن مجيء معين والاقتراب من تجربته الشخصية المؤثرة. كان أمرا مختلفا للغاية. من جهة أخرى لأن بعض القوى المعادية كانت تعتبر هذه المواقف من قبيل التكتيك السياسي وليس بدافع التجرد الإنساني وبالتالي فإن الوقوف على الواقع من خلال شخص مثل معين بسيسو كان له أثره الكبير وكان له كذلك معناه بالنسبة لكل من يحاول أن ينتهج مثل هذا النهج الذي يتطلع إلى تجاوز الذاتي والانتصار دوما للموضوعي.

لم يطرح معين مشاريع إعلامية كما فعل غيره، ولم يبد أي رغبة في الحديث عبر الإذاعة ولا نشر شيء ضمن منشورات الإعلام الليبي بما في ذلك المادة التي جمعها عن التجربة الأدبية وكون بصددها رأيا إيجابيا نشرت بطريقة شبه ذاتية.

لقد سر بمستوى المتابعة التي توفرت لعديد الكتابات والقضايا التي كانت تثقل الحياة الأدبية العربية، وما كان يطرح من حوار جانَبَ في أحيان كثيرة الموضوعية. كما أن آراءه بصدد مواقف بعض الرموز العربية التي اتصفت بالتذبذب وعدم الثبات على المبدأ، كانت مبنية على بعض المعلومات الدقيقة، وقد سوغ لها الإقناع ما اتسمت به من ترفع عن ردود الأفعال

والكلام الشخصي واللجوء إلى الانفعال والتزكية المنفرة للذات، كما لوحظ على غيره من الذين شرعوا في المجيء إلى البلد من كل مكان من الأرض العربية، مسهمين في العملية الإعلامية الساذجة. لقد عجمته تجربة النضال السياسي، فتعلم كيف يمكن للشورى الحقيقي أن يشيد بدور من يخالفه الرأي، حين تفرض الموضوعية ذلك، فتراه شديد الاحترام لبعض التيارات المخالفة وما تميزت به من التآزر الصادق أمام محنة السجن. يفيض في الحديث عن دور ثروت عكاشة ذلك الرجل المستنير الذي تولى مسؤولية وزارة الثقافة، فكان خير من أفلح في الجمع بين السيف والقلم كما يقولون. ويفلح في اكتشاف الصور التي تنفرد بها نصوص علي صدقي عبد القادر والتي رأى فيها قوة الاستثارة والتنزه عن التقليد والمحاكاة. ويثمن تثمينا عاليا القراءات الواعية لتجربة غسان كنافي وأشعار توفيق زياد وكثير غيرهم. إن الموقف من القضية الفلسطينية لا يقف عند هذه الكوكبة من المثقفين التي كانت تتحلق في جلسات متواصلة تدرس وتتأمل وتخطط، وتتبادل الرأي، كما أنه لا يتأثر بالشعارات ولا ينطلق من الحماس المفتعل ولا تؤثر فيه الأحكام المطلقة بقدر ما يعتمد النظرة المواعية والفهم الجيد بطبيعة الملابسات المتصلة بشكليات النضال المرتبط بكل قوة بحركة الواقع العربي في تعقيداته المختلفة، وهو ارتباط بدأ منذ أن بدأ تنفيذ المؤامرة الاستعمارية الرامية إلى غرس الكيان

الصهيوني وما رافقه من طرد يهود الوطن العربي وبالتالي توفير شيء من المبـــرر لطرد الفلسطينيين، ومن ثم تعـريب المشكلة وطرحها في إطار تبادل السكان وهو ما روجت له أوساط كثيرة في الرأي العام الدولي. كان هناك استبشار بحركة المقاومة التي بدأت بعد يأس وأفلحت في إعادة القضية إلى دائرة الاهتمام بيد أنهم بالقدر ذاته يدركون ما كان يلوح في الأفق من متاعب وكذلك حتمية الصراع الذي لا مفر منه. إن القضية في هذا التصور، ليست عاطفية وكذلك في إطار الموقف العربي الراهن، وإنما نتاج واقع تاريخي طال أكثر من قطر عربي وكلما وقع التفكير في حلها فإن الأمر سيمس جميع الكيانات العربية أو أكثرها بالأصح، والتي أصبحت مسؤولة عن الكثير من أوجه المشكلة وفقا للمواثيق الدولية والقرارات الأممية، وليس في مقدورها ولا من مصلحتها التنصل من تبعية هذه القرارات وتلك المواثيق، بل الالتزام بها بكل دقة، حتى حركة المقاومة التي حاولت هذه المرة أن تنشأ غير مرتبطة بشكل مباشر بهذه الكيانات لن يكون في مقدورها أن تستمر كذلك لفترة طويلة، ولابد من أن يتخذ بصددها موقف ما سينفذ وسيطال الواقع العربي، حسب الأهمية وقد كانت قيمة هذا الفهم المتقدم كامنة في أنه لم يدفع القائمين به إلى التخلي عن الإسهام في كل ما كان يجري. بل أن المرء من خلال المناقشات يستطيع أن يتبين خطوط التماس ومواطن اللقاء بين كل المجموعات، وشروط

استمرارها واحتمال تفجرها. إن من اعتاد عدم التفكير بشكل رياضي كثيرا ما تصدمه مثل هذه التصورات، وقد يرى فيها شيئا مما يثني العزائم ويضعف الهمم. وقد يذهب به التسرع إلى رمي القائلين بتهمة العمالة الأجنبية التي كانت تطلق بمجانية مؤلمة فيما يكونون هم حين يتضح لهم مثل ذلك الظن ونادرا ما يخفي عليهم في أسوأ أحوالهم إذ لا يستطيعون وليس من شيمهم التصريح بما يقومون به من جهد تجاه قضيتهم وهم غير مستعدين أن يسمحوا لردة الفعل أن تجرهم إلى إفشاء ما لا يجوز إفشاؤه من أسرار كثيرة ووقائع ثابتة جرت بالأمس وتجري اليوم، وتتحدث عنها المصادر الأجنبية خصيصا والتي يحسنون قراءتها وكشف أسرارها لأن الوقت لا يسمح بذلك، والمصلحة الأكبر تفرض الانتظار.

معظم اللقاءات تتم في بيت فاروق الذي لم يتزوج بعد. وإن يكن لا يخفى ارتباطه وهو على أي حال اختار منزلا مستقلا حتى لا يضايق والدته. ويتكفل أبو العبد المهندس الزراعي بإعداد ما يحتاج إليه اللقاء من لوازم، إذ لديه هواية خاصة وكرم لا يجارى. فقد تقدمت به السن دون أن يتزوج، ولكنه غير يائس يوالي استعداده، أما الأصدقاء فيحددون الموعد بحل القضية!!

إن الأمر، على ما يبدو، قد اختير ليشكل مخرجا من أسئلة الكثيرين، وربما تعليقاتهم الخبيثة، لكن المهم هو أن اللقاءات لا

تنقطع، بقدر ما تستمر وتأتي كل مرة بوجوه متجددة، تعمل في الغالب في قطاع الشركات والمنظمات الدولية وفي عدد لا بأس به من الوزارات. ويحدث بين الحين والآخر أن يتم الانتقال إلى المدينة والمطاعم التي أخذت تنتشر في أطرافها واكتسبت أجواء خاصة. يغشاها في الغالب أعداد من غير الليبيين الذين صاروا يكونون نسبة كبيرة. اقتضت أن تكون هذه المحال متخصصة في طعامها وتقاليدها وعملتها أيضا، حتى إن ملامح المجتمع القديم غدت تنقرض رويدا رويدا، ويصعب على المرء أن يطلب أي وجبة من الوجبات التي اشتهرت بها البلد ذات يوم، حين كان البرعي والكيلاني وبوحلقة أشهر أماكن المدينة وأكثرها إثارة للشهية وتحقيقا للطلب، وأقدرها على بعث ذلك الجو الأسري المتواضع الذي تشكل المادة التعويض فيه عن العمل، وليس الهدف الأول والأخير، ففي هذا الواقع الجديد يحتاج المرء إلى خبرة خاصة بشؤون الطعام والعملة على السواء.

ولأن الحديث مع هذه الفئات يتصل دائما بالوطن والعودة المنتظرة ولو بعد حين العودة المستحيلة في ظل ظروف كثيرة يقول بها عادة كل تحليل قائم على المعلومات الدقيقة والاحصائيات الدولية، والسياسات المعوجة التي لا يمكن أن تسمح لمواطن يمكن أن يموت في سبيل وطنه أو نظامه، والمنتظرة بين عشية وضحاها كما تقول الإذاعات العربية التي تتحدث

عن القوة الضاربة في الشرق الأوسط، والقدرة العسكرية التي لن يجرؤ أحد على الاقتراب منها. والوحدة الاندماجية التي قد تتحقق لمجرد أن يدأب على الحديث بها والدعوة إليها مذيع حسن الصوت بليغ الكلمات، والعروش التي تهتز أمام خطبة هذا المذيع أو مقالات ذلك الصحفي الذي يهدد بصراحته الأسبوعية أقوى الحكام في مقالات غطت على معظم الأقلام.

ولأن الأمر كذلك فلابد من أن تفكر أنت أيضا في بلدك، لابد أن تشغلك هذه الأعداد المهولة من البشر التي تقطن من دون أن تحمل أي مسؤولية إزاء هذه الأرض. لابد أن يحيرك هذا الفراغ لموحش الذي يهدد كيانك السياسي هذا الكيان الذي أنت منه وإن لم يقدم لك شيئا. أنت على صلة به وإن أدار ظهره عنك في كل شيء، وإن تبارى بعض المنخرطين في سلكه والضالعين في أجهزته إلى التشكيك في موقفك وربما نواياك المستترة أيضا. يهولك ما أنت عليه من تدبر، يخيفك ما أنت عليه من دراية، بحجم المخاطر التي تنتظر واقعك، يضحك إلى ما يشبه البكاء ما يتفوه به البعض من الشتائم للواقع، ومن يأس مؤلم لأي شيء وركون إلى مجهول يمكن أن يتحرك ومن اعتقاد خاطيء بأن قوى الاحتلال قد تقوم بعمل ما في لحظة ما لأن شواهد التاريخ أمامك، وطبيعة التحليلات الواعية تعطي مزيدا من التبصر بأن الوطن لا يبنيه غير أهله، لا يغير من واقعه سوى أبنائه وأن التسويات الكبرى قد تشمله،وتؤثر في حاضره المخجل

ومستقبله المنتظر بما يفيد الآخرين ويغير من مستواهم وفقا لجهودهم وعلاقاتهم ومبادراتهم إن ذلك في حقيقة الأمر هو واقع الفئات المستنيرة التي تقطعت بها السبل وضاعت بينها فرص اللقاء وصارت تعيش أوضاعا سيئة تتجه للصعوبة نسبيا نتيجة ضغط الالتزامات الدائمة، ذلك أن الواقع الاقتصادي يسهم لكل من لديه القدرة على التحرك في أن يحقق شيئا من المستوى الذي يوفر تحقيقه ما تمليه الضرورات، ذلك أن هذه الفئات من الأسر الفقيرة التي تحتاج لكل شيء، حتى الموسرون الذين قد يوصفون بالأغنياء في يوم من الأيام هم الآن ليسوا كذلك، من تجمع الأهلين في واقع الأمر، ليس إلا نتاج التضييق على النفس والتخلي عن أي مطلب من المطالب اليومية والتي تحتاج بالضرورة إلى شيء من تحسين الدخل. ولم يدخل المجتمع ما ساد لاحقا من مصاريف باهظة آذنت بوجود هوامش كبيرة من الربح، حتى الاستيراد والتصدير ما كان يتم رأسا من الدول المصنعة وإنما عن طريق وكلاء ليسوا من الليبيين وكل من طرق الباب وجد المنافسة على أشدها، حتى لقد رجع الكثيرون من أول الطريق. ولهذا لم تكد الستينيات تدخل نصفها الثاني حتى صارت المصاعب اليومية تتكفل بتصفية معظم العناصر القادرة، وتضطرها إلى التحليق حول ذاتها. وفي حين كان البعض يعتقد أن هناك من يعد لنشاط سياسي معين كانت القوى الراشدة أو من يفترض أن تكون كذلك تنسحب من الحياة رويدا

رويدا، ولم يعد لها سوى ماض من السمعة ظلت تعيش عليه، وبقايا هي أقرب ما تكون إلى الشحوب.

أصبح في حكم الافتعال أن يطرح مسألة الفقر وفقا لمفهوم الصراع الطبقي الذي عرفته المجتمعات الأخرى، فالأغنياء ـ حسب هذا الطرح ـ مجرد نفر من الناس قتروا على أنفسهم، وبالتالي ليست لهم تقاليد الأغنياء المعروفة عند غيرهم، حيث التفاوت الطبقي المتفق عليه من المجتمع وحيث الفارق في المعيشة والممارسة والوقوف من السلطة والقانون، وهناك كل شيء مسخر لخدمة الغني، في حين أن مجتمعنا لم يتكون بهذه الكيفية، ربما وجد من تاقت نفسه للتميز والظفر بعديد الامتيازات، لكن طبيعة المجتمع لا تسمح بذلك حتى وإن حاولت السلطة أن تنتصر لهذا الغني أو تحابيه في شأن من الشؤون، فإن ذلك لا يرتقي إلى مستوى التقليد المتفق عليه والعرف الذي ينتصر له.

من هنا واجهت العملية الإبداعية أوضاعا جديدة فالصور المتكونة لدى المثقف عن الظلم وعن التفاوت في العيش لم تعد تمثل شيئا أمام تطورات الحياة، والذين كانوا إلى وقت قريب يوصفون بالأغنياء لم يعودوا يمثلون شيئا أمام الأسماء اللامعة، حتى المباني التي كانت ذات يوم تثير الدهشة تحولت إلى شئ عادي للغاية وربما أقل من العادي.

لم يكن الإثراء متاحا للجميع دون شك، كما أن الحاجة لم

يتحقق التغلب عليها لكن الإحساس بوجود البحبوحة الاقتصادية، والشعور بأن ثمة ثروة عامة بشكل ما متاحة وتطبع سلوكيات عديد الناس، وإن ذلك يتضح من خلال إصرار الناس على التساوي في تناول السلع الاستهلاكية من طعام وشهوات محدودة، وإن الصورة لتبدو أكثر وضوحا في المقاهي والمحال العامة. إن هذه الصورة لا تنفي وجود مشاكل معقدة في الواقع، ولا تعني أن البنية الاقتصادية الجديدة قد أنهت كل شيء، فتصور من هذا القبيل موغل في السذاجة ولكن المقصود هو أن هناك تعقيدات جديدة من الأكيد أنها تختلف عن الصور القديمة التي ظهرت في بعض النتاج الذي انطلق من الزقاق والحانوت وحب بنت الجيران. لتحل محل ذلك أمور أخرى تعرضها الجرافات التي واجهت الحي الشعبي لتفتح الطرقات الكبيرة أمام العمارات، ونموذج مثل مفتاح الذي انفصل من الحي ولم يعد يمر من شوارعه القديمة ولا يركب مثلهم الحافلات وربما يفلح في إدانة المرأة التي اختلى بها قبل يوم من محاصرة بيتها وترك سبحته داخل فراشها ويأتي الآن في مقدمة الداعين لإخراجها من الشارع.

لهذا كانت المقالة التي وقع الانحياز عليها كجنس أدبي والتعبير من خلالها، منصرفة إلى هذه الأسئلة، هذه المواجع التي تجاوزت عوالم الفقراء والكادحين في صورتهم الشعاراتية إلى هذه العوالم، حيث يقلق (الرجل الآخر) راحة الآخرين

ويحاصرهم بمتابعته المزعجة وتسلله اللاأخلاقي، عبر معالجة مكثفة ومبتكرة تستبق لعبة الكم وترفض فكرة العرض والحشو الذي لا مبرر له تحت شعار المصادر والحواشي الكثيرة التي لا تعدو أن تكون ضربا من ضروب التقليل من الرأي.

كانت الحجة في هذا الصدد أن ما يكتب لم يعد يقدم من أجل الظفر بشهادة من الشهادات ولا يتطلع إلى مصادقة أحد من مالكي الإجازة ولكنه مساهمة في العملية التنويرية القائمة على التمكين للفكر الوطني المتصدي لإبراز الهوية والتعبير عن الشخصية الوطنية ومعالجة المسألة الإبداعية في اتجاه مقارعة شروط التخلف ومسببات الجمود، إن هذه النظرية بطبيعتها ترفض الاتكاء على العكاكيز وتسخر من كل تزكية تجيء من الخارج، تبذل الجهد تلو الجهد لإبراز النموذج الوطني القادر والمعبر عن مثل هذا التوجه، ولذلك كان الاحتفاء غير المحدود بما كتبه خليفة بصدد شاعر الوطن (رفيق) وذلك لمعانٍ اتصلت باديء ذي بدء برفع الحصانة عن أي اسم من المعالجة النقدية، وفي ذلك ما فيه من الرمز إلى أمور تتجاوز المسألة الأدبية ومن ناحية أخرى بهدف تسهيل مهمة التجديد التي وقف أمامها شاعر الوطن بقوة وكان من الممكن أن يكون فصله أكثر تأثيرا لولا المواجهة النقدية.

هناك من روج بأن الأمر يتصل بالموقع الرسمي الذي شغله خليفة، لكن الحقيقة ليست كذلك بدليل أن الاعتراض على

بعض تطبيقاته النقدية لم يستبعد وبالذات عند استبعاده لتأثير العامل الاقتصادي في مجيء الاستعمار الايطالي فلم يحدث أي تردد في نقد هذا التفسير سواء بالمعارضة للمنهج المادي في تفسير الأدب أو من حيث حقيقة الأزمة الاقتصادية عموما التي كانت خلف التوجه الاوروبي نحو الوطن العربي وإيطاليا ليست بدعا في هذا . كل ذلك دون المساس بمبدأ الحرص على استمرار الرجل في مهمته الرسمية فقد كان يمثل خيارا مبدئيا يصعب التفريط فيه، لكل من امتلك قراره ولم تنل منه الحساسية التي طبعت بعض المواقف ومن المؤكد أن الأمر يعود إلى حد كبير للقاعدة التي ينطلق منها كل عنصر، فمن كانت جذوره الأولى من خارج المدينة ولديه وجود حقيقي بين قومه لن يتحرج من اتخاذ أي موقف ولا يتحسس كثيرا من أي همسة تقال هنا أو إشارة ترتفع هناك فهو على أي حال يدرك سلامة خياره، ويملك في نهاية المطاف الوسط الذي يلوذ به والملجأ الذي يركن إليه ولا ينال منه بالضرورة أي حادث طارىء أو حكم متسرع تمليه ردة فعل عارضة أو عاطفة مؤثرة، فمن أفلح في تجاوز ذاته ولم تأسره مصلحته الشخصية يستطع أن يكون فوق القصاص الشخصي.

مثل هذا الموقف اتخذ كذلك بصدد ما أثاره عبد الله القويري من قضايا فكرية بدت في حينها تحتاج إلى التوضيح والإضافة بل والتصحيح أيضا، أهمها ما يتصل بالكيان الذي تحدث عنه

ذلك الكاتب الكبير كثيرا في مقالات مفصلة، بعضها تحت عنوان معنى الكيان وبعضها الآخر تحت عنوان وطني هذه الصحراء أما العنوان الأخير فقد كان بعنوان رسائل منتحر، حاول في جميعها أن يجمع بين التأمل والتحليل والتنظير، ومما لا شك فيه أن الرجل كان أكثر من غيره إحساسا بهذه المسألة وأجرأ تعبيرا عنها. ومرد ذلك إلى النشأة في الهجرة من ناحية، وطبيعة الحياة المصرية من ناحية أخرى. فالملاحظ أن الإحساس بالوطن وقوة الانتماء اليه والجهد المبذول في هذا السبيل يتضح بشكل أقوى في الحياة المصرية، ابتداء من التربية الأولى وطوال سنوات التكوين التي تليه، الأمر الذي لا يقف عليه المرء في التجربة الليبية التي اعتاد الناس فيها أن يتحفظوا إزاء النموذج وأن يقتصدوا في ترسيخ فكرة الإعلام. وما تفرضه من شروط يحرص الليبيون على أن تكون صادقة. وقد كان لذلك أثره في تعميق الإحساس بالفراغ الوجداني وفي ضعف الشخصية الوضنية، مما أثر سلبا في أمور كثيرة فحين يضعف الإحساس بالانتماء وحين لا يترسخ النموذج الوطني في الوجدان تحت أي مبرر من المبررات فإن الدور سيطول أكثر فأكثر وربما يتعطل حين تقع الحاجة إليه.

وقد كانت التفاتة عبد الله مهمة من هذه الناحية، حين بادر بإثارة هذه الإشكالية تحت عناوين مختلفة ومنذ عودته للوطن إلا أنه في الفترة الأخيرة كان تناوله أكثر تفصيلا وأكثر إحاطة

بالموضوع من جميع نواحيه وإن يكن قد تورط فيما تزعم ووقع التناول في حينه عندما أدان بعض الأنشطة السياسية التي عرفها الواقع الليبي عند طرح القضية الليبية في المحافل الدولية وطرح المصير وعرضه على الفئات الشعبية، يوم أن تكونت في البلاد مجموعة من التكتلات الشعبية رافعة شعارات الاستقلال والوحدة الوطنية، وقبل بعضها الآخر بالشكل الاتحادي، وربما تساهل البعض الآخر في الترويج لمشروع الحماية، واشتط آخرون في الدعوة إلى النظام الجمهوري، وهي جهود أسهمت في تنوير الجماهير وحشدها للدور الوطني، وقد حققت بدون شك بعض شروط هذا العمل وساعدت على تقرير المصير الليبي في اتجاه الاستقلال ورفض مشاريع الوصاية والانتداب التي حاولت إيطاليا أن تتبناها وتسعى من أجلها وحالت دونها المصالح الدولية متحالفة مع الحركة الوطنية التي لم تبخل بدعمها طوال فترة ما قبل القرار الدولي القاضي بتقرير المصير الليبي على أساس الاستقلال لتبدأ بعد ذلك مرحلة الالتفاف والعمل في الخط النقيض وفقا للتقاليد الاستعمارية، كانت هذه التكتلات تمثل بداية قابلة للتطوير لو وجدت القوى الفاعلة والقادرة فهي إذاً خطوة على طريق التطور، مما يجعل الوقوف من هذه التجربة موقف التشكيك، موقفا غير دقيق ويصب في قناة التغييب المقصود للجماهير، ودعم ذلك النوع من الممارسة الخاطئة التي شاعت في الخمسينات وحاولت أن تتكيء على

بعض التنظيرات الفوقية مثل تلك التي تبناها عبدالله، فكان من الضروري أن يقع التفطن إلى ما شاب ذلك الطرح من تشويش في النظرة وقفز على الواقع، ذلك أن الفرق كبير بين من يحلل التجارب التاريخية من منطق تقريري تاريخي يتناول السلبيات والإيجابيات وبين من يتخذ من السلبيات مبررا للتمكين لخطاب سياسي متعال ينكر الإضافات التي حصلت والأخرى التي كان يمكن أن تحصل لو تم الإبقاء على الهيكل السياسي وتطويره وأعطائه مزيدا من الفاعلية وليس الإلغاء كلية تحت مبرر الفشل وذريعة انعدام الجدوى. صحيح أن عبدالله القويري لم يكن يقصد بكتاباته تلك الإساءة للتجربة بقدر ما كان يسعى لتأصيلها ويتأملها كفائدة ونتيجة. إلا أن خطأه الفادح هو عدم حسابه القوة التي يمكن أن تستفيد من طرحه النظري. ولذا كان من الضروري أن تواجه أفكاره وأن يقيم طرحه بكل الصراحة والوضوح. ولعله لذلك وغيره تقبل كل رأي قيل وكل تصحيح أعلن. باعتبار ذلك ظاهرة صحية وضربا من ضروب التعامل المسؤول مع كتابات حاولت بتمعن أن تقترب بجدية من قضايا الواقع.

لقد اختلفت المواقف تجاه هذه الكتابات باعتبارها تطل على القاريء أسبوعيا ومن أقوى المنابر الصحفية وأكثرها حيوية وربما حظوة أيضا، فاعتبر البعض أن طرحها بهذه الكيفية وفي هذا التوقيت هو نوع من تغيير الموقف وربما قال البعض الآخر

إنها تمثل شيئا من التكتيك السياسي. ذلك أن الحوار الذي كان مطروحا بقوة هو : هل تقتضي المرحلة أن يقتحم الشباب المجال ويتحملوا المسؤولية عند وجود منفذ للدخول ؟ أم أن الصواب يفترض الإبتعاد ومحاولة الإجهاز على التجربة. فكان التعامل مع هذه النصوص من منطلق الإلمام بكل هذه الخلفيات. لقد استقر عبدالله يومئذ بطرابلس وطلب إحالته إلى التقاعد الاختياري الذي فتح لتشجيع من لديهم الفترة الكافية في الخدمة أو تنقص كفاءتهم، وتحبذ السلطة أن تشجعهم على الخروج بدلا من اللجوء إلى إخراجهم بشكل قسري. فأعطيت مدة ستة أشهر ليعيد الجميع تقدير أوضاعهم. ولاشك أن وضع الرجل يختلف عن ذلك تماما، ومن المؤكد أنه كان يهدف إلى جس النبض لكن الذي حدث أن التعامل مع الطلب تم بهذه الكيفية. هناك مبدأ موجود وثمة من تقدم بطلب للاستفادة من المبدأ فلا حرج من القبول. كان قد أمضى فترة طويلة في الكتابة وبدت الصحيفة التي مضى على إنشائها ما يقارب من سنتين تعيش على كتاباته أكثر من أي كتابات أخرى. وقد فكر صاحبها أن يخوض المعركة الانتخابية التي أجريت بعد أربعة أشهر من الانتخابات السابقة وتعذر عليه بالطبع تحقيق أي فوز وفشلت الصحيفة في تحقيق ما كانت تتطلع إليه من الدخل المنتظر لقاء ما تميزت به من الحرية والتوسع الظاهر في استقطاب أهم الأقلام. لقد تضافرت هذه الاعتبارات لتجعل من

كتابات عبدالله النظرية، تنطوي على شيء من التعبير عن أزمة شخصية بحتة. وقد تمت مصارحته بهذه القراءة فكان تقبله لهذا الاجتهاد وتقديره لمصارحه لما في ذلك من المكاشفة الضرورية لإثراء الحياة الفكرية وتنقية المناخ من كل السلبيات. الغريب أن هناك من روج يومئذ أن الرجل يقوم بنشاط سياسي منظم. وأن العلاقة معه تصدر عن إطار تنظيمي، وكان ذلك مثار ضحك وتندر وذلك أن الأجهزة ذاتها في مقدمة من يرفض هذه القراءة فكيف يتسنى تبنيها من عناصر تدعي الصفة الثقافية. كان قد عين في اللجنة العليا لرعاية الفنون والآداب التي شكلت برئاسة الوزير وعضوية بعض المهتمين بشؤون الثقافة، ثم رؤى أن تكون مفصولة عن الوزارة بحيث يكون لها رئيس متفرغ، الأمر الذي لم يرق له فعمد إلى مقاطعة اللجنة. وقد رأى في نهاية المطاف أن يخوض تجربة الغربة ووجد عملا بتونس وكان أن حزم حقائبه وصفى مكتبه وتوجه إلى هناك.

لقد كان هذا الموقف إجراء فرديا صرفا إلا أنه من ناحية أخرى كان مؤشرا على ما تسرب إلى الحياة من تفسخ ومن إهدار للكفاءات الوطنية والاستسلام للنظرة الفردية والخضوع لردة الفعل السريعة إذ لم يكن الرجل من المسيئين للوطن أو الداعين لتخييبه، ومجرد اعتراضه على إجراء من الإجراءات لا يمكن أن يسوغ تجاهله والتصرف نحوه بهذا الأسلوب، لقد كان من الممكن أن يغض النظر عن تعنته وأن تكون نظرة الواقع أكثر

مـرونة وأوسع أفـقـا، ولكن ذلك لم يحـدث. كـان هذا الإجـراء الثاني من نوعه، فالأول حين قدم وطلب بصدده رأى من الأجهزة فكان الـرد بأنه من الذين يمكن التـعاون مـعـهم ولا خطر مـنهم، ومع ذلك لم يحـدث مثل هذا الإجـراء بـسبب محـدودية النظرة وقـوة الإحـسـاس بالمنافسة، والشاني في هذه المرة حيـث لـم يجد غض النظر عن مـوقـفـه. كـان ذلك في الحقيـقـة تعبـيـرا عن أزمة المنهج لتفكير الجيل وعن القصور في اسـتيعاب المرحلة والتعامل مع المطروح. لقد كان المجتمع بسيطا للغاية والعلاقات الإنسانية متـشـابكة ويمكن لكل من يريـد أن يلعب دورا إيجـابيـا أن يفـعل ذلك بيـسـر، ترى هل يمكن القـول إن الأزمة تـتـصـل بالجـيل في عـمومـه؟ الحق إنهـا تبـدو كـذلك. صحـيح أن المـمارسـات الأكـبـر كـانت تصب في ذات التـوجـه ومع ذلك فإنه لا حـرج من القـول إن البعض كانوا دون المرحلة وإن انعدام النظرة السيـاسـيـة الـرائدة شبه منعدمة.

17

استأنف الموت غارته التي بدأها باختطاف عبدالسلام دنف ذات صائفة قائظة ارجعها بعضهم إلى ضربة شمس موجعة، وذهب الظن بابن عمه أحمد إلى القول بوجود فعل فاعل وبسبب سياسي. في حين تقول معظم المصادر إن الأمر مجرد قضاء وقدر، جاءت ذكرى عبدالسلام الأولى، فبادر نادي الشباب. بإحياء هذه الحولية بحضور لفيف من الكتاب والشعراء من عارفي عبدالسلام للحديث عن شخصيته ونبله والقليل القليل من كتاباته، ومرد ذلك أن الكتابة التي تركها عبدالسلام كانت محدودة إلى حد كبير، إذ كان دوره الحقيقي في حركته أكثر من عطائه. وفي هذه المناسبة كانت أجمل مشاركة وأكثرها حيويه وتميزاً تلك التي جاء بها أحدث الشباب بالكتابة وبالكلمة المذاعة أيضا، كان يطل من المذياع بين الفينة والفينة متحدثا عن الفنانين بلغة رشيقة وعبارات شفافة وإن يكن أحيانا يبدو وكأنه يعيد آراءه أولا يقتصد فيها، فتراه يتحدث عن الموجى مثلما يتحدث عن أي فنان ليبي قد يكون في بداية الطريق، بيد أنه كان يقدم حديثا متميزا. وكان الجميع يتساءل عن قدرته التي أهلته لذلك التدفق المستمر

بصدد الفن، وعمر على المستشار الإذاعي شديد الحدب عليه، وإذ به هذه المرة يريد أن يشارك في الحديث عن عبدالسلام دنف بكلام اختلف عن جميع المشاركين. لقد كانت جميع الكلمات في حدود العادي أما هذه المشاركة فقد كانت إيذانا بمولد كاتب جديد حين طرق محمد الزوي أفق الكتابة الأدبية بعد أن كان لفترة طويلة أسير الحديث عن الفن والفنانين. على أن الغارة التي تلت عبدالسلام تمثلت هذه المرة في رحيل التكبالي إثر عملية أجريت له في المستشفى العسكري لاستئصال المرارة. التكبالي الذي قضى سنوات طويلة في الغربة عاملا ودارسا حين هاجر في مطلع الستينيات في تلك الفترة المبكرة وعاد منذ وقت والتحق بالجيش الليبي بعد التخرج من الكلية العسكرية واستلم عمله بالزاوية وصار في إمكانه العودة إلى المدينة باستمرار والتنقل في أرجائها المختلفة والاتصال بالوسط الثقافي. وكذلك المشاركة في أول مسابقة للقصة القصيرة والفوز بإحدى جوائزها، ويملأ الصحف حضورا بقصصه الكثيرة حتى إن جميع المجلات التي كانت تصدر لا تخلو واحدة منها من انتاجه، ولم يؤثر ذلك على نوعية الكتابة فقد كان يحقق في كل مساهمة تطورا أفضل، وإذا به الآن يسلم روحه للموت، تاركا اللوعة والحسرة والكثير من مشاعر الألم تجاه ذلك الموت المباغت. لقد جسدت كتابات التكبالي تجربته الحياتية بالكامل بدءا من طفولته التي عاشها في مسغبة

وضنك، وقلق في الأسرة وشقاء في الطفولة، فكان عالمه المتشكل من حكايات الأم والجيران وتجارب الحياة المريرة. على أنه لم يكن بهذا المعنى مجرد ناقل للتجارب الحياتية بشكل محض وإنما أفلح في توظيفها في التعبير عن الفكرة التي يعمل من أجلها والتوجه الاجتماعي الذي يتبناه. وقد كان تسلحه بالقراءة ظاهرا ومداومته عليها لا تعرف التوقف، كل ذلك في شيء من استقلال التجربة والتخلص من النقل والمحاكاة. إن عالمه جزء من الحياة نفسها وهو من القلة التي تستطيع أن تسخر التجربة لإبراز الفكرة وليس العكس. كان يلتقي زملاءه كل يوم تقريبا فهو حريص على معرفة ما يقال بصدد انتاجه وما إذا كان قد أفلح في تقديم إضافة من الإضافات أم أنه مجرد مكرر لتجاربه. لقد كان مهموما إلى حد كبير في فتراته الأخيرة وعلى الأخص بصدد ما كان يحصل في المعسكر من نقاش حاد يصل في أحيان كثيرة إلى "الخناقة" على حد رأيه، غير أنه حريص على عدم ذكر أي تفاصيل وإن لم يخف تماما أن الأمر يتصل ببعض القضايا الكبيرة ومرة أكد إن زملاءه يتألفون من خليط من القبائل الليبية خارج المدينة تحديدا. لم تذهب تلك الحادثة من الذاكرة ولم يعد أحد إلى الموضوع مرة أخرى، حين جاء ذات يوم من معسكر الزاوية شديد الضيق مما جرى هناك. كان الشرود والقلق من صفات خليفة بيد أنها لا تظهر إلا من خلال امناقشة وطرح الأمور المختلفة كان يعيش تجربة عاطفية يفضل

عدم الحديث عنها باستمرار، ولكنه يبدو على الدوام مهموما بها. كان لديه خوف من فارق المعيشة، فابنة التاجر يصعب عليها أن تعيش مع ضابط صغير يحتاج إلى الكثير لبناء مستقبله. لقد هجرت الأسرة أزقة المدينة القديمة، وأخذت لنفسها مكانا بأبنية شارع الرشيد وهي أبنية تتألف غالبا من دورين فأكثر وكانت إلى وقت قريب مأهولة بغير الليبيين، لكنهم بحكم التطور صاروا يشكلون الأغلبية، لا يهم إن كان بعضهم يسكن بالإيجار كما هو الحال بالنسبة لأسرة خليفة التي استطاعت بفضل محمود أولا وخليفة ثانياً أن تتغلب على سنوات الشقاء الناجمة عن ترك الوالد لهم وهم أطفال قصر، فقد كبروا جميعا وصاروا يعملون كل حسب قدرته ونصيبه، لقيت الفتيات كذلك النصيب الذي جاد به القدر وتحرك قطار الحياة أمام تلكم الحسان وبات في حكم المتيسر أمام خليفة أن يبني بيته بعد شيء من الصبر والمعاناة، ولعله خطا خطوته الأولى باقتناء تلك السيارة التي كانت متميزة بالطول كما هي قامته تماما، ومن المؤكد أنه كان فارس أحلام أكثر من فتاة، فلقد أضاف إلى عيشته في أوروبا ونجمة الملازم، ميزة الكتابة الأدبية، وغدا اسمه يتصدر الصحف بعشرات القصص وبشيء من الدراسات التي تكتب عنه والأخبار التي تتناوله. صار قلمه يرسم الحياة على الورق ويعبر عن لواعج النفس المتلهفة حبا ولوعة وعن المواطن الذي يكافح شروط التخلف ويسعى من

أجل لقمة العيش. ولاشك أن فتيات كثيرات كن يجدن في قلم التكبالي ضالتهن المنشودة، فلقد تحرك قطار المعرفة. لم تعد الأمية هي المسيطرة. صارت القصة الجنس الأدبي المميز وبات هو فارسها الأول. قاوم بواسطتها الوجود الأجنبي حين ألقى العامل تلك "الدلاعة" في وجه ذلك المستعمر، بل وحين بادر الفتى بصنع علاقة ما أفلح في التعبير بها عن موقفه الرافض لذلك الأجنبي المتعجرف، على نحو ربما سبق به ألمع الأسماء العربية. كان صادقا في موقفه ملتزما بفنه، فلم يدنس قلمه بالكتابة عن وزير الصحة من أجل الظفر بتذكرة سفر وعلاج في الخارج، ولم يفتعل الإنسانية لوزير الإسكان في سبيل بيت تتولى تأجيره الخزانة العامة. لم يتطلع لصورة تنشرها مجلة أمريكية وإنما ظل حيث هو مثالا للموقف النظيف المنزه عن كل شكل من أشكال التظاهر.

وخلافا لما درج عليه في البداية من التعبير عن عوالم ضيقة بسيطة، ونماذج بشرية محدودة التفكير، بدأ المد القصصي يتفتح على عوالم متخلفة، ويعتني بأشكال جديدة من التعبير. ومواقف أكثر حزما واكتمالاً ذلك أن المناخ الذي عاش فيه عقب التخرج من الكلية العسكرية كان يختمر بشيء كبير، لأنه ليس بعيدا عن ذلك الواقع، بل من صميمه ويحمله بقوة، كانت تجاربه تعبر بطريقتها الخاصة، وكان كذلك شروده وتأمله المستمر لحدثه أن شيئا ما يلوح في الأفق، حين كان اللقاء في

شارع المعري. كان مساء طويلا ذلك الذي ملأ فيه الزمان والمكان بدءا من مقاهي ميدان الجزائر. وحتى فندق «ليبيا بالاس» قصر ليبيا. حين قرر الدخول إلى المستشفى واستئصال المرارة والحديث يشمل كل شيء، فإذا ما اقترب الأمر من العملية التي يوشك أن يجريها. ولم تكن قد شاعت في حياتنا كثيرا. كانت كلماته التي أطلقها في عفوية :

ـ تحساب كان نموت أنا نخاف

لم يستغرب أحد الحديث في التو، فالموت نهاية، لكن السؤال لماذا يقول ذلك، لماذا يخرج من المستشفى ليعود في صباح الغد حسب المقرر. وتكون الصدمة بموته في ذلك المساء. عندما دخل رضوان ليلقى بالنبأ كان الرد في وجهه منفعلا للغاية، حاول أن يمتص الغضبة فقد كان يومئذ شديد الاحتمال، وما يزال ينظر لسابقيه نظرة خاصة، لكن اللحظة استمرت، كانت كلمته بعد ذلك :

ـ شنو أنا قتلتا، الله غالب مات.

كان محمود يتكلم كثيرا في الخصوص، ماعدا ذلك فالجميع يسلم بالقضاء والقدر، ووري الجسد في التراب الذي أحبه حبا جما وسط مراسم رسمية أقامها الجيش، وحزن عارم من الأصدقاء والأهل ومجتمع المدينة القديمة الذي عرف الأسرة منذ نزوحها من تكبال في نهاية القرن الماضي أو قبله بقليل. كان الإحساس بفداحة الخسارة فوق الوصف، واستشعار التقصير

الصحي يملأ نفوسا كثيرة، أما الذين مارسوا الكتابة فإن حزنهم يتضاعف وإحساسهم تجاه الحدث يتجهم المرة تلو المرة، لا أحد يعرف تلك الوجوه الكثيرة التي حضرت ممن هم في عمر التكبالي، وهم كذلك لم يكشفوا عن هوياتهم، كان يهمهم على ما يبدو أن يودعوا فقيدهم ربما دون أن يقتربوا من أهله، فهم على كل حال أهله الحقيقيون وهم الذين فقدوا بموته شيئا مهما. إن طبيعة المعركة تفرض على من يمتهن العمل العسكري أن يفكر في الأحياء، فمن مات مات ومن مات لا يعود، إن الموت قد يتكرر ولكنه لا يستطيع أن يوقف الحركة، عبر الأدباء عن تأثرهم الصادق وعن مدى إحساسهم بالخسارة وفداحة الخطب، والفراغ الذي تركه التكبالي، سواء بواسطة الكتابات التي ملأت الصحف والمجلات والبرامج الإذاعية، أو الأربعينية التي أقيمت بعد ذلك وكان حضور الشعر الشعبي لافتا للنظر .بادرت الشاعرة والصحفية والإذاعية المقتدرة خديجة الجهمي بكتابة قصيدة شعبية غاية في الجمال تم إلقاؤها نيابة عنها :

خليفة الغالي في التراب توارى
قنديله طفا غطا الظلام أنواره
توارى زوله. وجف القلم في يده بطل مفعوله
حوارى الجنة وين ما نادوله
عجل لهم مارد ودع جاره

ما ودعنا. اللي فراقه لاعنا وفجعنا
اللي نجم عالي كان في مجمعنا
ناره معانا دايرة كبارة

كانت الكتب الفائزة في المسابقة تطبع بالمطبعة، من بينها "تمرد" التي فاز بها التكبالي، وعهد بتقديمها، وإعداد لوحة غلافها، وقد جرى البر بما وعد به فكتبت المقدمة، وتولى الجليدي إعداد الغلاف ومتابعة الإشراف على الكتاب وحين أصدر يوسف أحد زملاء خليفة في درب القصة مجموعته "الجدار"، جاء الإهداء إلى خليفة التكبالي، الراحل قبل الأوان فاختصر لحظة لم يرتفع إليها غيره. وتوقف عند ذلك علي الرقيعي أحد الفائزين في المسابقة وقفة جميلة في إحدى مساءات تلك الأيام، وشرع الذين يمارسون الكتابة في الحديث عن تلك المجموعة وغيرها من المجموعات في إطار متابعة مسؤولة واهتمام لا يخلو من الإحتفاء، فيما ظلت الصحف توالي نشر ذلك المخزون الكبير من قصص التكبالي التي كان قد أعدها ولم يسعفه الوقت بتقديمها، علي الرقيعي الذي فاز هو الآخر بالمسابقة ونشرت له مجموعته الشعرية"أشواق صغيرة"شرع يومئذ في خوض تجربة حياتية جديدة تمثلت في ترك الوظيفة العمومية التي بدأ بها حياته في وزارة الصحة ومن خلال الأعمال المحاسبية بالذات وهي وظيفة بالنسبة له كانت أكثر استقرارا، وإن تكن أقل دخلا، لقد جرفه يومئذ وبالأحرى أغراه

ذلك التطور الذي شمل القطاع الخاص حين تأسست مجموعة من الشركات. كان من بينها واحدة أسسها نفر من أصدقائه وقبل العمل فيها مؤملا تحسن أحواله المعيشية وتحرره من قيود الدخل المحدود، حين باشرت نشاطها باستيراد نوع من السيارات الفخمة التي ملأت صالات العرض في أهم شوارع المدينة، وظل الرقيعي يغشى المكان صباحاً ومساءً مضطلعا بشؤون المحاسبة، ثم كانت المفاجأة في انقلاب أصحاب الأمس حين دأبوا على مضايقته إلى أن ترك المكان قابلا بتعويض محدود. عاجزا عن اتخاذ أي موقف أكثر صلابة. لقد أسودت الحياة أمام الرجل وعاش فترة من أصعب الفترات كلها تمزق وحسرة، ظل يستهلك فيها كل مدخراته من دون الحصول على أي مكان للعمل. فإن إجراء التعيين بالنسبة لأمثاله من غير المؤهلين ولموظفي الفئة الأولى. كما حاول خليفة أن يصنع ـ يحتاج إلى اجتياز مسابقة توضع شروطها بما يفيد قصرها عليه، وحين أمكن الفراغ من وضع خطواتها النهائية وكادت تدخل مرحلة التنفيذ كانت المقادير تترصده عندما سقط ضحية حادث اصطدام مؤلم تاركا ولديه الصغيرين"هدى ونزار"ولم يمض على زواجه سوى ما يقرب من ثلاث سنوات، حاملا آماله العريضة في أكل خبز لم يدنسه التراب، وفستان غير مقطوع الأزرار وطفولة كلها ألعاب ووسائل إيضاح من أجل تربية حديثة قرأ عنها الكثير وتطلع إلى تطبيقها في الحياة الدنيا، حتى لا

يبقى في الطفولة فراغ يضطر المرء أن يشبعه ربما حين تكون الطفولة قد ذهبت وحل محلها الشباب، ومع ذلك يكون الإقبال على لعب مدينة الملاهي عشية فتح المعرض حتى لا تبقى في الحياة أي عقدة.

لقد تغيرت الأمور خلافا لما قدرها قلب علي الرقيعي النقي، ولم يوف الذين علق عليهم الأمل بشيء يذكر فحين تبدأ المصالح تنتهي الصداقات، ذلك هو مفهوم البعض. لقد خسر الرجل مكانه واضطر إلى الخروج، ولم يبق أمامه سوى أن يذرع شوارع طرابلس صباح مساء، باثا حزنه معربا عن خيبة أمله، من الحماقة أن يظن أحد أن الشاعر كان مظلوما بالكامل، فالذين عرفوا هذه الشريحة يعرفون كيف تفلح في التخلي، وكيف تجد المبرر وكيف تستخرج حقوقا قد لا يقرها الاتفاق، لكن الاحتكام دائما إلى واقع الحال، غير أن ذلك الوضع المأساوي لم ينعكس في شعره. إذ ليس أكره إلى نفسه من تأثير الحالة الخاصة على الإبداع كان يحرص أن يكون عالمه الشعري مبرأ من المصلحة حتى إنه قال ذات يوم وهو يرد على من ناقشه بدون موضوعية (إن قطعة من الهجاء قد تشفي الغليل، لكنها لا تصلح لمناقشة قضية عامة، هو أذن مسكون بالقضية العامة ويريد التعبير عن التجربة الخاصة في الإطار العام، هكذا تعلم من المنهج الفكري الذي أنس فيه الموضوعية وتوسم فيه الشمول. حقا إنه لم يكن يشكو من ضائقة مالية ملموسة، إذ

بدا عليه الإنفاق، لكن ذلك قد يكون من مدخراته، فما من أحد يكون خاليا من العمل ويصر على الإنفاق إلا ويكون ذلك من مدخراته، لكن التطوع بالقول حين كان جسده مسجى في انتظار اللحد بأن الرقيعي لا يعيش حالة من البطالة، هو من قبيل التزيد إن لم نقل من قبيل المزايدة باتجاه النظام. فبكل المقاييس كان الرقيعي يعيش أزمة في بلد البترول، ويواجه ظروفا حياتية غاية في السوء. بالرغم من أن مجلس الوزراء كان يضم ثلاثة على الأقل من أصدقائه وعارفيه. ويمكنهم لو أعاروا الوضع ما يستحق من الأهمية أن يغتنموا أحسن الفرص. قد لا يكون هدفهم التخلي عنه. وقد لا يكون البعض يعلم بظروفه في الأساس فلا شك أنه جمد بعض علاقاته، لكن حقيقة أن الشاعر قد لقي حتفه وهو خالي الوظيفة حالة لا مهرب منها، وإن جزءا من ظروف الحادث الذي جاء نتيجة لتمزقه يرجع إلى المسألة الاقتصادية.

لقد كان شخصية نقية للغاية وبالرغم من أنه قد تفتح على الفكر الاشتراكي وتبني العديد من أطروحاته كما تفصح نصوصه، والمناقشات التي جرت معه، إلا أن المعالجة للأمور ظلت إلى حد كبير رومانسية، وعلى الأخص في موضوع العلاقات الشخصية والظروف التي سبقت وفاته، مما جعله يواجه حالة من الإحباط المحزن، ويخضع لأزمة نفسية بالغة التأثير، بيد أنه لم يسقط في مستنقع الحقد حين خاب أمله، ولم

يرتكب خطيئة التقول حين ضاع حقه أو لم يكافأ بما هو جدير به، كما أن الحزن لفقده لم يكن فقط لكونه شاعرا فقدته الثقافة وإنما هو وجود يشمل حياة البسطاء الذين برز من صفوفهم وانغرس فيهم ولم يتخل عنهم في أي لحظة من اللحظات في فرح أو ترح على السواء، مذ كان صبيا بحي الظهرة إلى أن أصبح رياضيا بالنادي الأهلي، فعنصرا فاعلا في أحداث الحي وخياراته ومواقفه، كان موقفه الرياضي دائماً كما هو ابتداء بالمشاركة العضلية فالمتابعة الدؤوبة حين اعتزل الميدان وكان أشد ما يؤلمه من فريق الأهلي ما عرف على أفراده من رهان على نظافة اللعب وليس الإصرار على الكسب.

ـ الأهلي واكل قلبه ما يحافظش على الربح.

تلك هي كلمته حين لا يحقق الأهلي ما يتمناه من الربح حتى ولو بدأ بالتسجيل، إذ يكون هم الأفراد التفنن في اللعبة وليس تحقيق الأهداف.

إن رفضه للنظام السياسي التقليدي صارم للغاية. وكان من الذين يقولون باستحالة حدوث أي تطور في ظل هذه التجربة. وهو يرى أن الخلل يبدأ من قمة الهرم ولهذا تجده في حكم اليائس. على أنه لم يكن متحمسا لأي نشاط سياسي مؤطر. إنه لا ينكر ذلك أو يشكك في جدواه كما يذهب إلى ذلك بعض الذين لا يعملون ولا يحلو لهم أن يعمل غيرهم. وقد كانت نظرته لزملائه من حملة الفكر الذي ولج بابه أو وضع داخل

إطره إلى حد كبير موضوعية فهو يفرق بين من استطاع أن يحقق لنفسه مكانة ثقافية سامقة، وبين من اختار الطريق العملي وحاول أن ينغرس داخل المجموعات، وإن يكن لم يحسم المسألة بالنسبة له حول الخيارين ولعل العلاقة الشخصية قد حكمت الكثير من خياراته، لكنها لا تشكل الموقف الحقيقي تجاه حركة الحياة وحركة المجتمع.

لقد تفاءل كثيرا مع بداية أزمة طريق فزان، حين بدا الأمر وكأنه بداية وعي طبقي إن صح التعبير، حين تكتلت بعض القوى التي ارتادت النشاط التجاري موقفا شبه موحد من ذلك المشروع الذي قيل عن الانحراف في تنفيذه الكثير والكثير. لكن هذا الشعور ما لبث أن تضاءل لمجرد أن كانت النتيجة تقدم البعض إلى مواقع جديدة وهو بذلك يجسد عدم الإلمام الواعي بضبيعة المرحلة وطبيعة الصراع أيضا، فكل صراع لابد أن يفضي إلى خلخلة الواقع، ولابد أن يفتح الباب أمام قوى جديدة. ليست هناك مواقف مطلقة في الكامل. لابد أن يؤدي اهتزاز الواقع إلى إنسحاب قوة من القوى وبروز قوة أخرى. إن موقف الرفض الذي تبناه وأصر عليه يعتبر تجسيدا للنظافة والنقاء بدون شك، لكنه لا يعبر عن ضرورات المرحلة وشروطها. وذلك هو الفرق بين من يحفظ نفسه وبين من يحاول الإسهام والتحرك في اتجاه غيره.

لقد سرى نبأ وفاته كما تسري النار في الهشيم، حين تناقله

الناس في ذلك الصباح الكئيب كان يستحق النعي لدى الصحف والإذاعة لكن الإجراء يحتاج إلى قرار إداري يؤذن به، ولابد أن يكون باسم مؤسسة من المؤسسات. وبما أن الخبر قد نشر في الصحف والنهاية كانت نتيجة لذلك الحادث المؤسف فلم يكن من الممكن أن يتأخر الدفن. ومثلما كان عبدالرزاق والعويتي ونوري الأسطى والبهليل وبو طرطور والزقوزي ورجب وسعد وعشرات الرياضيين يتلقون أشعاره ويتحلقون حوله في نادي الشباب وبعضهم يصر على اختياره وهو خارج الاجتماع لسكرتيرية النادي الأهلي، كانوا في ذلك الصباح يطوفون شوارع المدينة وأزقتها واحيائها المختلفة وهي المسروقة النجوم كما وصفها بشعره وتتحول هكذا بغيابه، وهم يتبعون ذلك الشاعر المتميز والابن البار، لم يكونوا في حقيقة الأمر يحتاجون إلى من يشيع الخبر بواسطة وسيلة من وسائل الإعلام، فكل منهم مؤسسة كاملة، فكان أن أخذت الجماهير تتنادى احتشادا نحو ذلك البيت البسيط في ذلك الحي الذي يطلق عليه (زنقة بودينة) الذي يتوسط فشلوم وبن عاشور. إنه الشارع التريب الذي جمع بين النوعية والكثافة ويتقدم أبناء رفعت خير الله ذلك الإداري الممعن في الاستقامة والشموخ بوصفهم في حكم الأخوال بالنسبة لعلي لأن العم محمد تزوج شقيقة رفعت ذات يوم لتتولى تربية الأولاد حين اغتال الموت تلك الوالدة وعلى وإخوته في بداية العمر، فتؤدي هذه الخؤولة

إلى حضور عشرات الرسميين لتقديم التعزية لرفعت، وتتضاعف باقات الزهور من نوادي المدينة وأوساطها الرياضية تتقدمهم جميعا باقة اللجنة العليا لرعاية الفنون والآداب أهم مؤسسة ثقافية رسمية أسندت رئاستها يومئذ للأستاذ عبد اللطيف الذي كان في مقدمة الحاضرين، إن الإذاعة لم تتأخر والوزارة هي الأخرى، لكن الجماهير كانت كافية عن الجميع وسباقة قبل الجميع.

وجده الأسطى محمد الذي كان يذرف دموعه ويحرك شفتيه دون أي صوت، يتقبل العزاء بيد واحدة مخفية. لا أحد يعرف للأسطى محمد أقارب، وليس من حديث كثير لديه، كل الموجودين هنا يعرفون أنه من أقدم السكان أما الذين جاؤا من هناك من الظهرة فيعرفون العم «محمد» فقط. كانت مهنته التي اشتهر بها وعاش من دخلها هي البناء وقد قام ببناء معظم البيوت.

لا أحد يذكر له تسعيرة ثابتة كبقية الأسطوات،وهو ليس من الذين يأخذون أجرهم قبل أن يجف عرقهم كما يقول الحديث الشريف، الذي لم يحفظوا غيره ولم يعملوا بما سواه، بل إن البعض لم يسدد أجرة البناء ولم يرفع من جانبه أي صوت وعندما بدأت المرافق تولي مسؤولية الصيانة كان هو قد تجاوز الستين فلم يعين في وظيفة وهو لم يتعلم لعبة إنقاص العمر، فبقي يعمل بعد أن تمكن على من تسديد ثمن قطعة الأرض، لقد

تزوج في مطلع حياته بأم علي التي أنجب منها كما يقول دائما :

ـ خيار الذرية وليدين وبنية.

وعندما اختار الله تلك الزوجة كان البديل متمثلا في هذه المرأة الطيبة التي لم يتوقف أمام لونها فقد كان يهمه أن يحس أبناؤه بوجود أم لديهم وليس امرأة أب.

وقد وفقت تماما عندما أفلح كل منهم في الزواج ببنت الحلال، ووجدت الشقيقة المكتوب. وحين كان الأسطى محمد يذرف دموعه ويقول كلماته غير المفهومة تذكر البعض تلك الصورة حين كان علي يرتدي ملابس الزفاف ويتحلق به أصدقاؤه والأسطى محمد يسير خلف الموكب، لكنه اليوم أكثر انطواء ودموعه أشد سخاء. عندما كانت السهرية تمتد عقب الفراغ من التاليف كثر الكلام عن الانتاج الموزع ومصير الأطفال. لم تكن ثمة مشكلة فالضمان الاجتماعي موجود والوالدة يمكنها أن تقوم بالواجب. كان البعض يعتقد أن الجد هو الذي يتولى الوصاية. أما كامل أحد أقدم الأصدقاء فقد أسعفته خبرته القانونية إلى القول بأن الوصاية لا تتم إلا بموافقة الأم فهي المسؤولة الأولى عن أولادها ذلك هو منطق القانون، تنادت المجموعة لتدبير مبلغ مالي للطباعة وكان أكثر المسهمين فيه عبدالله وكان رأيه في حالة التلكؤ في الإنجاز فمن المهم تسليم ما جمع للأسرة. وحينما سلمت إلى الأسطى محمد وهو يخرج من جامع سي عبدالغني مثلما هو دائما يخفي يده،

ثمة من يتصور أن الأمر عائد إلى إخفاء المسبحة فيما يؤكد آخر أنها الحساسية التي تعاني منها يده بتأثير مواد البناء.

18

أصبح الواقع العربي، كما يبدو للمثقف المتسلح بالوعي، غائما إلى حد كبير، ولا يبشر بأي شيء يمكن أن يبعث الأمل، فالممارسة السياسية الشائعة في أكبر الساحات العربية وأكثرها جذبا للعامة تعتمد على واحدية الرأي، وتعتمد على الضجيج الإعلامي المفتقد لأبسط شروط المصداقية، والحرب اليمنية التي طال أمدها وتعددت أطرافها أنهكت أكبر الطاقات العربية. والتناقض الخفي بين جناحي أكبر حزب عقائدي قومي، حمل شعار الوحدة العربية، وفشل في تحقيقها بل وحتى الحد الأدنى لها مع توفر الحدود والفلسفة والتاريخ، والكيانات المغاربية التي تحصلت جميعها على الاستقلال ترسف هي الأخرى في أسوء حالات التناقض. حين بدأ الاصطدام المسلح بين أكبر قطرين مغاربيين، مما بات يتكفل بتحقيق مخططات الاستعمار بأكثر مما وفره الاحتلال المباشر ويظل الفكر العلمي كسيحا أو مغيباً أو معطلا عن القيام بأي دور تنويري، يمكن بواسطته استشراف أي أفق من آفاق المرحلة المقبلة، وما كان يلوح فيها من مخاطر. لقد كانت بوادر الأزمة واضحة، بيد أن السحب الكثيفة لم تسمح لأي رأي استشرافي أن يخاطب العقول العربية، فإذا ما انبعثت أزمة مضايق تيران، وأخذت أخبارها

تتصدر واجهات الصحف ونشرات الأخبار، وارتفع الحديث عن القوة العربية الضاربة، القادرة على محق العدو في ساعات محدودة، كان من الصعب على أي صوت واع أن يرتفع بما في ذلك الخبر الذي يمكن أن يحرك التفكير ويثير أدنى مستوى من الأسئلة التي تفرضها أي قاعدة سليمة تضع في حسابها الخسارة مثلما تضع احتمال الربح، فإذا ما اندلعت الشرارة الأولى للمعركة، وبدأ المذيع القادر على الإمساك بالعواطف الجياشة والعقول المغيبة يتحدث عن الطائرات التي أمكن إسقاطها وكأنها العصافير كان أصعب شيء أن يقول امرؤ لأولئك الذين كانوا يملأون الشوارع والأزقة وأروقة الإذاعة الليبية، حتى إن البعض كان يرسم خريطة الأرض المحتلة التي صارت أقرب إلى الإنسان العربي من حبل الوريد ! وهكذا لم يبق أمام من يحرص على متابعة الأخبار من مصادرها المتعددة سوى أن يكتم غيظه من ذلك الدجل الإعلامي الذي استمرت ممارسته تجاه المواطن العربي بالرغم من أن كل شيء انتهى في الساعات الأولى. كل الإذاعات تتحدث عن هزيمة محققة وصور شوهدت معروضة، في حين تستمر الإذاعات العربية توالي أخبار النصر المؤزر. ومع ذلك يعجز المرء عن الجهر بالحقيقة، فإذا ما خطر لأي إنسان كان أن يتساءل أو يشير إلى خبر آخر أو حتى يستفهم عن مكان المعركة مادام النصر قد تحقق كان أبسط ما يفاجأ به تهمة العمالة أو على الأقل التأثر بالأخبار المعادية وعدم الثقة في

المصادر العربية، فإذا كان المتكلم من العاملين بعقد مع الإدارة الليبية فإن الأخبار قد وردت إليه من السفارات الأجنبية وقد يوجد من رآه يتردد عليها حتى وإن يكن من الذين لا يعرفون للسفارات أمكنة ولا للعاملين فيها وجوها، فالحرب أولا وأخيرا إعلامية أما ماعدا ذلك فقد كان لا يعدو أن يكون هجمة شرسة أفلحت في ضرب الطيران مرة واحدة، وبقي الموقف بعد ذلك كيفما اتفق، أي أن كل شيء كان يتم في اتجاه الاستعداد لمرحلة المقبلة مرحلة ما بعد إعلان الهزيمة، أما بطولات المواطن العربي والجندي الشجاع والضباط الذين كانوا في حقيقة الأمر أبعد ما يكونون عن التأثير في الموقف العام ولم يكن لديهم سوى شجاعتهم وإصرارهم على التمسك بأرضهم، وفي جميع الأحوال وبعد ثلاثة أيام من نشوب المعركة كما هو معروف ظهرت الحقيقة كاملة، حين تأكد الاستيلاء على الضفة الغربية بالكامل فضلا عن سيناء والمرتفعات السورية.

وتمت مواجهة القوات العراقية قبل أن تصل وكما قدر العالمون ببواطن الأمور وبالأحرى من لديهم دراية بسيطة بطريقة تفكير العدو، إذ كيف يمكن أن تترك وقد أعلن المذيع الكبير خبر تحركها من العراق، معيدا إلى الأذهان ما كان يعرف بالمطار السري الذي طالما تحدث عنه سائق "التكسي" أو راكب الحافلة الذي يقول للسائق إنني أريد النزول في محطة المطار السري !!

لقد تأكدت نتيجة الحرب، وبدا واضحا أن الموقف المنتظر سيكون هو الاستقالة فهي النتيجة الطبيعية، وقد أجيب بذلك عن كل من تساءل في ذلك المساء وفي لهجة لا تخلو من الحنق، ولكن ما إن أعلن المذيع الخبر، حتى كان العجز الكامل عن الحركة، كانت اللحظة هي الخسارة المحققة، وكان السواد الكامل أمام النظر والمرارة العلقمية في الريق والانهيار الكامل في الجسد. بدا الأمر وكأن العدو دخل القاهرة وأن أحذية جنوده القذرة تدنس الأزهر، تضرب المحراب وتبصق في صحون العلم وحلقات الدراسة.

لقد أزف موعد مولد الطفل الثالث. ذلك هو قرار الطبيب ،لم يكن الجهاز الذي يحدد بواسطته المولود ذكرا أم انثى قد دخل البلاد، لكن أم البنين تقول إن الحركة هذه المرة تختلف عن ابنتيها السابقتين، الأقدار هي سيدة الموقف والخبرة تبعث على شيء من الأمل، والشوق إلى الولد بحجم الحياة نفسها. كان حظر التجوال قد فرض، ولم يتم استخراج التصريح بواسطة الصحيفة، فلابد من الاعتماد على البشير في معرفة ساعة الولادة وجنس المولود. كاد هذا الجنين أن يجهض لولا المبادرة بالاتصال بالطبيب وذلك بعد عملية الإجهاض التي حصلت بعد الحمل الثاني، لكن المبادرة أفادت. وهاهي الآن تدخل المستشفى بعد أن بدأ المخاض كان الليل قد تقدم نسبيا حين رن الجرس ليزف البشير النبأ قائلا (مبروك الوليد) كان

الاسم مقرراً منذ سنين بعيدة، فشدة الإعجاب بفاتح الاندلس لدى رفيق العمر، لقد ظل الاسم ملاصقا منذ أول حمل حتى الآن. حين اقترح الجد أن يكون الاسم (أحمد) لم تتيسر المجاملة، وإنما الرد بسرعة، لقد سمي "طارق". ماعدا ذلك فقد اغتالت الهزيمة كل الفرح وقتل التنحّي كل عوامل البهجة، حتى الاحتفال باليوم السابع الذي اعتاده الأقارب وجرى به التقليد اقتضت ظروف الحرب تأجيله لقد كانت أجواء الحرب مسيطرة على الجميع والنتائج السيئة منسحبة على كل الناس وحالة حظر التجوال مفروضة، والمخرج الوحيد هو التراخيص التي جرى إعطاؤها للعاملين في الإعلام وفي الصحف الخاصة أيضا، لقد كانت المجموعة كلها في المجال الصحفي ولهذا جاءت التراخيص للكل وإن اختلطت المرافق. إن نشرة الأخبار تحدد في الغالب موعد اللقاء، ومع يوسف وبشير، فأخبار الوكالة والإذاعة متقاربة. وكان الموعد في ذلك المساء هو النشرة الخامسة. عندما أذاع المذيع خبرا مفاده أن إيطاليا قد صوتت إلى جانب العدو الصهيوني بمجلس الأمن، فما كان من الجماهير إلا أن خرجت غاضبة تشعل النيران في عديد المتاجر التي يمتلكها الإيطاليون. كان الحرق في البداية قد طال محال اليهود لكن هذه المرة شمل محال الطليان وكانت الدقة الشديدة التي اتبعت لافتة للنظر، ففي المرة الأولى لم يمس محل واحد من محال الطليان أما هذه المرة فقد شملها وإن لم يقترب من المقاهي،

وكـانت لذلك أكـثـر من دلالة. فـمـن الذي استـطاع أن يجـعل حركة الناس تتم بهذه العفوية ؟ إن التـجمعات من البداية كانت تستنكر العدوان وكانت تتبنى الموقف المؤيد للدول العربية التي واجـهت الغـزو، أمـا في المرة الأخـيـرة فـقـد اقـتـصـر الأمـر على الحرائق دون غيرها، كان الشعور العام أن العدوان ربما يكون من هنا وذلك قبل أن يرتفع الصوت العربي.

ـ كنا ننتظرهم من الشرق فجاؤوا من الغرب !

وقد ظل كـذلك حتى عندما ارتفع مرة أخرى لينفي التـهـمـة عن الأرض الليـبـيـة فقد كـان للناس موقـفـهم العدائي الذي لا صلة له بالإذاعـات العربيـة بأي حـال من الأحوال، وكـان لقوى أخـرى نصيبها القوي في استـغلال الموقف لصالحـها قبـل أي شيء آخر. ولهـذا كان الدفع المسـتمـر نحو معارضـة وجود الطليـان واليـهـود بهــذه المتــاجــر على الســواء. إن أكــثــر هذه المتــاجــر مملوكــة للمؤسـسـات العامة. وكان لابد من أن تقفل، حتى عندما انتهت الحرب ورفع حظر التجوال بقي الترقب فترة طويلة.

ذلك أن أصـحـاب القـرار ذاتهـم يهـمـهـم أن يدفـع الأمـر نحـو تصـفـيـة هذه الحال فـالبـيـع لا يشـتـرط فـقط القـدرة على تسـديد الثـمن، ولكـنه يشـتـرط من يسـتطيع إقناع المالك بتـغيـيـر إيصـال الإيجـار حتى يمكن تغـيير الـرخـصـة، وأكـثـر من ذلك إقناع رقـابة النقـد بتحـويل المبلغ، ومن الذي يسـتطيع ذلك ؟ إنه الشـريك أو القـريـب أو الذي يقـدم الهـدية الفـخـمـة في المناسـبـات المعـروفـة

والأخرى التي بدأت تفتعل في كل يوم.

- تأكد من البداية، أن يوسف هو الذي أجاز الخبر الذي أذيع بصدد موقف إيطاليا بمجلس الأمن. وقد صرح بذلك في اللقاء المسائي فهو حسب اختياره أضعف الإيمان. كان قد فرغ من إتمام مراسم الزواج قبل أيام قليلة، فلقد كان الزفاف مصادفة ليوم 18مايو، وكان الحديث عن ذكرى الحادث من قبيل النكتة، فإذا باخرب تشتعل بعد ذلك بهذا القرب. لقد بقي عقد القران أكثر من سنةيحضر ويكمل استعداده، عندما أوفد لدراسة الإخراج التلفزيوني ضمن الاتفاق المبرم مع هيئة الإذاعة البريطانية التي كانت تتطلع إلى تدريب جميع العاملين في ذلك المجال. وذلك قبل أن تدخل أمريكا دائرة المنافسة. إن الفرق كبير بين الإذاعتين كما يقول الذين أوفدوا للجهتين.

ومثلما تأكد أن الخبر قد أجيز من قبل يوسف، تأكد أيضا أن الأمر لن يمر بسهولة فقد كان الإعلام محط أنظار الكثيرين، وهو في نظرهم المشجب الذي تعلق عليه كل مظاهر الفشل. إن للإعلام هواته الذين لا يملون من التطلع إليه، والحديث عن فشله والحسرة على ضياع عرشه، والحلم بالعودة إليه. ولهذا سارعوا بإلقاء اللائمة كل اللائمة على ما جرى في طرابلس على الإذاعة، لأنها لم تتحفظ إزاء هذا الخبر، ناسين أن الأكثرية تستمع إلى إذاعات أخرى ومن بينها لندن التي سارعت هي الأخرى بإذاعة الخبر. إن مجلس الوزراء في حالة اجتماع دائم.

ومن ثم كان الإسراع بتناول الموضوع، لقد حمل خليفة الذي كان يحمل حقيبة الوزارة كامل المسؤولية، وسط صراع بين أكثر من طرف. البعض يرى أن ما جرى في غير الصالح العام، والبعض الآخر يرى أن الموقف الإعلامي قد أفلح في احتواء الشارع الليبي والحفاظ على ثقته تجاه وسائل الإعلام إذ ليس من مصلحة أي سلطة أن يفقد الناس ثقتهم في إذاعتهم ومتابعة أخبارهم من إذاعات أخرى.

لقد استبعدت فكرة المساءلة التي دعا إليها البعض بشدة. إذ لم يكن ثمة من سر في هذا الصدد فأصحاب المصلحة لا يخفون موقفهم، وبعض الصحفيين الذين لا يمكنهم الحديث عن القضايا الأكبر يدفعون في هذا الاتجاه أيضا، فثمة تطلع إلى تغيير شخص الوزير الذي طال بقاؤه بعض الشيء، وقد يأتي التغيير حسب هذا التوجه بمن ينفق في سخاء فالقواعد الموضوعية لا تسر الذين يريدون الاستفادة.

لم يكن ثمة من سر في هذه المسألة، فكل شيء معروف بالنسبة لكل من يتابع الأمور بأي مستوى، وفي أغلب الأحيان تجيء الأخبار منسوبة إلى أصحابها، والمواقف من الأحداث لا يتكلم أحد تجاهها، بما في ذلك الحديث عن الهوية السياسية للكاتب والتي طالما استخلصت من كتاباته. إن هذه التجربة لم تنل من حقيقة ذلك الزلزال الذي عصف بالواقع من جميع نواحيه. وكان لذلك أسبابه المتعددة، فمن ناحية كشفت

الأوضاع هشاشة البناء السياسي، إن لم نقل إفلاسه، فقد كان خاليا من أي قاعدة أو ركيزة. ومن ناحية أخرى فقد اتضح الأمر بجلاء مدى العمق القومي المتأصل في كل القواعد لدرجة أن وصل الأمر بالبعض إلى احراق النفط. لقد كانت هناك قوى كثيرة تتحرك في هذا المناخ الذي فجره العدو، ودفعت به عواقب الهزيمة من ذلك فكرة التجمع الشعبي الذي حاول بعض العاملين فيه استثمار المناخ السياسي في عمل وطني أوسع يتركز على الخيار القومي، كما جرت في ذات السياق حملة الاعتقالات التي طالت مجموعات كبيرة من الوطنيين، بعضهم له نشاط سياسي مؤطر، وبعضهم الآخر يتحرك في إطار مستقل انطلاقا من الحركة النقابية التي تتيح في الغالب فضاء أوسع. لكن ذلك لا يعني أن الجميع يقرون ذلك النشاط. فقد كان هناك شيء من الاختلاف وكان أكثره بروزا الموقف من القضايا العربية، ليس من حيث المبدأ، وإنما من حيث اتصالها ببعض الجهات الدبلوماسية، فثمة من يحذر من هذا السياق ويرفضه وإن لم يكن الأمر متصلا بجهة عربية. فضلا عن ذلك فإن التضحية بالثروة النفطية لم تكن موضع إجماع، فاللعبة السياسية، حسب هذا الفهم أكبر، والحفاظ على الثروة النفطية بوصفها تخص الشعب في عمومه. وكيفما كانت الأخطاء مسألة مبدئية.

إن الأمر في هذا الصدد لا يصدر عن نظرة تجريدية، ومفهوم

مفتقد للأرضية، وإنما لأن اللعبة النفطية كانت معقدة، وتحتاج إلى أكثر من قراءة في جميع أحداثها وفي كل الخطوات المتصلة بصددها، إذ لم تكد البلاد توقف ضخ النفط عقب إغلاق قناة السويس، حتى تبين أن بعض الدول العربية قد باشرت في اتصالها بالأسواق الليبية. لقد كان هؤلاء يتظاهرون يومئذ بالموقف المتطرف، فيما يتخذ سرا موقفا مختلفا. لقد تبلور مفهوم خلاصته أن التناقض مع النظام لا يبيح التفريط في الأسواق الليبية. ولا الثروة التي تباع فيها، وأن المؤازرة والموقف القومي ينبغي أن يدعمه موقف وطني ذكي يدرك الممارسات التي قد تستفيد من الفراغ وتتسلل حيث لا يمكن ردها مرة أخرى. هناك من يدعو إلى التساهل وعدم التوقف أمام هذه الجزئية، إنطلاقا من الحرص على المناخ العام الذي قد يأذن بخلخلة النظام وهو الموقف الاستراتيجي لكن نظرة أخرى كانت تستبعد أن يحسب الآخرون الموقف بهذه الكيفية، إذ كل من يكسب موقعا من الصعب أن يقبل الرجوع عنه مرة أخرى، فالأمر في هذا الصدد، يبلغ مستوى الاستحالة، فالدول تتراجع حتى في الاتفاقات المكتوبة وتقدم لها أكثر من تفسير بهدف المماطلة في تسليم أي حق ناهيك أن يكون كل شيء قائما على الاجتهاد والعاطفة ومباديء الأخلاق التي يرى البعض أنها لا تتفق ومبدأ العمل السياسي.

إن مثل هذه المواقف لم تكن متصلة بأسواق النفط وحسب،

بى كانت تتصل بموقف أشمل وممارسة أوسع، أي مبدأ الاتصال بالخارج بمعنى تحديد الخارج : هل يشمل كل ما هو غير ليبي أم أنه يختص بالطرف الأوروبي وحده، ويبيح الطرف العربي والإسلامي.

كان هناك تصور أن العمل في الحقل العربي لا ينال، أدبيا على الأقل، من التنسيق مع الأطراف العربية المتمثلة في دبلوماسيتها والعمل في الحقل الإسلامي يبيح هو الآخر التنسيق مع الأطراف الإسلامية، غير العربية بالطبع، ممثلة هي الأخرى في دبلوماسيتها، بحيث تصبح التبعية محصورة في الطرف الأوروبي والشرقي على وجه الخصوص في حالة وجود التوجه الاشتراكي.

لكن تطورات الأحداث عربيا ودوليا، وتغير الواقع الوطني ذاته أفضى في نهاية المطاف. إلى بلورة تصور يتمرد على ذلك كله، تصور يرى أن الفكر خيار متاح ولا ضير في تبنيه، أما الموقف المركزي، فلابد أن يكون وطنيا قبل أي شيء آخر وربما بعد أي شيء آخر. ومن ثم فإن الثروة الوطنية سواء كانت ممثلة في النفط أوغير ذلك فلابد من الحفاظ عليها، مهما كان سوء التصرف المتبع بصددها، فالأرض باقية وحكامها متغيرون، وإذا كان هناك من يسيء التصرف اليوم، فإن الأمل كبير في تصفيته في الغد ومن ثم يضمن حسن التصرف وتحقيق المطلوب، أما الإتلاف والعبث فلن يترك أي شيء. لقد كان الخيار صعبا على

من يدفع بهذا الاتجاه فالتعبئة كبيرة. وأزمة الثقة مستفحلة، ولكن شبح الفوضى وشيوع المقامرة والانسياق خلف روح التفريط من الأمور التي تبدو ماثلة ايضا.

كان ثمة رأي، إذن، على قدر كبير من الجرأة خلاصته أن الثروة ينبغي أن تحفظ وأن الدخل ينبغي أن يتطور ويصان وأن أسواق النفط يجب ألا تضيع، وأيا ما كان سوء الحال فإن الأسوء من ذلك هو التفريط. إن كل الأمور السيئة يمكن أن تعالج بين لحظة وأخرى مادامت الأمور ليبية وبيد الليبيين. ومن ثم فإن الخطأ، كل الخطأ، أن يروج كائن من يكون لفكرة الاستجابة للخارج. مهما كانت شعاراته، إن أهم الأشياء أن يكون أصحاب الأرض سادة في واقعهم، مالكين لقرارهم، لأن من يفرط تحت مبرر عدم وجود الأهلية يمكن أن يفرط عند توفر الأهلية. كانت خلاصة الرأي أن المسألة مسألة مبدأ. وكلما بقي القرار مستقلا ووطنيا كان ذلك أدعى لتحقيق المصلحة العامة وللقدرة الذاتية وإمكانية تحركها في الوقت المناسب. لم يكن الخيار منطلقا من تبرير سلطوي وأنما هو ثمرة توجه واقعي وقراءة واعية ومدركة بأن المستقبل يلوّح بأشياء كثيرة.

19

أصبح جهاز الإعلام مستهدفا أكثر من ذي قبل. صار من المعتاد أن يقال، هنا أو هناك، إن تيارا سياسيا معنيا قد تحققت له السيطرة، وأن الأمر يشمل المسؤول الأول حتى إن مجموعة من العناصر الإعلامية ذات الأسلوب الموغل في التهافت والتي ليس لها من جهد سوى كيل المديح الرخيص والحديث عن الإنجازات التي لا مكان لها إلا في نفوس أولئك المتهافتين، وصل الأمر بها إلى الذهاب للديوان والإشارة إلى أسماء بعينها زعم أنها صارت تسير القطاع وفقا لنهجها السياسي. لكن المسؤول الذي فوتح في الأمر كان رده منهيا لكل أمل، وذلك بأن أحاط المشككين بأنه سيبلغ الوزير ويطلب إليه متابعة الموضوع، فهو فوق كل شك. كان ذلك يعني إشارة ذات معنى، فلم يكن الهدف من الحديث معالجة خطأ ما وإنما الإساءة الكاملة ومع أن بعض الإجراءات قد اتخذت بصدد إعادة النظر في اللجان المكلفة بالمجلات إلا أن الموقف العام كان بهذه الكيفية.

على أن استهداف جهاز الإعلام عبَّر عنه، بشكل أوضح، ما أشيع يومئذ من انتقال مجموعة كبيرة من العناصر الأمنية للعمل في وكالة الأنباء، قيل إن عددهم بلغ ثلاثين عنصرا ودفعة واحدة، وعندما جاء البشير بالمعلومة. كان التحليل بأن

الأمر لا يعدو أن يكون ضربا من ضروب الفساد الذي عشعش في البلاد بالكامل بمعنى أن عددا من المسؤولين غدوا يصرون على إفادة أقاربهم من كل الطرق ولو وصل الأمر إلى العمل مع الأمن الذي لا يرحب به الكثيرون. إذ ليس هناك أي داع أن يقع تشغيل مثل هذا العدد دفعة واحدة لو كانت المسألة منحصرة في الناحية الأمنية وبالأحرى الرقابية، فنصف العدد أو ثلثه فيه الكفاية لكن الأمر يتصل بالحرص على مبدأ الصرف وتحقيق الاستفادة ولو عن طريق مثل هذا الجهاز الحساس، وذلك هو التفسير الذي استقر.

كان الهدف الأساسي هو طمأنة البشير، فهو بعيد عن هذه الإشكاليات، ومن غير الصواب أن يسمح لأي شائبة أن تطاله. إن الأجهزة ذاتها تدرك بعده عن هذه العوالم.

مثل هذه المعلومات شاعت أكثر عند بدء محاكمة القوى الوطنية، التي شملت بعض التنظيمات والشخصيات النقابية والمستقلة، كانت متداخلة إلى حد كبير حتى لتبدو أحيانا سيئة الفهم، لكن أكثر التنظيمات شيوعا وفاعلية كان قد انقسم على نفسه واختلفت رؤيته تجاه الواقع العربي، ومن ثم الواقع المحلي. كانت الفئات قد استنفذت برنامجها ولم يعد ممكنا أمامها تقديم أي شيء، في حين كانت فئات أخرى ما تزال قادرة وماتزال مصرة على المشاركة والعطاء.

إن جميع شروط الواقع وتشابكاته أمست تدفع بفكرة

الإنحياز الكامل للكتابة في الصحف الخاصة، واختيار فضاء محدد بها. ليس لأن هذه الصحف تتبنى مشروعا مناقضا للمطروح. أو لوجود نزعة من هذا النوع بشكل ضاغط. وإنما لاستشعار ضرورة أن يظل المرء أسير اجتهادات مسؤلي المؤسسة الرسمية، وضيق أفق بعض العاملين فيها، وكذلك ما طبع ممارسات بعضهم من تسيب وضعف في الإحساس بالمسؤولية. لقد تحقق لبعض هذه الصحف شيء من الاستقرار، وشيء من الدخل الثابت، سواء من خلال المشروع الذي لم يعد سرا على العاملين في المجال أو ذلك الذي تساعده على توفيره شروط كثيرة هي أيضا معروفة لدى المنخرطين بشكل أو بآخر في محال المهنة. كان هناك أكثر من طرف معروف. هناك من نعت بالسخاء. وهناك من عرف بقوة النفوذ، وهناك من عرف بوضوح الخط، ومحدودية الإمكانات والمصداقية في التعامل. ومن الضروري أن ترجح كفة هذا الخيار بعد أن صح العزم على تجربة الكتابة المستمرة والانحياز النهائي.

إن بعض المسؤولين لا يخفون ضيقهم من المسؤولية الإعلامية، حتى إن أحدهم وهو يمسك بأعلى سلم المسؤولية قال بالحرف الواحد (الإعلام خارب) كما أن مسألة المتابعة أخذت في الزيادة بشكل واضح، حين تغيرت الحكومة إثر الحرائق وبدا واضحا عدم الاستقرار للخلف، ودخل مشروع تعديل قانون المطبوعات حيز التنفيذ، وفي اتجاه التضييق على التعبير بطبيعة

الحال. وكان هذا يحدث في الوقت الذي يحرص فيه الكثيرون على البعد الواضح عن أي شكل من أشكال التقاطع، وتحتل الكتابة الأدبية والوجدانية حيزا لا تضاهيه سوى تلك الممعنة في الثناء السخي والمديح الأسخى. ومع ذلك رجحت فكرة الكتابة بشكل رسمي، وتعذر الحصول على أي دعم لهذا المشروع ورغم أن الصحيفة متعاونة مع العهد وليس لها أي شكل من أشكال الاستفزاز أو المعارضة ذات الطابع العدواني كان ذلك في واقع الأمر جزءا من أسئلة كثيرة أخذت تلح في الطرح، عقب حرب الأيام الستة وما أفضت إليه من أشكال الفوضى التي عمت الواقع وطالت جميع نواحيه، وما ينتج عنها من اعتقاد يزعم الكثيرون أنه مجرد شكل من أشكال التغطية والمعالجة السياسية. لقد أدى ذلك كله إلى صراع بين عاطفة متأججة تبيح ما ارتكب وتسعى إلى تبريره، وعقلية شبه مسؤولة تكتسب إدراكها بواسطة الحوار اليومي مع قوى مختلفة، وتيارات متعددة تعول في تعليلها على أكثر من مصدر وتستعين بأكثر من دليل.

ومثلما تولد المواجع الكبيرة، ثم تأخذ في التناقص يوما بعد يوم. يبدأ التعامل مع الواقع وإشكالاته بشيء من الهدوء يوما بعد يوم أيضا، لكن يحدث في الآن ذاته أن يكتشف المرء فداحة الخسارة عقب وقتها بقليل أو كثير، والمهم أن ذلك قد لا يتم مباشرة.

على أن المراجعة اليومية كثيرا ما تضع المرء أمام الواقع، بكل ما فيه من إشكالات قاسية وحقائق مرة. عربيا كان بعض الأصدقاء الفلسطينيين أكثر قدرة على تحليل أبعاد وتقدير الأزمة والزمن الكافي لمراجعتها وعلى العكس مما قدر فهمنا الرومانسي بأن تصفية آثار العدوان لن تأخذ وقتا أكثر من ذلك الذي تم في زمن العدوان الثلاثي. إن الزمن سيكون أطول بكثير. إنه يحتاج إلى سنين طويلة. هكذا قدر فاروق وهو متعضن الوجه شارد النظرات في ذلك المساء الكئيب ونحن نستشعر المرارة في كلّ شيء. العرب لن تكون لهم قدرة على التحرك قبل أقل من خمس سنوات. ويومها سيكون العدو قد وصل مستوى آخر. هل أقول خمس عشرة سنة ؟ أظن أن الزمن أطول. كم هي قاتمة هذه الصورة والتي أردف إليها قوله :

ـ هذه الحرائق أيضا يستفيد منها اليهود. وهي ليست في صالح القضية كل شيء له ثمن سيسدد من هناك.

حتى الإكراه على السفر الذي طال اليهود سيقابله إكراه آخر. إعدام العائلات الذي حصل وأقدم عليه البعض ستكون عواقبه على السمعة العربية. هناك إساءات أكبر لكن وسائل الإعلام قادرة على إخفاء كل الحقائق وتحجيم الإساءات، بعكس ما يصدر من العرب الذي يفلحون في تضخيمه درجات ودرجات. ثمة من يقول ـ بدون شك ـ أنا الغريق فما خوفي من البلل، وبالتالي فإن ما جرى من أحداث يعتبر من الأمور

البسيطة والمباحة والضرورية أيضا، ففي مثل هذه الظروف يعتبر المفعول جائزا كما يقول الأوائل، وأي ضربة توجه فهي كافية لتحقيق شيء ما أو التعويض عن خسارة ما، إنه منطق الانفعال والاقتصاص غير المسؤول. ولكنه مباح من أعداد كثيرة من الناس، وليس من المنطق أن يتم التصدي لمثل هذه التيارات بدعوى أنه غير صائب، فلا مناص من مسايرة الوضع حتى يحين وقت العلاج مستقبلا.. إنه صوت العقل الذي لا بديل له، بدت مسألة الصمود العربي الذي ابتدع بعد حرب الأيام الستة تتضح أنها مجرد مبرر للتغلب على الأزمة المالية. ولا صلة لها بما يقدم من مال في الغالب بالمسألة الحربية. كان من الصعب أن يتم التصدي لهذا الأمر أيضا، لكن اللافت للنظر أن فئات كثيرة تدفع باتجاه زيادة المبالغ وهو سخاء ليبي لم يقدر ظروف الدخل العام فضلا عن احتياجات الناس، ومع أن شيئا لم يتقرر، إلا أن الرسائل الشخصية التي كثر الحديث عن إرسالها مع المبعوثين الشخصيين بين الفينة والأخرى تؤكد أنها لا تعدو أن تكون نوعا من المبالغ الاستثنائية التي تم تدبيرها بطريقة أو بأخرى وبهدف تلميع صورة أولئك الذين يقع عليهم الاختيار لحملها.

لقد ظهر في الأفق أن دوامة التسليح ستبدأ، كان الحديث عن هذه الجزئية قد شاع منذ فترة، حين ذكر أن أبرز الأعلام المعاصرين خالد بك، يتحدث في جلساته الخاصة أن البلاد تحتاج

إلى سلاح طيران قوي يعوض الندرة البشرية ويعالج مشكلة اتساع الرقعة. لقد تغيرت صورة البلاد بعد البترول ولم يعد أحد يستعبد إمكانية الطمع في خيراتها. لقد قيل إن وفدا أفريقيا وصل يومئذ. وقال أعضاؤه بلهجة ركيكة، لديكم إمكانيات ولابد أن تساعدوا أيها الليبيون !

يحدث ذلك في الوقت الذي ترتفع فيه بعض الأصوات بأن سيسة التسليح ستكون على حساب التنمية، بل وفي الوقت الذي يقدم فيه مثقف يساري معروف اسمه عزيز شريف بحثا مستفيضا عن مؤامرة التسليح بالنسبة للدول النامية والتي تقودها القوى الكبرى في تنسيق واضح من الغرب بقيادة أمريكا من ناحية والشرق بقيادة الاتحاد السوفيتي من ناحية أخرى ! عزيز شريف بنظرته تلك يقدم الدليل على أن المثقف الحقيقي حين يعتنق فكرة ما يربأ بنفسه عن أن يسخرها لخدمتها وإنما يوظفها هي لتحديد رؤيته. وهكذا لم تجبره عقيدته الماركسية على غض النظر عن سياسات الاتحاد السوفييتي التجارية في مسألة التسليح وملابساتها الكثيرة.

20

كان أحمد قد استقر في هذه المرة بشكل نهائي في المدينة ، بعد أن أنهى دورة تأهيلية بالخارج ، وإقامة لا بأس بها في مناطق الدواخل ، واحتل موقعا متقدما صار بإمكانه أن يسهل مهمة الدخول إلى القوات المسلحة لكل من تتأكد صلاحيته وتتوفر ضمانة سلوكه ، وقد كان شديد الحماس لهذه المهمة ، كبير الحدب على العاملين في المؤسسة وقد قرر يومئذ شأن بقية الزملاء أن يدخل عش الزوجية ، كان يبدو نتيجة جديته المفرطة قد تأخر بعض الشيء . وقد أمكن الاحتفاء بالحدث رغم مرارة الهزيمة العربية . ولم يتأخر أي من زملاء النادي عن المناسبة ، رغم أن النادي كاد أن يكون في حكم التاريخ ، إذ طرح في ذلك الزمن مشروع دمج النوادي وصار لزاما أن يشمله المشروع لعدم وجود الدماء الجديدة . إن الحزن العربي لم يستطع التأثير في الفرح ، لأن العام بطبيعته أعجز من أن ينال من الخاص . كانت المناسبة جميلة من حيث الوقع الوجداني ، ومن حيث التجمع الكبير الذي شمل كل الوجوه القديمة التي شتتها الزمن وأثرت في مسيرتها ظروف الحياة . وبدا واضحا أن أحمد بالرغم من ظروف الفرح ومشاغل الحياة ، وحساسية الموقع يحاول التعبير عن بعض الأمور التي تخص الجميع وتتصل بشكل أو بآخر

بذلك الواقع خصيصا . وتم الاتفاق على تأجيل ذلك إلى فترة قادمة وفي أقرب وقت ممكن . وقد جرى هذا الاتفاق في لحظات أمكن سرقتها ونحن نعينه على بعض أسرار المناسبة ، وفقا لما تفرضه واجبات الصداقة التي تقتضي أن يتولى خدمة العريس أعز أصدقائه ، ولأن العريس صديق الجميع فكانت هذه المهمة أيضا ليست مقصورة بالمعنى الحرفي للكلمة . لقد حضر عدد غير قليل من زملائه . وكنا من جهتنا نستشعر الصراع مع هؤلاء ، ونخشى كثيرا أن يسرق صديقنا من بين أيدينا ، ففي بعض اللحظات يتحرك في أعماق الناس كل ما من شأنه أن يدعم الأشياء الصغيرة ، وربما لعدم وجود مشغلة أكبر ، ومن المؤكد أن عزيزاً أكثر إحساسا بهذه الوضعية فهو شديد الوفاء لدرجة الحساسية ، يخاف كثيرا على أصدقائه الخلص من أن تتسلل إليهم الروح الشريرة التي كثيرا ما تجيء بعوامل الحسد وبعوامل اقتراب بعض أصحاب النوايا غير الطيبة من العريس ! ولذلك فهو لا يرى حرجا من أن يبدي امتعاضه من أولئك الذين يقتربون من أصدقائه بشكل لافت للنظر وربما رفع صوته قائلا :

ـ سامحني يا خوي هذا شغلي أني ، متشبثا بالسير خلف صديقه مباشرة وهو يدرج للدخلة، وكذلك فعل في تلك الليلة .

ـ أحدثت الحرب عندما انتهت بالشكل الذي انتهت إليه آثارا عميقة للغاية ، تمثلت في مضاعفة الشعور بعدم الاستقرار، وربما عدم الرضا في مجال السلطة التنفيذية ، لعل إقصاء اثنين

من الوزراء جسد تعبيرا ملموسا عنه وتأخرهما عن حلف اليمين أمر ليس بالبسيط . ومما لا شك فيه أن إرجاع الأمر إلى تقصير شخصي هو بلا جدال من قبيل تسطيح الأمور ، فالمسألة أولا وأخيرا لا تخرج عن أن المواقع لم تعد تملأ أعين البعض ولا تحظى باهتمامهم . وقد انعكس ذلك في نهاية المطاف على المصير الشامل وقد كان إبعاد خليفة من التشكيلة الجديدة مؤشرا آخر حمل في طياته ما يمكن وصفه بانعدام الجدية بصدد ما قيل بعد ذلك في مجال الإعلام بالذات ، وفي الضيق من المبالغة في الدعاية وتصوير الأحداث العادية بأنها تصل إلى مستوى الإنجاز، غير أن هذا الإجراء من ناحية أخرى ترك العاملين في حقل الإعلام والثقافة إلى حد كبير أمام مسؤولياتهم ، وترك السلطة التنفيذية كذلك أمام مسؤولية أضخم . فقد كان الفارق كبيرا بين الأداتين من حيث النظرة ومن حيث طبيعة الخطاب .

ومن الممكن اعتبار الاستاذ طارق الذي حمل يومئذ حقيبة الصناعة ، والذي جاءت به ظاهريا شروط التقليد المتبع الذي حرص على اختيار أحد أبناء عشيرته لشغل مقعد من المقاعد . والذي تعتبر أسرته ذات حسب ظاهر ومسلم به في هذا السياق فإذا به يخرج عن ذلك كله ويرفض جملة وتفصيلا كل محاولة ترمي إلى وضعه داخل إطار قبلي ضيق ، سواء من حيث الممارسة الداخلية ، أو من حيث الموقف النظري الذي يرجع الجذور لعرقية إلى أقاصي الخليج وتبدو الخطوة المتمثلة في تقرير علاوة

السكن لجميع الموظفين وبنسبة تساوي متوسط الإيجار الذي طالما نعم به البعض تحت مبرر النقل من خارج المدينة من ناحية وبعوامل العلاقة الشخصية من ناحية أخرى إجراء حاسما في إشعار الناس بوجود دخل ينبغي أن يستفيدوا جميعا منه . لقد قوبلت هذه الخطوة بوجوم شديد ، وذلك لأن المؤثرين في المجال الصحفي كانت مصالحهم مضمونة وتوصياتهم مقبولة ، وربما خامرهم شك بأن العاقبة لن تكون لصالحهم .

كنت على سبيل المثال ، وكواحد من الصحفيين ، أسكن بيتا ايجاره خمسة وسبعون دينارا كاملة ، أتحمل منها وفقا للائحة الأسكان عشرة دنانير لا غير . ويومها صعقت خشية أن أواجه وضعا صعبا ، وأكره على الخروج من البيت ، فإذا بالمتوسط العام لا يتجاوز المقرر إلا بذات النسبة ، فإن اختصرت بعض الحجرات أمكن التوفير .

كل مستفيد من إجراء لابد أن يدافع عنه ويدافع بكل قوة . ولن تعوزه الحجة ، ولن يفتقد المبرر ، ومما قيل يومئذ وفي إطار الترويج للإيجار والإبقاء عليه ، أن الهدف هو ضمانة لمستوى المعيشة الجيد لمن يستحق الإسكان وليس تركه أمام رحمة المالك ، ليس هذا فحسب وإنما قيل إن الخطوة تعني التخلي عن المستأجرين.

لقد حددت العلاوات بالدرجة وأتاحت الدرجة إمكانية الحصول على سكن أكثر جمالا وألفة ، وكان لابد من حمل

المسؤولية . ومادام المرء قد هجر مواطن الصبا ولم يبق إلى جانب من هو من صلبهم ، فلا ضير من هجر من هم دون ذلك . وليس من المنطق ، وبكل المقاييس ، أن يترك أمر الأطفال للعديل الطيب ، حتى إنهم صاروا يدعونه بالأب . فزيدان العطوف له مسؤولياته ولابد أن يكون وقته خاصا به وحده . ولا يجوز أن تكون مساءاته مكرسة لخدمة الأسرتين وإنما في اتجاه الرفع من دخله وتغطية احتياجاته الكثيرة . لقد أثقل هو الآخر بمقدم والدته وشقيقه وصار لزاما عليه أن يتكفل بتسهيل الإقامة فهو مسؤول عنها في نهاية المطاف .

ذلك وضع زيدان ولا داعي للإثقال عليه . لابد ، إذن من حمل المسؤولية ، لابد من التفكير في سكن جيد ووفقا لما تاحته العلاوة مع النسبة التي خصمت ، لابد من التدليل على أن الشقة كانت في محلها ، أي أن يكون السكن مناسباً ومشجعاً على ممارسة الهواية التي سيطرت على القلب واليد واللسان ، لابد من بيت به حجرة للكتابة والكتاب فضلا عن الأطفال والنوم والزائر أولا ، والزائرين إن وجدوا ، وحديقة للتأمل والتنفس ولعب الصغيرتين والولد .

– لم يكن الأمر يحتاج إلى عناء كبير في البحث ، فسرعان ما أفلح ابن العم الذي أثبت وجوده في مكتب الاستخدام بالحصول على الشقة المطلوبة ، فالشارع جديد تخطيطا وتعبيدا ، وهو يربط بين شارع فشلوم الذي طالما شكل قاعدة

شعبية مهمة خلدها يوسف ومثلها برجولة صفر ، وشارع الجرابة الذي حل به البشير ابن العم ذات يوم وشهد لحظات جميلة من العمر ، وفي بداياته الأولى بداية الحلول بالمدينة والوصول إلى هناك فيما شابه الحلم في تلك الفترة المبكرة من الخمسينيات ، نقش ذلك وبرز الآن على سبيل النكتة كيف تتبدل الأيام . تبين أن الأوضاع ليست بالبسيطة ، وأن الصراع أكبر من أن يتصوره العقل المحدود ، بيد أن العاصم الوحيد هو التفكير بصوت عال ونشر خلاصة هذا التفكير في الصحافة بالذات . كان ثمة (ميدان) صالح لاستيعاب هذه الكتابة . وكان ثمة (فاضل) حري بحمل هذه الكتابة ، حين تكون قابضة على الحد الأدنى من شروط الكتابة والتزام التوقيت . إن التعامل مع هذه الشروط ، حين تتوفر العقلية مريح للغاية ، ثمة ضمان للمردود المادي والأدبي ، لن تفلح أي قوة في الضغط لملاحقة الرأي حين ينشر ، ولن يقع التخلي عن مسؤولياته أيضا .. وفي ذلك الكفاية كل الكفاية وسيكون مضحكا ومخجلا في الآن ذاته لو أعطى المرء أية أهمية للحساسية فلقد تجاوز الجميع الثلاثين رسميا على الأقل . وكل حديث يقال هو في الحقيقة من باب المزايدة السياسية ومحاولة إقحام الكتاب في اللعبة الإعلامية ، حتى النهاية ، ولا يحتاج الأمر إلا للصمود وستفشل كل الضغوط في النهاية . من المهم والحالة هذه أن تتضاعف المساهمة وأن تشمل القضايا الأدبية

ومشكلات الواقع في ذات الآن ، كانت مسائل كثيرة قد طرحت في «الحقيقة» ، وفي إطار توكيد استقلالية الموقف ولم يخف محمد البشير إعجابه بطريقة التناول . كان الهدف تناول الموضوع بعيداً عن الاستفزاز وفي حرص على إبداء الرأي المكتمل كان الأمر في الواقع يتصل بالسياسة الإعلامية ، وبانسلبيات التي يعاني منها العمل الإعلامي ولكن من دون إثارة لم يعد من المقبول أن يتوقف المرء بشكل أحادي ، تجاه ما طرأ على قطاع الإعلام من تغير ، فالمسألة وفقا لذلك تشمل البلد في عمومه ، ولا مجال للقبول ببعض الاجتهادات . أو لنقل المزايدات ، كان الخلاف واضحا بصدد الأسلوب ، ومن الصعب أن يقبل المرء بفكرة التأليه لرأس النظام .

إن النموذج السائد في الإعلام العربي هو ذلك الذي يمكن وصفه بمن مارس لعبة الـ(بين بين) هو نموذج ينقد الواقع ، ويتحامل على العدو ، ويدين الاستعمار غير أنه يشكك في إمكانية القدرة على أي فعل . ليس من أجل التحفيز إلى العمل أو وقف سلبية من السلبيات ، وإنما للممارسة ذاتها ، نموذج يرفض الاستسلام من دون أن يقترح اسلوبا للمقاومة يتبنى شعار ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة لكنه يعتبر حرب الاستنزاف مجرد مضيعة للوقت أو تبرير العدوان منتظر ! يصب جام غضبه على الاستعمار الأمريكي ويتحرق شوقا للتعامل الاقتصادي معه ، ولا يجد غضاضة في الإقبال على

سلعه ، الاحتفاء بكتاباته يفوق الوصف وإذاعة ما تميص به صراحته يقوم به أشهر المذيعين وأقدرهم .

هذا النموذج جرت محاولة بعثه في هذا الواقع أيضا ، فصرنا نلتقي به يوما بعد يوم ، يعيد إنتاج ذات التفكير ، ويضيف إليه قاموسا آخر تمثل في نقد الواقع العربي عامة ، والحديث عنه تحت مصطلحات غاية في السوء ، والواقع المحلي خاصة وفي شيء من الاستخفاف صار من الممكن أن يقرأ المرء عن مجتمع من المجتمعات العربية ، صفة الديوك المخصية ، وأن تطلق عليه مقالات بعنوان «زورونا لكي نقرصكم» هي مقالات هدفها الأول والأخير توجيه المعركة عن ميدانها الضروري من حيث مواجهة السلطة المحلية وممارساتها إلى فضاء هلامي يحرص على إلقاء التبعة على الناس باعتبارهم المسؤولين وليس من أجل تحفيزهم على الحركة وإنما في إطار السخرية ليس غير ، كانت الإذاعة تحتفي احتفاء ظاهرا بهذا النوع من الكتابة وتقوم بإذاعته من باب إعطاء الأهمية من ناحية والترويج لهذا التوجه من ناحية أخرى . وليس من المستبعد أن يكون ذلك قد تم في إطار الاستيلاء على حق الكتاب بشكل عام .

- لم يعد ثمة من مجال سوى ممارسة التفكير بصوت عال ، والنشر في الصحافة بالذات . لقد أصبح من المضحك أن يعير المرء أي اهتمام لبعض الحساسيات التي طالما راهن البعض على الدق عليها في الفترة التي تلت نكسة يونيو ، وما نتج عنها من

أوضـاع شـملت الواقـع الليبي في أكـثر من مـجـال ، وطالت في نهاية الأمر السلطة التنفيذية .

نقد بات واضحا أن ما دأب البعض على التلويح به من وجود علامة استفهام حول عديد الكتاب ، إنما هو من قبيل المبالغة الإعلامية من باب التأثر بحملة الشائعات التي دبرت حول ذلك القطاع بهدف القفز عليه والظفر بحقيبته في أي تعديل وزاري كان من الضروري أن يتم عقب الحرب وما رافقها من أحداث ، وهو ما جرى فعلا وطال عناصر كثيرة .

من هنا كـان من الضـروري أن تتـضـاعف المساهمـة وأن تصم الآذان عن أي إشـاعـة تروج ونصـيحة توجه ، كثـيرا مـا يكون باطنهـا فيـه الرحمـة وظاهرها من قـبله النقـيض . بما في ذلك الزعم بأن من نصح بإبعاد عديد العناصر و ثمة من صرف النظر

.

كان أول حديث أثير متصلا بوجود يوسف في قسم الأخبار ومسؤوليته عن خبر إيطاليا ، وهو موضوع قديم وجرى تطويقه في حينه وإذا به يعاد إلى دائرة الاهتمام مـرة أخرى ، ويترتب عليه في النهاية نقل يوسف من القسم . ولكن اللافت للنظر أن القرار تضـمن إنشـاء قسم استحدث خصيصـا كـمـا تزامن مع سفـره ضـمن وفـد رسـمي ، كـمـا لو كـان الهـدف هو الإرضـاء والحيلولة دون إحالة الأمر إلى سلطات أعلى . بمعنى أن الإجراء كـان إعلاميا وناتجا عن موقف مسبق ، وعن استـغـلال لتلك

الحادثة من قبل المتطلعين للإعلام ومن الضروري أن يتخذ إجراء. لأن من يفتعل حادثة لابد أن يصدق نفسه بصددها .

لقد تأكد والحالة هذه أن الإجراء لا يتصل بتوجيه سياسي تتحمل مسؤوليته الدولة ككل ، مما جعل ردة الفعل إزاء التصرف تعمد الاستخفاف وعدم الاكتراث ورفض كل الضمانات التي رافقت الإجراء . فقد كان الإجراء في غير محله ولا يتفق مع طبيعة المرحلة بأي حال من الأحوال .

- إن الواقع القائم يتيح إمكانية المشاركة بصدد قضايا كثيرة . كان صعبا دون شك أن تكون السلطة التنفيذية رافضة للمناقشة جملة وتفصيلا ، فما كان يشكل الإزعاج لدى بعض الناقدين هو شدة غيرتهم من عناصر قادرة على المشاركة بأسلوب مختلف وجرأة أكبر ، وكان هؤلاء قبل غيرهم يحرصون على الحيلولة دون المشاركة . لقد تحول العمل الصحفي إلى شيء من الحرفة ، وغدا العاملون في حقله يفلحون في تناولهم ، ويتنزهون عن الطمع المبالغ فيه أكثر هيبة وأشد تأثيراً ، وهذا ولد شيئاً من الرغبة في المشاركة في المشاريع الإعلامية والصحفية خصيصا لما تمثله هذه المهنة من قدرة على الضغط للحفاظ على المواقع من ناحية وزعزعة كل من يستلم هذه المواقع في المستقبل من ناحية أخرى .

- إن مستوى الوعي الذي طبع الحياة ، أفلح في فرض وجوده على بعض العقليات النافذة ، صار يتجسد في عديد البيانات

الرسمية ، والتي بالرغم من ارتباطها ببعض المناسبات لم تملك إلا أن تمتثل لخطاب يقوم على التسليم بما في الواقع من أشكال التخلف وما تطرحه الحياة من أسئلة حقيقية . وكان ذلك بالنسبة لمن يتناول الأمور برؤية أكثر جدية وموقف أكثر صراحة يوفر حيزا لا بأس به للمشاركة بخطاب مختلف يرفض المبالغة الإعلامية ويترفع عن المدح الساذج والكلام الذي فقد تأثيره لكثرة ما تردد وابتذل هو خطاب لا يرفض الموجود ولكنه يعمد إلى الاستفادة من كل فرصة تتوفر لتقديم خطاب بديل والتعبير برؤية لها منهجها ولها موقفها المتميز الذي يفلح في تحديد كلماته . وهو بالتالي يفرض على المسؤول أن ينحاز إلى هذا التوجه ، ويدين المعالجة الصحفية والإعلامية التي لا تملك إلا المبالغة وكيل المديح وإفراغ اللغة من دلالتها إن صح التعبير .

وقد كان دعاة المبالغة وأنصار الأحكام الجاهزة يصدرون في موقفهم عن نزعة سكونية ترفض التجديد وتهاب الاجتهاد إنْ على مستوى اللغة أو على مستوى الأسلوب ومن الواضح أنهم أدركوا بحكم دهائهم وقدرتهم على المناورة أن كل تغير في الخطاب أو دعوة جادة إليه ، ستفضي إلى إعادة النظر في انكوادر ذاتها إذ أن من أبسط شروط تجديد الخطاب القيام بتطعيم العاملين في حقله إن لم نقل تغييرهم بالكامل . والواقع أن بعض المعنيين بهذه الإشكاليات لم يخفوا مواقفهم ولم يترددوا في توضيح كل مالديهم من أن الحديث عن تغيير

الخطاب الإعلامي سيكون مجرد كلام لا يسمن ولا يغني من جوع ما لم تسنده خطوات عملية تهز الجهاز هزة لا تبقي ولا تذر . وكان ذلك في حقيقة الأمر مصدر إزعاج ومثار قلق لعديد المستفيدين ، مما أدى إلى الحديث بمناسبة وبلا مناسبة عن مخاطر فكرية مزعومة وآراء لا تتفق بطبيعة الحال مع الولاء الذي تفردوا به دون غيرهم ، والإخلاص الذي لم يعد موجودا عند من سواهم ، وصارت كلمات الانطلاقة العملاقة والخطوة غير المسبوقة من أبسط ما يتفوه به العاملون في الجهاز والمتربعون على عرشه .

لقد جمعت الكتابة بين خطين متلازمين ، القضايا الداخلية التي تمس الناس مباشرة ، وتجد مناخها في انتقاد بعض الظواهر أحياناً ، وخطأ التنفيذ أحيانا أخرى في حين توفر بعض القرارات الإيجابية والمعالجات العلمية أو شبه العلمية مجالا لتقديم كتابة غير اصطدامية وربما مؤيدة إلى حد ما . ومن المؤكد أن العناصر التي حاولت الإصلاح من الداخل ، والعمل في إطار المتاح قد استطاعت أن تقدم شيئا من العمل المعقول . مما أوجب المؤازرة من كل كتابة مسؤولة لعل أبرز من أفلح في التعبير عن ذلك الخبير المحاسب المعروف (طارق) الذي نهض بالقطاع الصناعي . فقد كان مثالا نادرا على توفير المناخ الملائم للتحرك الايجابي . ذلك أن الاستفادة من هذا الرجل لم تتوقف عند قطاع الصناعة فحسب وهو الذي أفلح بقوة في تطوير أجهزته

وتنميـة عطائه وسلامة اختيـار ملاكاته ، وإنما أعطاه عـمله المحاسبي صورة لا بأس بها عن واقع التصرف في قطاع آخر اتجاه التجرد من المحسوبية واستغلال النفوذ واللهث المخجل خلف الكسب الشخصي.

لم يكن طارق وحده الذي كون القطاع ، فقد وجد قبله بدون شك ، وقطعت بصدده بعض الخطوات الطيبة ، إلا أنه أفلح في تفعيله والدفع به نحو الدور المطلوب ، لقد حوى مجموعة من العناصر المؤهلة تأهيلا جيداً للغاية والمتوفرة على رغبة صادقة للعمل وفي حرص على المثابرة والعلاج السليم ، فكانت المشاريع الصناعية تخضع لدراسة مكانية وكانت البحوث التي تقدم بصددها تصدر عن دراسة ميدانية ، لعل من أشهرها عملية المسح الكبرى تجاه المعادن والمواد الخام التي اضطلع بها المهندس جاد الله إثر عودته من دراساته العليا ، عندما توجه إلى أقصى الجنوب ليدرس وينقب ويحلل ويقدم نتائج بحثه في هدوء وزهد طاهر وترفع عن الظهور لقد ركزت مجموعة الصناعة همها في بعث صناعة وطنية يمكن أن تفي بحاجة المستهلك أولا وعدم الإثقال عليه بأسعار التكلفة المرتفعة ، بحيث تتحقق الموازنة بين الطموح الوطني واحتياجات الناس ، فكانت بطبيعتها تلك تؤسس لثقافة تضع في حسبانها ما يشهده العالم من تطور تقني وما يسوده كذلك من عمل تكتلي يجعل من المستحيل على أي قطر عربي أن يتحرك

بمفرده . انطلاقا من قاعدة بسيطة مفادها أن كمية المصنع هي التي تحدد ثمن التكلفة . وكلما كان المطلوب أكبر كان الثمن أقل .

ومادام الهدف من كل عملية تصنيعية إسعاد المواطن وإفادة المستهلك فلا مناص من التحرك في مناخ أكثر اتساعا ، الأمر الذي أدى إلى بعث اللجنة الدائمة للمغرب العربي ،كمحاولة جادة في مجال الاقتصاد ، لقد أحبطت فكرة المغرب العربي ولفترات طويلة ، التحفظ السياسي ، من قبل عديد العناصر التي كثيرا ما تلقنت بعض الحملات التشكيكية وتبنتها دون أي تمحيص أو مراجعة فغدت تنظر إلى القائلين بها شزرا إن حضروا ، ولا تتورع في رميهم بأبشع النعوت إن غابوا وترى في هذه الفكرة عملا معاديا للعمل الوحدوي لا ينطلق من الإقليم القاعدي كما كرس يومئذ وصار يعادي أي تحرك وحدوي في شرق الوطن العربي ومغربه على السواء ، على الرغم من أن المشروع المغاربي لم يطرح في يوم من الأيام مسألة الوحدة السياسية وإنما كان منطلقا من فكرة مبسطة إلى حد كبير وهي فكرة التكامل الاقتصادي بمعنى أن يكون ثمة كيان تخطيطي يدرس الامكانيات البشرية والمواد الخام والأسواق ليصار بعد ذلك إلى شيء من التنسيق في المجال الاقتصادي ، كي لا تتكرر المشاريع وتتضارب وتضيع تحت ضغوط المنافسة غير الضرورية والإهدار المتعمد للإمكانيات .

كـان في الحـقـيـقـة مـشـروعـا من مـشـاريع التنسـيق لو طبق سيؤدي إلى كل الخيارات الأخرى ، لقد ارتفع الحديث حول هذا الخيار عشية استقلال بعض دول المغرب العربي وكان متزامنا مع الحديث عن الوحدة الأوروبية التي تحدث عنها كثيرا وبالطبع عمل من أجلها كل من أديناور في ألمانيا وديغول في فرنسا. وكان الحديث بصددها يتناول المواصلات ، الصناعة ، الطيران ومرافق أخرى كثيرة . وقد حمل دعاة المغرب العربي ذات الفكرة وحاولوا أن ينطلقوا من نفس المنطلق ، فماذا حصل للاتجاهين . لقد سارت أوروبا في طريقها ذاك وفي كثير من العمل وقليل من الكلام ، في حين انطلقت الأصوات الإعلامية السفيهة لتشكك في أي خطوة وتتحامل على أي تحرك ، حتى لقد بدا أن كل خطوة في الإطار المغاربي محفوفة بالمخاطر ، وهو أمر لم يعره العاملون في مجال الصناعة والاقتصاد من الطرف الليبي أي أهتمام وذلك لإدراكهم الجيد لأبعاد اللعبة وتقديرهم للمصالح الليبية التي تفرض بالضرورة دعم التوجه المغاربي والإسهام فيه بما يوفر المصلحة ويحقق التوازن ويحول دون العزلة التي حاول البعض فرضها عن سوء نية مسبق أو عن جهل لطبيعة المرحلة .

لقد أفلح هؤلاء بحكم اختصاصاتهم وإلمامهم بحقيقة الإمكانيات في التفريق بين خطب الساسة وإعلامهم ، ومشاريع التصنيع وكلفتها والأسواق وشروطها كانوا يعلمون

استحالة العمل في الأفق غير المغاربي لوجود ارتباطات تعذر التخلص منها ، وإمكانية التحرك في الأفق المغاربي فكان حماسهم وكان تأثيرهم على كل من يفكر بمسؤولية .

- إن العبء الأكبر في التعريف بما يجري في القطاع من حيث المشاريع والكفاءات البشرية وما تتوفر عليه من القدرة والحماس للعمل ، يقع على عبدالله عمر القويري ، الذي اشتهر بين أصدقائه «بالفرعوني» فقد رافق الصناعة منذ تأسيسها وكان وراء تجميع الكثير من العناصر ، إذ وفر له عمله بالخدمة المدنية في البداية معرفة أكفأ العناصر ، وحاز لحسن خلقه تعاون الجميع ، فهو يجمع بين المقدرة وحسن التصرف ، ولديه فراسة جيدة وقدرة على الاحتكام لمنطق العقل، فعن طريقه أمكن إدراك ما بذل في عديد المشاريع من حسن الدراسة وتحقق المردود تماما مثلما أمكن التعرف على عديد العناصر الوطنية من الذين كانوا في سنوات تخرجهم الأولى سواء من جامعات أوروبا أو من الجامعة الليبية ، أولئك الذين كانوا يعملون في صمت وينتجون في هدوء ، رغم رداءة الواقع وظروفه الصعبة ، ووجود الكثير من المعوقات . لقد كانوا جميعا يقدمون صورة عن العزيمة الصادقة والعمل الوطني الشجاع ويعبرون عن الوحدة الوطنية في أجمل صورها . حتى إن المرء حين تسوء أمامه صورة الواقع وتنال من صبره لحظات اليأس يلوذ بالأمل الذي يلوح من إلى ذلك القطاع الذي يبدو في

أحيان كثيرة وكأنه خارج الواقع الآسن بالكامل .

إن جل العـاملين - إن لم نقل كلهم - يرفـضـون النظام ، ويضيقون ذرعا بعديد الممارسات غير المسؤولة ، ويتوفرون على دراية واسعة بأدق أسراره ، وعلى الأخص فيما يتصل باستغلال النفوذ ولكنهم يفرقون بين معرفة هذه الأمور السيئة وبين مبدأ أداء الواجب ، كان عزاؤهم أن القطاع يعتبر فنيا إلى حد كبير ، ولا توجد فيه اصطدامات تذكر ، وكانت ثوابتهم متمثلة في الإصرار على أداء الواجب والتمسك بأكبر قسط من التفاؤل . كان إيمان أولئك الرجال أن الثقافة رسالة وليست امتيازا على من يلج بابها أن يؤدي واجبه الوظيفي الذي يعيش منه بقطع النظر عن الكتابة الأدبية ، كان ذلك عند مناقشتهم حقوق بعض المثقفين الذين عملوا في القطاع موظفين ولم يلتزموا بما يفرضه الواجب من الحضور والانصراف بدعوى أنهم أدباء ، في حين أن الأدب هواية وليس وظيفة .

- إن التخطيط أيضا يتوفر على مجموعة ذات إسهام جاد في المسألة الثقافية . وإذا كان رأس الهرم في القطاع - الدكتور علي - يتبنى فكرة الاقتصاد الحر ويدعو إليه بحماس شديد ، فليس ذلك بعامل الدراسة في أمريكا وتبني الاتجاه السياسي ، كما خيل للبعض ، وإنما للإدراك المبكر للمتغيرات الدولية ، وما كانت توفره الإحصائيات من مردود مهول نتج عن هذه السياسات ولعب لعبته الخطيرة في تغيير ميزان القوى لمصلحة

الآخذين به فهو إذن المتمثل الذكي لظروف العصر وأبعاده . . لقد عبر عن هذا التوجه ما أثير بصدد رفع القيود عن العملة ، لما ينتج عن ذلك من القدرة على المنافسة لأهم العواصم التجارية وما يوفره النشاط البترولي من ثقة في العملة وقوة أمام أي حركة من حركات المضاربة ، وهو التوجه الذي وقف ضده مشروع متشدد - كنا من أنصاره إعلاميا - خشي من ضعف النظام ومن إمكانية اختفاء رأس الهرم وإمكانية خروج العملة في دقائق معدودة حين لا تكون ثمة قيود عليها . إنها نظرة وطنية مخلصة بدون شك تبناها بقوة نائب المحافظ الذي جرى إخراجه من موقعه في ظروف شبه غامضة ولكنها في الآن ذاته ليست معاصرة ، فالاحتياطي النقدي للبلاد لا يعول على أرصدة القطاع الخاص ولكنه يرتبط أولا وأخيرا بالإنفاق العام ، فالدخل الخاص منذ ذلك الوقت وحتى يوم الناس هذا لا يساوي أكثر من ربع الموازنة ، فأي خوف من رفع القيود على العملة هذا الذي جرى تبنيه لو لم توقف تلك النظرة الجزئية التي وقعت مجابهتها بعوامل الإخلاص ولكن مع القصور عن شروط المرحلة ، لقد كان من الممكن أن يتحقق الكثير من التطور والكثير من الإزدهار لو وجدت السياسة القادرة على توفير الاستقرار وإطلاق روح المبادرة والاستفادة من قوة الاحتياطي المالي المتوفر داخل الأرض الطيبة . لقد كانت الأفكار المتفتحة موجودة والنظرية الاقتصادية المدركة هي الأخرى قائمة ، لكن

السياسات العليا ترتبط بقرارات تتجاوز أحيانا السلطة التنفيذية لعل بعضها يحتاج إلى فكرة القانون من الأساس ، وهو أمر يفوق في إقراره سلطات أي خبير مالي ولو كان هذا الخبير يحمل حقيبة وزارة التخطيط أو الاقتصاد أو كليهما . لقد انتصر التوجه الرامي إلى التحفظ وإلى الإبقاء على القيود بارغم من أن النظرة كانت تقوم على الاحصائيات وعلى حسن التقدير للكثير من الاحتياجات ، بما في ذلك ما ينتظر البلاد من زيادة في السكان جراء ما تقتضيه التطورات الاقتصادية في السبعينات ، وليس من غرابة أن تنتصر النظرة ، لكن الغريب أن تقف الصحافة الوطنية والأقلام المستنيرة إلى جانب هذا الخيار السكوني .

21

إن أهم القضايا الثقافية التي أثيرت ، وجرى حولها حوار شبه ساخن هو موضوع مؤتمر الأدباء والكتاب الليبيين الذي دعي لعقده أول مرة ، كجزء من قضايا أخرى تتعلق بالثقافة وتتعلق بالواقع العام الذي هو القاعدة الأساسية لإنتاج الثقافة . إن الهدف من المؤتمر قد لا يكون واضحا للجميع وربما تفاوتت الجدية بصدد الفكرة بين من التقط الفكرة من منطلق إعلامي صرف ، و آخر وجد أن الفكرة قابلة للتطوير ، وأن مجرد التقاء عدد من الكتاب والمثقفين وعلى أي نحو كان من شأنه أن يتيح المجال لأكثر من هدف إيجابي ، ومن هنا وقع الدفع نحو قبول الفكرة واقتراح أفضل السبل لإنجاحها لقد انفرد عبدالله في الحقيقة بموقف خاص ، موقف تمثل في معارضة الفكرة ليس من قبيل التقييم الموضوعي وإنما من منطلق اختلاق الخلاف . كما بدأ يومئذ ، أكثر من أي شيء آخر . كان عبدالله قد رجع من هجرته التي اختار لها تونس ، وشرع في تناول بعض القضايا المطروحة ، وربما في شيء من الوضوح . لكن عيب النظرة التي انطلق منها يكمن في السرعة التي رافقتها ، وتمثل ذلك في اعتقاده أن كل الأبواب ستفتح وبصدد شيء ربما يكون في مخيلته حرص على عدم التصريح به ، في كتاباته تحديدا . لقد

كانت معظم الكتابات التي بادر بها عبدالله تحلق في البعيد ، في حين كان هو يتصور أن كل شيء واضح ، ولدى المكاشفة بالرأي المخالف لطرحه ، وقع الكثيرون في إشكالية ، إذ قد سبق لهم أن روجوا لوجود موقف منسق تحكمه نظرة تراتبية ونشاط سياسي منظم فكان الجهر بالخلاف إنهاء واضحا لذلك اللبس . إن البعض قد عزا الأمر إلى موقف تكتيكي ، لكن الحقيقة لم تكن كذلك . لقد كانت الأحداث تتتالى بسرعة . وقد أفلح الضجيج الإعلامي المقصود في خلق حالة من التشويش المؤثر في الحقيقة ، وتعطيل كل دور يمكن أن يتحقق عبر التطور الطبيعي للأحداث والتي هي بالضرورة نتاج الداخل والخارج . لقد كان واضحا أن الخطاب الإعلامي الساذج الذي روج له البعض . والقائم على فرضية مفادها أن الواقع ينتج في كل مشرق شمس معجزة جديدة ، لدرجة أن توصف زيارة مسؤول من المسؤولين بالانطلاقة العملاقة ، حتى إن بعض المعنيين بالخبر غدوا لا يخفون امتعاضهم من ذلك الأسلوب الإعلامي القاصر ، في حين كان العاملون في مكاتب الاستعلامات الأجنبية ممن كانوا كثيري التردد على أجهزة الإعلام أكثر استخفافا بهذا الأسلوب الموغل في السطحية ، بعض هؤلاء كانوا يبدون رأيهم صراحة وبعضهم الآخر يمرره أمام أقاربه والمتصلين به . وسط هذه الأجواء جرى عقد مؤتمر الأدباء الذي دعت إليه اللجنة العليا لرعاية الفنون والآداب وهي جهة معينة بقرار وزاري وإن تكن

ضمت أفضل العناصر وأكثرها قدرة على العطاء وحققت كذلك عددا من المنجزات ، إلا أن التدخل الإعلامي في المؤتمر كان واضحا للغاية سواء من حيث المواضيع أو من حيث طبيعة التشكيلة الإدارية . لقد قدمت مقترحات كثيرة لتحقيق الاستقلالية للمؤتمر ، ولكن المعنيين بالأمر مباشرة اعتذروا عن قبول أي شكل من أشكال التحرك المستقل .

إن هذا الموقف الذي اتخذ بصدد المشروع الإعلامي للمؤتمر ، لم يكن صادرا عن اعتراض كامل إزاء ما كان يجري ، وإنما كان فقط مجرد محاولة لتسييد خطاب إعلامي يقوم على الاقتصاد في التزكية ، والموضوعية في التأييد ، والحد من ابتذال الكلمة وتجريدها من محتواها .

هو إذن موقف اصلاحي بحت ، ذلك الذي تم الجهر به والتعبير عنه في سلسلة من المقالات ، من الممكن الاستفادة منه والعمل على احتوائه وتوظيفه لصالح المطروح لو وجدت العقلية الواعية التي تسلم بفرضية مفادها أن الكمال لله وحده وأن العمل الناجح هو ذلك الذي يجد من يتحدث عنه ويبدي الملاحظات بشأنه ، وإن الاتفاق بصدد كل شيء إنما هو من الأمور المستحيلة . وأن كل حديث عن السلبيات يعني بالضرورة وجود الكثير من الإيجابيات ، غير أن الذي كان سائدا قد خالف جميع هذه البديهيات والنواميس شبه الراسخة ، فالهدف تضخيم الصورة سواء بالنسبة لحسنات الواقع بمناسبة

وبلا مناسبة أو بالنسبة لمن يرى غير ذلك ، فمجرد أن تبدي ملاحظة بسيطة كان ذلك يعني المروق الكامل .

إن مؤتمر الأدباء الليبيين لم يكن النشاط الوحيد الذي أقيم وأثار من الحوار ما أثار فلقد تلاه مؤتمر أدباء المغرب العربي الذي شاركت فيه فعاليات من الجزائر وتونس والمغرب بواسطة اتحادات الكتاب ، في حين كان الكيان الموجود بالبلاد متمثلا في اللجنة العليا بالرغم من أن جمعية الفكر موجودة وهي تنظيم قام بواسطة الاقتراع . لقد كانت الفكرة تدور على ما يبدو في إطار المحاولات الرامية إلى تفعيل الدور الليبي في الأفق المغاربي ، واستثمار قطاع الأدب والفكر في تبني ذلك التوجه ، باعتبار موضوع المغرب من الأمور التي أمكن تشويه صورتها ، فكانت فكرة اجتماع الأدباءالمغاربة محاولة لتنقية الشوائب العالقة وسوء الفهم المسيطر . وإن يكن الجميع لم ينظروا إليها . فيما يبدو بهذه الكيفية ليس لأن لديهم مواقف مختلفة وإنما لأن أكثرهم ليس له موقف على الإطلاق . لقد كان التعامل مع المطروح لا يتجاوز الاستفادة وكسب أفضل الفرص المتاحة ، في حين كان الذين ينظر إليهم نظرة متحفظة هم الذين يسعون إلى استثمار هذا التجمع في قضايا أكبر ، ذلك أن هؤلاء لديهم اقتناع تام بأن وقوف ليبيا بشكل سلبي تجاه مشروع المغرب الكبير ، وهي الدولة المرتبطة به حدودا وموقفا وتوازنا سكانيا ومناخيا ، يتعذر عليها الانطواء في زمن المشاريع الكبيرة

والتجمعات الموسعة ، وما لم تحصل مبادرة بالإسهام في أي مشروع فقد يصعب عليها مستقبلا أن ترتبط بأي مشروع أو على الأقل ستحرم من امتيازات التأسيس ومردود الريادة ، وقد كان من المفروض أن يدفع بالأمور في هذا الاتجاه وأن يتفطن لمحاولات التشوية التي طالت المشروع المغاربي ، باعتبارها تمت لصالح أطراف أخرى ، كثيرا ما اعتادت تعميق التناقض والتشكيك في كل مشروع وهو تفطن ليس بالضرورة أن ينهج المجاهرة بهذه الحقيقة . ولكن من المهم أن يضعها في دائرة الفهم عند القيام بأي شكل من أشكال العمل، ذلك أن الثقافة حسب هذا ، ترفض الانعزال عن اليومي وترفض عدم التوقف أمام المطروح ، وتعول إلى حد كبير على الظروف الناجمة عن حركة المجتمع وسياساته التربوية والاقتصادية ، باعتبارها إحدى شروط النمو اللازمة لأي عمل جمعي ونشاط ذهني ، ولأن الأمر كذلك رؤى أن يحذر من الضجة الإعلامية ، ومن فكرة طرح المؤتمر على نحو هلامي لا صلة له بأي مشروع مغاربي وحدوي ، انطلاقا من طبيعة الاستعجال والحرص على تحقق الحضور قبل أي شيء آخر .

لقد كان الصراع في الحقيقة حادا للغاية بين حركة وطنية تعبر عنها ثقافة تسعى إلى معالجة مشكلات الواقع ، انطلاقا من المحيط في دوائره الإقليمية والدولية ، وأعداد من الموظفين الذين لا هم لهم سوى تزيين الصورة حتى حين لا يكون لها أصل على

الإطلاق ، حركة وطنية تدرك أن التحرك الإيجابي بصدد الواقع وفي اتجاه التطور يفرض أولا وقبل كل شيء معرفة الأسباب الحقيقية للتخلف ، والأخرى الكفيلة بالخروج منه ، وقوى مترددة تعلق كل شيء على مشجب الآخر ، وربما تؤمل منه القيام بشيء ما ، ومن هنا اختلفت لغة الحوار ، وأسلوب التناول وخيل للبعض أن ما طرح من بدائل ، وما أشير إليه من شروط التحرك ، ربما قصد به الاعتراض على فكرة المؤتمر من الأساس ، وهو أمر لا يتمشى وواقع الحال ، فضلا عن أنه لا يتفق مع المسيرة الطويلة التي قطعت والجهد الفكري الذي بذل ، والمكانة التي تحققت والمستوى الذي أمكن الوصول إليه . إن كل ما كتب كان مرصودا بالكامل وبالذات المتصل بالقضايا الأساسية ، والموقف الحازم من بعض الأسماء التي حاولت أن تبني مجدا بدون وجه حق ، فكان أن تأجل ما بيت من نوايا غير طيبة إلى توفر الوقت المناسب ، من ذلك تأجيل اجتماع لجنة شؤون الموظفين للنظر في الترقيات المستحقة ، بدعوى أن الحد الأدنى ليس شرطا لاتخاذ هذا الإجراء ، وذلك لأن الوقت غير مناسب لاتخاذ الإجراء غير العادي ، ويومئذ كانت الكتابة أكثر جرأة والحضور أكثر فاعلية وعلى الأخص فيما يتعلق بالقطاع ذاته . وصارت الصحيفة هي الصوت الوحيد الذي يقول «لا» لكل المحاولات العابثة . إن الأمر لم يكن متعلقا بالثوابت حتى يمكن الانتقام ، ولهذا استحدثت أساليب أخرى،

تمثلت في حجب الإعلانات وما إلى ذلك ، لكن الصحيفة كانت تدرك أن القرارات الإدارية يمكن نقضها وأن جهات أعلى يمكن أن تتدخل فكان أن استمر الصمود واستمرت المواجهة ، كان الصراع في الحقيقة بين أسلوبين مختلفين ، أحدهما يقوم على المبالغة في الولاء للعهد والحرص على مدحه بمناسبة وبلا مناسبة وتضخيم كل شيء يتصل به ، وأسلوب آخر يحرص على تسمية الأشياء بمسمياتها وفي الحدود التي تفرضها ظروف العصر . ومتغيرات الحياة ، أسلوب يمقت ألقاب السيادة والخطاب الدونيين ، ويصر على تبني حق الشراكة الكاملة في التخطيط للمصير ، وفقا لما تطرحه قواعد اللعبة السياسية في أعلى صورها ، يثق بما لا يدع مجالا للشك أن زمن الوجود العسكري الاستعماري قد ولى وانتهى ولا مجال للرهان عليه ، وأن شيئا من القوة الذاتية لابد أن يبنى ، ووجودا دوليا في المحيط العربي والأفريقي لا معدى منه ، ولا مهرب بالتالي من تخصيص شيء من الدخل يصرف (خارجياً) بطريقة أو أخرى قد تكون مساعدة متمثلة في مشروع يبقى للشعب المعني ، وقد يكون هبة لشيخ أو زعيم مؤثر ، يعبر عن ذلك كله خطاب إعلامي ثقافي ، يفرق بين الخصوصية الفطرية أو الشخصية الليبية كفكرة تهدف إلى تحفيز الهمة الوطنية ولفت انظار الناشئة نحو الرمز الوطني الذي عبر عنه النضال وجسده الخطاب الإبداعي وتحجيم التوجه العشائري والمفهوم القبلي ،

وخطاب آخر يقوم على السذاجة والمثابرة والترويج للانطلاق وإعادة إنتاج أفكار أحمد حسين في مصر ، وغيره من ناسخي الفكر النازي .

إنه خطاب يفلح في التعبير عن نفسه وتوجيه رسائله عبر الإشادة بتجمع الكتلة الوطنية ممثلة في شعر أحمد الفقيه حسن وتحقيقات الرمز الأكبر على الفقيه حسن ، واجتهادات المؤرخ المستهدف الطاهر الزاوي ، وقوى أخرى يعبر عنها عبدالعزيز الزقلعي وعلي العقاب وعبدالرحمن بركان ، خطاب لا يجد غضاضة في الوقوف إلى جانب الرأسمالية الوطنية ، حين يكون في ذلك مواجهة لمخططات أخرى تلهث خلف الشركات الأجنبية وتفوح منها رائحة الاستغلال على مرأى ومسمع من الناس ، لم يكن خافياً ما بدأ يحاك من خطوات تستهدف الانتقام بدءاً من تسخير الموظفين الإداريين البسطاء لتوجيه رسائل لفت النظر بصدد حضور مؤتمر من المؤتمرات في الداخل أو الخارج على السواء ، والتبليغ نتيجة التقرير السري بما لا يتجاوز المتوسط بهدف حجب الترقية ، إذ إن كل شيء يمكن أن يعالج سواء بواسطة الطعن الإداري أو اللجوء إلى القضاء ، أو بواسطة الضغط عن طريق أطراف أخرى ، إن التوازن يمكن الحصول عليه بعيدا عن سياسة «لي الذراع» كما يقول الأهل . كان واضحا أن الموقف الصارم الذي اتخذ بصدد المساهمة الليبية في مؤتمر أدباء المغرب العربي ، والتي لم تتجاوز بعض

الرموز التي تم استقطابها وتوظيفها بالكامل ولم يكن لها من عطاء سوى الشعور المضخم بالذات ، كما يقول مصطفى الفارسي ومحمد برادة وعبدالجبار السحيمي من الذين حضروا ذلك المؤتمر ، كان واضحا أن الثمن لابد أن يدفع ، غير أنه لم يكن مخيفا ، فحجب درجة لفترة من الوقت لن يكون جالبا شرًا لا يمكن التعويض عنه واستلام عديد الرسائل الإدارية تبقى في النهاية وثيقة من الوثائق التي تشهد على ما انتاب المرحلة من بعض ممارسات سيئة .

22

في إطار المواجهة والدفاع المشروع عن الذات تقرر أن يضاعف الحضور في الداخل والخارج ، وفي تجسيد عملي تم الإسراع بالتوجه إلى المغرب الكبير ، ابتداء من تونس ووصولا إلى المغرب . كانت الدعوة موجهة من وزير السياحة المكلف بالاعلام «أحمد العلوي» وكانت في إطار الاهتمام بالعناصر الفاعلة ، كما عبر مؤتمر أدباء المغرب العربي وما تأكد فيه من حضور صحفي وتغطية مسؤولة ، وفي اتجاه الحرص على مبادلة الاهتمام أظهرت صحيفة «العلم» اهتماما غير عادي من حيث المتابعة الصحفية والحوار والحرص على تجسيد كل مظاهر التكريم ، كان رئيس تحرير هذه الصحيفة الأديب الكبير عبدالكريم غلاب ،في حين يتولى الإشراف الثقافي ومسؤولية التسيير القاص المعروف عبدالجبار السحيمي ، الذي خصص صفحة كاملة لإجراء حوار مفصل حول واقع الحركة الثقافية والموقف من مؤتمر أدباء المغرب العربي وفكرة المغرب العربي الكبير بالأساس . وقد كانت الإجابات مستفيضة وكاشفة لكل غمض ، فما يهم أدباء المغرب أن ينحصر النقد في التنفيذ وليس التوجه سواء فيما يخص المؤتمر أو العمل المغاربي الكامل . إن اهتمام صحيفة العلم بقضايا الإبداع واضح للغاية . فقد

نشـرت مـا كتب يوسف عن رواية (سـبعـة أبواب) ومـا كـتبـه عبدالله عن رواية (دفنا الماضي) في حين خصصت دراسة جيدة عن المجموعة الكاملة لخليفة التليسي عن القصصي الايطالي «لويجي بيـراند يللو» كـتب الدراسـة عـبدالكريم غـلاب تحت عنوان (شـبح الموت في قـصص بيـراند يللو) كـان التليـسي قد شغل يومئذ منصب السفير الليبي . وقد أفلح في الظفر باحترام جميع العاملين في الحقل الثقافي ، فتحول مقر السفارة إلى ملتقى لجميع الفاعليات الثقافية . لقد أصر يومئذ ، بالرغم من أن الدعـوة من غيـره ، على أن يكون هو المضـيف والمرافق طيلة أيام الرحلة ، لقد فرغ من ترجمة كتاب ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911 ويعكف في ذات الوقت على إعداد معجم معارك الجهاد وقد بلغ فيه شوطا متقدما ، وقد تضمن برنامج الزيارة مـشاهدة المدن المغربيـة مـثل الرباط ، الدار البـيضـاء ، فـاس ، مكناس ، وجـميعها محاطة بالأقواس التاريخيـة ، عند مشاهدة هذه الأقواس حاصرت الذاكرة ثورة كامل المقهور العارمة ، حين جعلت بلدية طرابلس من بين تطوير مدينة طرابلس هدم السور القـديم ، وربما لإزالة الفـارق بين من يسكنون داخل السـور وخارجه ، وهو تصور موغل في السذاجة وكان المقهور يرى فيه اعتداء على التاريخ وعلى أحداث كثيرة مرت بالمدينة ، وقد رأت البلدية يومئـذ أن تترك قطعـة صـغيـرة من ذلك السـور للذكـرى التـاريخيـة . إن الهدف الذي عـمدت إليه البلدية لا

مجال للتشكيك فيه ، والمتمثل في مراعاة مشاعر الناس ، إلا أن هذه المشاعر يمكن أن تهذب أو تتطور مع ارتفاع نسبة الوعي ، أما الخضوع لتأثيرها في اتجاه الأضرار بالتاريخ والأثر فشيء مؤسف ومن المفروض ألا يقع من جهة مسؤولة . إن فاس ومكناس مدينتان أثريتان لهما طابع عجيب للغاية ، وميزة المغرب تمثلت في الإبقاء على ذلك الطابع الأثري يقف عليه المشاهد ، ممثلا في عرض السلع بذلك الشكل البدائي وتقديمها للمستهلك وفقا للنظام القديم . إن من يقف هناك تعود ذاكرته إلى ما قبل العصور الوسطى بدون أي ريب .. ترى ماذا استطاعت أن تصنع مصلحة السياحة يا ترى ؟ ذلك هو السؤال الذي يحاصر المشاهد ، إن هذه السياحة التي بدأ التخطيط لها في الظاهر ووضعت لها بعض القواعد لم تتح سوى فرص الكسب المبالغ فيه لأولئك الذين بادروا بتشييد عدد من (الفنادق) وفقا للخطة الجديدة ، فأفلحوا في استيراد أكبر الكميات من الأثاث ومختلف السلع المعفاة من الرسوم الجمركية وفقا لنظام تشجيع السياحة ، في حين كانت السلع تباع لأطراف كثيرة بثمن يقل كثيرا عن ذلك المستورد بالشروط العادية . والسر طبعا أن كل إجراء يقرر فإن الغنم العائد لابد أن يكون لصالح أولئك الأذكياء ، هكذا كان يقول بشواهد ملموسة ، صفر الذي لم تفارقه الصفة الشعبية أبداً .

ما تزال أرقام السياح الذين يرتادون المغرب متواضعة ، وهي

لا تزيد كثيرا عما يغشى المدن الليبية ، غير أن الفرق يظهر في المواد التي يتم استهلاكها ابتداء من الأثاث إلى المأكولات فضلا عن الملابس . يظهر ذلك في الفنادق التي أنشئت بخبرة غربية ، مثل (الهيلتون) وحسان وغيرها ، حيث كل المواد وطنية ، ومن المصنوعات التقليدية خصيصا ، من منافض السجائر إلى ملابس العملة ، فالهدف من البداية خلق فرص عمل ومصادر لتصريف الانتاج المحلي ، بيد أن اللافت للنظر أكثر هو ذلك التمايز الواضح بين المدن الأثرية ، إذ يوجد طابع خاص لكل مدينة فلا مكان للتشابه الممل ، فبقدر ما تقدم فاس ومكناس صورة الماضي البعيد ، توفر طنجة التي وقع الانفراد بها - عالما آخر يجعل منها قطعة من أوروبا بكل تهالكها على الحياة وتخلصها من جميع الممنوعات ، وإن يكن الطابع الأمريكي هو السائد ! أهم ما لخصه خليفة يومئذ هو أسلوب الملفات الذي يأخذ به النظام السياسي المغربي ، حيث يحرص المسؤولون هناك ومن أعلى قمة الهرم على الاستعداد لمن يحل ضيفا عليهم بواسطة ذلك الملف الذي يوفر لهم إمكانية التحدث والحوار ومحاولة الوقوف على المشترك من جميع نواحيه ، التاريخ والمعالم والمشاريع وأفق التعاون ، ما يمكن أن يحتاج إلى بعض التوضيح ، وهو أسلوب من شأنه تسهيل المهمة كي لا يتسرب الملل ويضيع المستهدف من أي لقاء ، لكنه صعب التحقيق لواقع يقل فيه الصبر ، ويغلب عليه الاستعجال ، وينعدم فيه

الاستقرار . لم يكن الرجل مقبلا على بريق المكان استشعارا لمسؤولية الأسرة المتكونة من عدد من البنات يحرص كثيرا على ربطهن بالواقع ، ونزار الذي لم يتجاوز سنته الثانية ، بيد أن الحسرة كانت في اضطرار الوالدين إلى البقاء ورفضهما الانتقال إلى المغرب بشكل دائم ، وهو شديد البر بالوالدين ، عندما تحدث عن أسلوب والده في المعاملة معه وإصراره على وضعه موضع الأخ ، لم يكن يعرف أن صورة الرايس محمد معروفة لدى الجميع من خلال العلاقات مع أسرة عمال باب البحر ، فهو لا يعرف تلك النافذة التي أطللنا منها على ذلك الواقع الذي كان عديد الرفاق يتحدثون عنه ، أثناء اشتداد المعركة بين بقايا «فاو» في نقابة عمال الميناء والعناصر الوطنية المناوئة له .

- من لديه أطفال يتعامل مع مستقبلهم بمسؤولية لا يمكن أن يقبل باستمرار الغربة لأكثر من سنتين ، إن البريق الذي يخطف ألباب البعض لا قيمة له أمام نشأة الأطفال .

تلك كانت كلماته وهو يناقش عديد المارين من هناك وقد راق لهم المقام ورأوا فيه دليلا على رد الاعتبار للرجل وقد خرج من مسؤولية الإعلام والثقافة ، وهو الاسم الأول في الحركة الثقافية .

- تأخذ الكلمات طريقها نحو العقل الذي يحرص على اختزان التجربة والإطلال على عوالم الرجل حين لم تسمح السنوات الماضية بما فيه الكفاية فقد كانت البداية قبل خمس

سنوات كاملة حين اضطلع برئاسة اللجنة العليا للإذاعة ولكنها لم تدم طويلا إذ سرعان ما استلته مسؤولية الإعلام والثقافة ويومئذ لم يترك الكثيرون سبيلا لمعرفة أشياء كثيرة أما الآن فمن الممكن الإفاضة فالحوار .

عندما أشار إلى القبة البيضاء قائلا هذا ضريح الولي ابن عيسى ارتفع الصوت :

أنا بن عيسى الغربي
ساكن مكناس من أقصا
نا شيخ ولاني مغبي
في كل بلد لي حصة
في كل عشية حضرة
يجتمعوا فيها أولادي

مع الكلمات انطلقت الكلمة :

تستوري يا ولي مكناس

نظر باستغراب مع مشروع ابتسامة . إذ لم يكن يتصور هذه الجزئية ، أصبح ضروريا أن يسمع شيئا عن هذه الكلمة التجربة، مكانة الوالد في هذه العوالم .

توالت الكلمات تترى عن الطرق وارتباطها ببعضها البعض وتأثير شيوخ الصوفية في بعضهم البعض . علق بكلمة ، ظلت تتكرر وتتعمق فيما بعد .

- أخطأت الطريق ، فقد كان يمكن أن تكون شيخا .

إن السعادة ظاهرة باللقاء ، والحرص على تعويض ما فات أكثر ظهورا ، بكل الإلحاح الصادق كان الإعراب عن الرغبة في تمديد الإقامة وتوفير أي نقص عساه يكون لكن الصحيفة تحتاج إلى المواد ، فلا قيمة لما كتب إذا ما تأخر نشره ، من جهتها المواد كانت دسمة ، ووفرت طموحا قديما في الظهور بمادة متميزة ، لم ينل منها التضييق الإداري ، فهو لا يعدو أن يكون ضربا من ضروب الضغط والتعبير الغبي عن الغيرة ، وضيق الأفق ، فلا مفر من مقابلته بالاستهجان والسخرية ومواصلة الكتابة في اتجاه توسيع دائرة الاتصال . إن المجتمع من جهته زاخرٌ بالعناصر القادرة والتي تابعت ما يجري بتعاطف واضح وإكبار وقع الإعراب عنه بعديد الصيغ . إن هذا التعاطف لم يصدر من العناصر المثقفة وحسب ولكنه شمل فئات أوسع وأكثر فاعلية ، ومن بينها العاملة في القطاع الخاص التي أكبرت مبدأ الصمود وعدم الانهيار أمام المغريات والضغوط وبقدر ما كان التليسي فرحا بعدم إقدامه على تعديل قانون المطبوعات أو الاستجابة للرغبة القائلة بتعديله ، بقدر ما كانت الدوائر الجديدة كثيرة الحديث عن التعديل المقترح ، ومن بين ما استحدث اعتبار نقد السلطة التنفيذية بمثابة التجريح في الذات الملكية ، والحجة أن الملك يحكم بواسطة الوزراء ، أي أنه ليس كما يقال يملك ولا يحكم ، كل شيء في الحقيقة يكرس للحد من النقد واعتبار كل معارضة تصب في إطار المبادىء الهدامة ،

ومع أن تقدير ذلك متروك للداخلية ومن العادة أنها أكثر عدوانية فقد كان سلوكها أكثر اعتدالا وتعقلا ، ربما لوجود عناصر جيدة من أمثال السيد عبدالخالق محافظ طرابلس الذي كانت آراؤه في منتهى الاتزان والتعقل ، تمثل ذلك في الحوار الذي أثير معه فكان رده مفحما لدعاة التشكيك في الأجيال الجديدة ، يضاهيه في ذلك الأستاذ القدير علي جمعة عميد البلدية ودعمه الواعي لتطوير المناهج وتعليم اللغات ومشروع المعارف الجديدة . ينقل ذلك كله إلى جملة من المواقع داخل المدينة ، أشهرها ميدان الجزائر ، حيث يطل أكثر من مقهى ، أهمها المقابل لمبنى البريد المركزي ، عمارة البلدية ، إنه الواقع على ذلك الرواق الكبير ، الذي تتوسطه تلك النافورة الكبيرة، لقد اكتسب المكان في الحقيقة مكانته من التاريخ الطويل ، فهو من مشاريع التأمين القديمة ، كان رواده قديما من غير الليبيين اللهم إلا القلة القليلة من كبار موظفي الحكومة والعاملين في سلك القضاء تحديدا في مطالع الخمسينيات ، عند استلام نشاط التأمين من قبل العناصر الليبية في أواخر الخمسينيات جعل المبنى في متناول عناصر عديدة وما لبث بعد ذلك أن تحول إلى مقر للعناصر الوطنية ، حتى لقد غدا جميع الزبائن يعرف بعضهم بعضا بمن في ذلك العاملون في الأجهزة الرقابية ، لدرجة أن جميعهم لا يخفون هذه المهمة ، وقد يصعب عليهم البقاء طويلا ، فيوشك أن يكون المكان شبه

خاص ، بالرغم من كثرة الكراسي وتعدد المناظر ، وكل ميسر لما خلق له ، لكن (رجب) الذي يعاني شللا مزمنا يضطره إلى اعتماد عكازين للمشي ، وقرعا قديما يستحيل معه أن يكون حسر الرأس ، يبدو شخصية متميزة ، وهو دائما شديد الحماس لما تطرحه المجموعة من آراء في عديد المسؤولين ، وأكثر تبنياً لأحكامهم ، مع أنها تأتي أحيانا نتيجة المزاج الخاص ، أنه يستعين بذكرياته القديمة مع الأسطى عمر و عبدالكريم جبريل وغيرهما من وجوه درنة وفئاتها المستنيرة عندما يختلط الخاص بالعام وبدايات الحياة مع ربيع العمر ، يوصف الرجل بأنه من المتعاونين مع بعض الجهات ، وهو لا ينكر ذلك ولكنه يشير دائما ، وتشير مصادر أخرى أن المهمة تنحصر في معرفة توجهات الرأي العام بصدد المسؤولين وقدراتهم على استمالته والاقتراب منه ولكنه لا يستنكف من الرفض المعلن والاشمئزاز الذي قد يجافي الذوق ، إذ أن علاقته بالمجموعة اكتسبت خصوصية متميزة ، إن موقف الرجل من العناصر المرفوضة شعبيا لاغبار عليه ، فيما يظل انحيازه لمن يعتقد فيهم الأهلية حتى وإن أبعدوا لا يتغير ، لقد كان شديد الفخر بجلوسه مع عبدالله وعبدو وكامل وبالمكان في عمومه ويرفض عشرات الدعوات التي ترد إليه لأماكن أخرى لقد أصبح بموقفه هذا يتخلى عن مصالح كثيرة لو لم يصر على البقاء في هذه الدائرة في فترة كثرت فيها المصالح وشاع فيها الإنفاق .

- والواقع أن المكان لم يكن محصورا في الليبيين بل لقد أصبح معروفا لدى غيرهم أيضا مثل عبدالحكم الذي انغرس في المجموعة بشكل عجيب ، وعمل بطريقة أعجب ، كان يومئذ قد وصل على هيأة مدرس ولكنه ما لبث أن اقتحم مجال التأمين ، اتكأ من البداية على اسم أخيه وعلى عناصر أخرى كثيرة كان على صلة بها بطريقته الخاصة ، ولكنه قدم نفسه بطريقة تختلف كان يحاول الترجمة والكتابة أيضا ، بيد أن اللافت للنظر كثرة الأسئلة التي يحرص على إلقائها وعلى الأخص المتصلة بالأسماء المعرَوفة ، اختلف الموقف منه بين قابل بتطور العلاقة ومتحفظ ، كان الضيق من أسلوبه «الحشري» أكبر من الميل لبعض نكاته وما كان يسوق بين الفينة والفينة عن الواقع الذي عاش فيه والذي يشتاق إليه البعض ، نفسه كان يستشعر الإحساس نحوه ، فكان يسأل عن سر الاستعجال الذي يطبع الموقف حين يكون موجودا هناك ، مرة وقف يوسف الذي التحق بالجيش منذ سنوات وصار لا يأتي إلا لماماً ، وكأنه يحمل هموم الدنيا كلها ، عندما بدأت إجراءات سفره إلى بريطانيا في دورة دراسية ، ويحبذ عدم السفر ، كان في منتهى الوجوم ، حتى لقد تبادر إلى الذهن أن نازلة قد حلت بالحاج عبدالقادر الذي يدعوه بالأب الصغير (وهو والده الحقيقي) أو الحاج علي الذي يدعوه بالأب الكبير (وهو العم) وإذا به يقول :

- طلبوا مني السفر ، يا ابن العم ، ولم تبقى سوى ثلاثة

أيام؟ وأنا لا أريد أن أسافر ، ومتخوف !

كان في حالة من الحزن لا توصف ، وفي ضيق أكبر من الدنيا ، لم يكن الأمر يتصل بصعوبة الدورة ، ولا الإجراءات ولا الأهل ولكنه سبب شخصي هكذا قال . الطبيعي أن تعرض فكرة الاتصال بأحمد لتأجيل البعثة ، فقد أصبح مكانه متقدما مع نصر الدين ، الذي يسبقه في العمل والمصاهرة ، وفي حب عبدالناصر . ولكنه رفض الفكرة ، قائلا : إذا تمكنت بنفسي كان بها وإلا (الدنيا واليها الله) كادت نظرات محمود تخترق صدر الرجل ، رغم بعد المسافة نسبيا ، وحديث يوسف الهامس ، عندما اقترب وسأل كاد الرد أن يصل إلى مستوى الصفعة امتقع الوجه وصعدت الدماء إلى الصلعة القصية !

- قبل عقدين من الزمن عرفت البلدة هذا الاسم ، مع ابن عمه ، هما صغيران يتكلمان بغير اللغة العربية ، قيل إنهما ابنا الحاج علي والحاج عبدالقادر اللذين هاجرا مع من هاجر إلى الجنوب ، وصلا نيجيريا ، أو السودان كما كانت تدعى كل بلاد أفريقيا ، ولم تبقى من الأسرة سوى الحاجة أم السعد وبناتها ، حتى كانت العودة بالأطفال الذين لا يتكلمون العربية فجيء بهم لتعليم اللغة ، يومها عرف يوسف الصغير كأبرز طفل يلعب كرة القدم وقد كان مرفوقاً بها ، كعلامة من علامات يسر المعيشة عند كساد ما بعد الحرب ، وليقطع مشواره الدراسي إلى حين المرحلة الثانوية ودخول الجيش ،

عندما جاء بيت المجموعة ذات يوم يطلب صورته التي تركها ليمكن الالتحاق بالجيش ، وها هو الآن يعيش هذه اللحظات الضيقة .

- ترى لماذا يفكر الآن ، هل هي الغربة وهو الذي ولد مع الغربة ؟ لماذا يقول (اللي بيصير يصير) ؟ .

استدعت الذاكرة قول أحمد منذ فترة ما تحدث به حول موضوع التسليح ، عندما وصف الإجراء بأنه ضد الجيش ، وضد الضباط الوطنيين كان الحديث أن السلاح قصد به عدم السماح للضباط بالتحرك ضد النظام .

نسب إلى السياسي التقليدي العجوز (خالد بك) أنه يتبنى فكرة اعتماد سلاح طيران فاعل يفيد أمام مشكلة اتساع الرقعة الأرضية والندرة السكانية ، إذ إن تغيير النظام لا يتم في الغالب الا بواسطة سلاح المشاة قال يومئذ ، «نبي نشوفك» ولم تتم رؤيته لوجود فكرة خاطفة خامرت العقل بأن للأمر علاقة بالتفكير في شيء ما ، كانت القناعة قد تحددت منذ زمن برفض أي مغامرة عسكرية ، وبأن العسكريين لا ينظرون للمدنيين بذات النظرة التي ينظرون بها لبعضهم ، فهم بالنسبة لهم درجة أقل ، ذلك ما قرىء منذ سنين وما يلاحظ على التجارب العربية ، حتى إن وجه مصر الثقافي يمثله دائما يوسف السباعي وحسن التهامي وسعدالدين وهبه ولا يوجد استثناء سوى خالد محيي الدين ، ويومئذ كان الرأي الأخير :

- أحسن حاجة الواحد ما يتصلش ، اذا حدث واتصل أحمد ، كل باب وبابو وكل حساب وحسابو .

- كان تلاقينا ممكن نقول لك كلام ، ذلك ما قاله يوسف وأخذ القلب معه في تلك الليلة ، فهو كتلة من الصفاء والمحبة .

23

إن الحال في واقع الأمر آخذة في التداخل بشكل لافت للنظر . صار من المتعذر أن يخمن أي خطوة يمكن أن تتخذ ، في إطار المساعي التي بذلت للحد من تحرش الصحيفة ، صرفت المستحقات ، وبمقتضى موقف مشرف من صاحبها وتعاطف أظهره احمد كعوان ومساعده سليمان تم تحديد موعد لمقابلة ونيس(بك) بصدد الترقية الموقوفة كان لهذا الموقف أثره لدى الأطراف الأخرى مجرد استقبال رئيس الوزراء ليس بالأمر البسيط ، وكان التدقيق عن مكان الاستقبال والمدى الزمني بواسطة الذين يترددون هنا وهناك ، ولأن الوعي بهذه المسألة متوفر إلى حد كبير ، وقد أعطى الموقف زخما مهما ووفر رصيدا أكبر من رفع المعنويات ، حتى إن العرض الذي جاء به زيدان متمثلا في بعثة إلى بريطانيا مع الإفراج عن الترقية لم يقابل بأي اكتراث ، حتى لا تأخذ المسألة طابع الإبعاد .

لكن تطور الأوضاع مستمر ، والتأزم لا يعرف التوقف ، لقد وضعت الإذاعة تحت الحراسة وكلف الملازم محمد صالح برئاسة الدورية واشترط مبدأ الأذونات المكتوبة . وسلمت مجموعة من الأسماء التي يحظر عليها الدخول . كان خجولا من تكليفه بهذه المسؤولية التي أرجعها إلى النقيب أنور رئيس المركز حين تم

الإبلاغ بذلك ، كان كل من ابراهيم الغويل وعلي وريث داخلين للإذاعة ربما لأن عليا قد استأنف حديثه الاجتماعي القديم .

أبديا استغرابا مشوبا بالامتعاض من ذلك الإجراء ، وتم الاتفاق على لقاء بمكتب ابراهيم ، تردد في ذات اليوم أن منشورا قد صدر وموقع باسم تنظيم عسكري يحرض على قلب نظام الحكم . انطلقت الإشاعات في دهاليز الإعلام تحمل المجموعة هذه المسؤولية ، كان الموقف داخل القطاع متأرجحا بين مستبعد للفكرة وآخر منساق مع الهوى الذي كان يصر على إلصاق التهمة . انكبت أطراف كثيرة على قراءة المحتوى وتحليل الأسلوب ومكان الطباعة . أكثر الذين تصدوا لإلصاق التهمة عبداللطيف . حين أخذ يحلل الأسلوب ويفند المزاعم ، أما الحديث عن الطباعة بالوكالة ، فمن السهل التغلب عليها لأن الآلات موجودة ، لكن المشكلة تكمن في الرغبة الرسمية لإلصاق التهمة وليس الوقائع التي قد لا تكفي لاثباتها !.

لقد خلع عبداللطيف جبة الصحفي الناشيء ، وصار يشير إلى شخصية واعدة إذ آلت إليه مسؤولية تحرير صحيفة الرائد ، واستحدث صفحة شهرية مع الناس وزاوية أسرار التي اضطلعت بتحقيق أغراض كثيرة أهمها الجانب الوطني وقد اعتمد في نشاطه الصحفي على مجموعة من العلاقات الواسعة وحضوره المكثف في الوسط الإعلامي حيث يسعى الجميع إلى ترويج

لخبر وكشف الخبايا ، وكان قد حضر اجتماعات شارع البلدية عقب نكسة يونيو وما ترتب عليها من نشاط سياسي أطلق عليه اسم التجمع الشعبي ، وله اعتزازه ببعض الرموز . كان عبوره نحو الجميع عن طريق بشير الذي كان معجبا بالتزامه الخلقي والديني أيضا وميزته في هذا الصدد بعده عن المظاهر فبقدر ما كان متدينا كان شديد الحرص على عدم إعلان هذه المسألة . فلا يطلب مطلقا من مرافقه الوقوف أمام المسجد للصلاة في حالة ما إذا كان مرافقه ليس من الذين يؤدون الصلاة في أوقاتها . وربما في غير أوقاتها . ولم يضع في مكتبه سجادة كما يفعل الكثيرون ، كما لم يظهر استهجانا لأي تصرف من التصرفات ، حتى إن المرء يحار من هذه المرونة ، البعض يرجع المسألة إلى البدايات الأولى فهو تلميذ من تلاميذ العنقودي والعنقودي شخصية متفتحة إلى أبعد الحدود ، لقد اشتغل بالتدريس ولكن مشروعه الفكري ينطلق في الأساس من الدين ولكن في إطار التنوع والاهتمام الواسع بالفن الجميل ، وقد كان من القلة التي تتصل كلما أطلعت على مقال بالصحيفة يتناول قضية من القضايا الجادة مبديا تقديره وإعجابه من التناول ، كان ذلك نوعا من الجدية التي لا يشاطره فيها سوى الحامدي الذي ترك التعليم إلى مصلحة الأملاك مرورا بالضرائب ، وكان لا يخفي تقديره لمعظم ما ينشر حتى إنه قام بزيارة خاصة للصحيفة معربا عن اعتزازه وتقديره لما يكتب .

-لقد هيمن الركود على الواقع العربي ، يومئذ ، فما تزال آثار الهزيمة قوية للغاية ، والزيارات التي يقوم بها بعض المسؤولين العرب للدول المتضررة مباشرة بالعدوان كانت لا تتجاوز المجاملة البسيطة أو ما أطلق عليه نوعا من تطبيب الخواطر ، وتحمل الأخبار بين الحين والآخر ، توجه بعض الموفدين الليبيين نحو تلك الدول وأكثرها حظا مصر . وقد فسر سفر هؤلاء الموفدين بإرسال شيء من الدعم المالي ، وهو على أي حال ليس موضع اهتمام سوى الأقلية من الناس . ومن الممكن اعتبار الانسحاب المصري من اليمن شيئا مريحا . لما دلل عليه من معنى التخلي النهائي عن مبدأ التدخل . وإن يكن تحت شعار حماية الثورة . لكن السؤال الذي آثار انتباه البعض : أين سيذهب هؤلاء المنسحبون ، وكيف يمكن استيعابهم من دون أن ينتظر منهم موقف من المواقف المخيفة ، فالذين اعتادوا حمل السلاح وحماية الأنظمة يصعب عليهم القبول بالبقاء في مناطق الظل ، لما يكبر في عقولهم من طموح سياسي يدفع إليه بالضرورة العمل العسكري وما يرتبط به من التعرض للمخاطر ، ويفجره من رفض العديد من القرارات السياسية ، بعض الذين يرصدون الأحداث كانوا قد رصدوا استبعاد عبدالقوي مكاوي من استلام أي شيء في اليمن الجنوبي .. ثمة من أرجع الأمر إلى حقيقة مفادها أن من يخرج من بلده في لحظات النضال يتعذر عليه الفوز بأي مردود ، وثمة من يذهب

إلى أكثر من ذلك فيرجع الأمر إلى طبيعة الصراع بين الإنجليز والأمريكان وإصرار الإنجليز على ترك من يقلق المنطقة بعدهم ويفلح في إثارة مشاكل جديدة لمن يخلف . ولو كان الحليف الأمريكي . لقد قررت بريطانيا هذه المرة أن تترك خلفها مكيدة ، بدأت بقحطان الشعبي ، لتنتهي بعد ذلك بثوار ظفار .

– إن الحدث الذي ما لبث أن لفت النظر بحق ، وجعل الذين لا يمرون أمام ما يجري في المنطقة بكثير من التدبر ، هو الانقلاب الذي وقع للمرة الثانية بالسودان بقيادة النميري مكررا تجربة عبود العي جاءت في أواخر الخمسينيات وسقطت بواسطة العصيان المدني وخروج جماهير الشعب ووقوفها صفوفا متراصة أمام الدبابات حتى اضطر العسكريون للانسحاب ، وها هي تعود مرة أخرى وبعد خمس سنوات ، حتى كانت هذه التجربة التي بدت مؤيدة من العناصر الاشتراكية والتي عرف عنها عبر التاريخ التحفظ المبدئي أمام الخيار العسكري .

لقد اختلفت الآراء في هذا الصدد . هناك من تصور أن الأمر يتصل بمصر التي فقدت سيناء وربما يكون التوجه الدولي جاريا نحو عدم إعادتها لمصر مرة أخرى ومن ثم وقع التفكير في بديل من هذا النوع وعلى الأخص ما يتصل الأمر بمنابع النيل . وهناك من أرجع الأمر إلى الانسحاب من اليمن وصار من الضروري خلق منطقة حيوية لمصر وهي المرشحة للقبول بما يخطط

للمنطقة ، في حين رأى آخرون أن الموضوع لا يخرج عن الشأن الداخلي وأن هذه الطبقة لم يعد يرضيها أن يقتصر دورها على حراسة من يحكم وإنما تريد أن تحكم هي ذاتها ، وأن الأمر في منتهى العادية ولا تناقض فيه مع طبائع الأشياء ، وقوانين الكون.

24

حمل عبدالله حقائبه مرة أخرى ورحل . يمم وجهه هذه المرة باريس ، بدعوى أنه سيدرس الفرنسية ، وذلك عندما حصل على منحة من المعهد الفرنسي مرفوقا بلطفي والطاهر ولو أن الأمر لم يكن مقنعا . فقد قارب يومئذ الأربعين ، فأية دراسة هذه؟ صحيح أن هناك من درس وهو في سن الشيخوخة . إلا أن عبدالله كان متخوفا في حقيقة الأمر كان يرى أن بعض المظاهر تشير إلى أن تحدي المشاعر العامة قد وصل حده ، لكنه من حيث الانتاج والعطاء ، كان في منتهى الغزارة .

لقد أكمل سيرته التي أطلق عليها أشياء بسيطة . ونشرها في الحرية التي فتحت له الأبواب على مصاريعها فكتب القصة والمقالة والسيرة . وكانت أقوى حملة قادها تلك المتصلة بالكتب المدرسية ، لما رأى في ذلك من عدوان على الفكر . لم يكن يملك مطبعة ولم يسع إلى الحصول على أي جزء من هذه الكتب ، ولكنه كان متضايقا من ذلك الإجراء المتمثل في قصر الطباعة على جهة بعينها ، ضيقا يفوق جميع أصحاب المصلحة كانت حجته أن السلطة حين تحب أن تساعد أحدا على الغنى فمن حقها أن تعهد إليه بأي سلعة من السلع . أما الكتب فلها رجالها ولها الذين يعرفونها ، ومن ثم فإن المجال فيها ينبغي أن

يكون لأصحاب الاختصاص . لم يكن يكتفي بالكتابة بل لقد كان يتكلم في كل مكان عن موضوع الكتب لدرجة أنه يكاد يكون في حالة من الهيستيريا . لكنه استشعر شيئا من الإحباط بشكل أعنف من ذي قبل . وربما اعتقد أنه سيعود إلى العمل ولأن ذلك لم يحصل فقد قرر على ما يبدو الرحيل ، على أن رحيله كان محزنا أكثر من ذي قبل وقد ترك أثره على الجميع بالنسبة للذين اعتادوا الارتباط في المقهى ، بمن في ذلك الوجوه الجديدة التي بدأت يومئذ تلاحظ بشكل لافت للنظر . لم يكن الحزن مقتصراً على أصدقائه في الصحافة ولا في مجال الفن ، لكنه كان أكثر وقعا لدى أولئك الذين ارتبط بهم بطريقته الخاصة ، بقدرته الفائقة في خلق الأحاديث التي تقيم عالما مشتركا ومتسقا ليست الشهرة وحدها التي خلقت ذلك المناخ ولكنها الشخصية القادرة ، حين تريد ، على اكتشاف الناس وأسر ألبابهم عند اللزوم .

كان السؤال لماذا لم تتفجر هذه الطاقة وتصنع هذا العالم ، حين كان عبدالله في البيضاء ويلتقي بناس كثر فيخيل إليهم أنه عنصر متعالٍ ، وما هو كذلك .

كان الإحساس بالخسارة مربكاً ، مرة لأن عبدالله رحل ، وأخرى لأنه لم يوظف هذه الطاقة حين كان قريبا من عناصر كثيرة من الممكن أن تكون أكثر قربا وأكثر ايجابية ، بالنسبة لأمور كثيرة بعضها خاص وبعضها عام . لو سلك الرجل

مسلكه هذا . لو استعمل هذا الأسلوب الحميمي ، هذا الرفض الحازم لكل شكل من أشكال الكلفة . إن إثارة مشاعر الحزن والتذكير بالخسارة الفادحة لرحيل الرجل هي تلك التي نهض بها خلف . ربما كان من الطبيعي أن يسلكوا الطريق الآخر ، فإذا هم يختارون هذا الموقف ، وهكذا استطاع عبدالمجيد ورجب والأسطى محمد وحسن وابراهيم وعبدو وحرب وصولو أن يصدروا حالة من الكآبة لقاء سفر عبدالله رغم أن الشكل العام كان بدعوى الدراسة لقد كان الرحيل أكثر صمتا وأقل إثارة لكن من ناحية أخرى أعمق وأعمق . ربما لأنه لم يختر هذه المرة ومنذ عودته مكانا خاصا به وربما لأنه كان أقل كلاما وربما لأنه قد ربط الأمر بأحداث تمثلت في بعض الزيجات التي جرت وأقيمت في القصر على نحو شكل نوعا من التحدي للمشاعر العامة ورأى فيه يومئذ علامة من علامات إفلاس النظام . وقع إلى جانبه شيء من التهافت على المناصب العامة للعديد من أصحاب المهن ذات النشاط الخاص من الذين يفترض أن تكون مواقفهم أصلب فإذا بهم يقبلون على المناصب حتى لقد صدقت عليهم كلمة ذلك الذي بقي في درجة رئيس عرفاء سنوات طويلة ، استشعر فيها الغبن والظلم ، فقال كلمة مزج فيها بين السخرية والاحتجاج - نبي مرسوم حتى بالإعدام ؟ !!

شكل الانتقال إلى البيت الذي تم استئجاره حديثا من شعبان منعطفا جديدا أكثر حيوية ووفر الحلول به شعورا عارما بالألفة ،

بالرغم من أن العادة قد جرت باستشعار الوحشة عقب كل انتقال ، وفقا للقول الشعبي (المحوالة مذباله ولو عروقها في الماء) فقد كانت المجموعة المتجاورة شبه منتقاة . وحرص الرجل مهم للغاية ، إذ استثمر في اتجاه إبعاد الوحشة . والموقع أثبت أهميته . وقد كان لذلك كله عدم إحداث أي تغير في اللقاء اليومي ، واللقاء في الواقع هو أهم ما كان يملأ الحياة ، الانطلاق في الغالب من مقهى (سي علي) في جنان النوار ثم يأخذ كل طريقه فيما إذا لم يقرر التوجه نحو مكان آخر ، وجدول الأخبار في الإذاعة والوكالة هو الذي يحدد الوجهة لكن الصدفة اقتضت أن يتسبب أحد السكان في حادث سير بالسيارة .

كان الرجل يسير في الاتجاه المعاكس وقد عنّ له أن يتجه إلى الشمال بطريقة عجيبة أدت إلى الاصطدام بالسيارة . أدت بها إلى التوقف تماما وأصيب هو بكسور واضحة نقل على أثرها إلى المستشفى . واكتفى المرور بحجز الرخص فقد كان الخطأ ظاهرا للغاية . كان الموعد يومئذ بعيدا نسبيا ولكنه لم يؤثر في اللقاء، فقد تم اللحاق بالمجموعة ، ومضت الحياة في إطارها العادي وسط مشاعر من القلق جراء قرار المنع من الإذاعة ، إلا أنه وضع في حجمه ، كان واضحا أن الأمر لا يعدو أن يكون نوعا من الضغط غير القابل للتطور مهما كانت الظروف ، أكمل مجلس النواب ، وفقا لنصوص الدستور مدته المحددة قانونا . وصار ضروريا أن يقع التحرك في اتجاه اختيار البدائل ،

ظهرت في الأفق بعض التحركات وشرع في طرح بعض الأسماء ، وثمة من تطلع إلى أن يدعي للتقدم بوصفه الجواد الرابح وفقا للمواصفات . ذلك هو تفكير البعض لكن آخرين يرفضون هذا المنطق بقوة . لم تكن السلطة قد قررت بعد ، هل ستأذن للوزراء أن يخوضوا المعركة أو ترفض ذلك ، وإلى أي حد سيكون التدخل ، ويومئذ اقترح البعض أن يقرر رأي جماعي مسبق حول عنصر محدد لتفويت الفرصة على كل عنصر يرى في نفسه أنه المنقذ . لم تأخذ هذه المسألة اهتمامها السابق ، فقد كانت المدينة أهم ، والتحرك مع الآخرين يأتي في وقته ، ولكن الأهل كانوا أكثر قلقا ، والتحرك الذي جرى كان في اتجاه توسيع الدائرة وتنشيط العلاقات مع أطراف كثيرة وقد فتح ذلك باب الحوار مع أطراف كثيرة من عرض نشاطها وتعطل دورها نسبيا ، ومن المهم أن يماط اللثام ، ويفعل الدور ، معظمهم له عالمه وله إطلاعه وكذلك قنواته التي تزود بالأخبار ، بعضهم أمكن الحفاظ عليه في دائرة الأهمية شأن السيد الطاهر الذي اختير ضمن المجموعة التي أضيفت لمجلس الشيوخ ، وهو التعيين الذي تطلع إليه محمد البشير ووعد به وعدا قيل له في حينه إنه لن يكون صادقا أبدا عندما كانت الاجراءات تحاك لإبعاده من صحيفة (الحقيقة) التي يراد لها اتجاه آخر .

حين علم السيد سياله بحادث السيارة ، بادر بتخصيص سيارة بديلة . كانت العلاقة قد توثقت مع الرجل إثر نقله من

قطاع الإعلام وهو نقل قصد به إعطاء المجال لغيره وسطرت حملة من الشائعات استهدفته ، فكان أن تم تناول النقل عبر عرض إخباري أمكن بواسطته إنصاف الرجل والإشادة بإمكانياته الإدارية ، فكان لذلك الموقف أثره الكبير في نفسية الرجل التي تأثرت نسبيا وجعله يقبل على قطاع الشباب بروح فاعلة تمثلت في ترتيب أهم حلقة دراسية عن مشكلات الشباب نجحت بفضل قدراته الإدارية وحسن تنظيمه للأمور حتى إن وقائع الندوة تعتبر أهم وثيقة صدرت عن مشكلات الشباب ، وفي زهد ظاهر عن المبالغات الإعلامية التي أقلقت الناس جميعا ، الواقع أن الرجل ، كان يرصد جميع الكتابات ، ويتوقف على نحو خاص أمام ما أمكن تقديمه من قراءات كثيرة لعديد الكتب التي كانت تصدر ، وعديد القضايا التي تثار والعلاقات التي تنظم ، وقد تميز بذاكرة صارمة تفلح في الاحتفاظ بالمعلومة في الأمور الإدارية مهما طال عليها الزمن . وقدرته في التحرير الإداري جيدة للغاية ، إن مناخ الإعلام يبدو وكأنه كل شيء في البلاد بالرغم من أنَّ الإعلام سخر بالكامل للطرح الرسمي ، كما أن الإنفاق غير المسؤول أفلح في تحويل الأغلبية الساحقة من الذين يمارسون الكتابة الصحفية إلى شبه مرتزقة ، فأتفه الكلمات يمكن أن تكون أغنية وأرك العبارات يمكن أن تتحول إلى حديث ، وبضع جمل إنشائية موغلة في المدح الخجل يمكن أن توصف بالتعليق ، وجميع ذلك له مقابل

أما الجلاد فهو نادر للغاية ، وليس له أي اعتبار في المعاملة ، إن أكثر من عامل يسعى إلى تجريد الكلمات من محتواها .

وقد كانت أخطر لعبة وجهت لرسالة الكتابة ، تلك المتمثلة في الكتابة من دون توقيع فقد استبعدت المسؤولية الأدبية ووفرت مجال الارتزاق والعبث بالكلمة وتسخيرها في التطبيل والتزمير ، إن الرهان على الإقناع صار منعدما . وغدا من الشائع أن يقرأ المرء أو يستمع إلى الكثير من الكتابات التي لا تفصح عن أي مجهود بذل ، سواء على مستوى الفكرة ، أو على مستوى العبارة . فاستحق العاملون في القطاع لعنة المتلقي من آبائهم حتى آدم . إنَّ المستنيرين في القطاع يقابلون كل شيء بالسخرية ، حتى لقد تحولت المسألة إلى نوع من المجابهة اليومية ، أفلح المستفيدون في تحويلها لما يمكن وصفه بالمعركة بين النظام والرافضين له . وكان ذلك قمة المغالطة فما كان في الحقيقة يرفض هو الأسلوب ، هو فنية العمل وقد كان تحلق عبدالكريم والفرجاني وعمر المزوغي والقبلاوي والمدنيني والأزهر مما يوفر مناخا مريحاً لاستشعار الألفة وطرح الأفكار المتصلة بالتنفيذ .

25

ارتفع حجم الإشاعات حول تعديل وزاري وشيك الوقوع ، وثمة من يذهب إلى القول بأن حكومة جديدة ستظهر وأن حجم الإعلام بها سيرتفع ، ويعزو البعض قرب احتمال مثل هذا الأمر إلى كثرة تردد العناصر الأمنية على القطاع بمن فيهم مدير إدارة أمن الدولة . بيد أن قراءة أخرى تقول إن المهمة قد تكون مزدوجة ، بمعنى أن التردد ليس بالضرورة أن يكون بقصد استلام بعض التعليمات وإنما هو من قبيل المتابعة لما يجري ومن المستبعد في الحقيقة أن يكون اسماعيل من الذين يجري استغلالهم في أي هدف شخصي .

وقد كان من أهم ما أثار القلق ، ذلك التحذير الذي وجه لـ(كشلاف) بضرورة الابتعاد عن المجموعة ، فقد اجتاز يومئذ فترة التجريب في المجال الإذاعي وأصبح مذيعا مقتدرا وصاحب برامج ناجحة . كان معروفا في بداية الحقبة في نادي الشباب ضمن رياضيي كرة القدم . في حين كان الصديق مع الأشبال ، لقد ترك التحذير وقعه السيء لدى المذيع الطموح الذي كان مؤهلا لتقديم أفضل البرامج بحكم علاقاته الواسعة ، لكن المطلوب ليس العمل وإنما هو الولاء الشخصي ، مما جعله يفكر في الخروج من القطاع نهائيا غير أن موقف المجموعة كان حازما

بضرورة رفض فكرة الخروج ولو أدى الأمر إلى تجميد كل العلاقات الظاهرة فما يجري لابد أن يكون عمره قصيرا ، ولو تطور إلى ما هو أكبر من ذلك فعدم استقرار الحكومات الذي شاع يدفع بقوة نحو الصمود والعمل ، فكل المناصب إلى زوال .

إن الأغلبية الساحقة من العاملين في القطاع شديدة التعاطف مع المجموعة المناوئة للأسلوب الإعلامي الساذج ولما كانت المجاهرة بالنقد لما ساد من أسلوب رؤي فيه التخلف عن أصول المهنة وشرف الكلمة قد أدى إلى كيل المزيد من التهم السياسية ، ومن موقف الدفاع عن النفس والثقة بسلامة الموقف وعدم التورط في أي فعل يبيح المساءلة القانونية أو السياسية بالأصح ، فقد كان الرد الحاد هو الأسلوب المتبع ، حتى إن الأمر يصل أحيانا إلى التعريض الشخصي ، لم يكن هناك قول يمس الشرف . ولا الفعل أيضا يستوجب ذلك ، إلا أن التفرد بموقف خارج السرب في زمن تهافت فيه الكثيرون بدا وكأنه خارج المألوف ، على أن وجود أغلبية متعاطفة لا ينفي وجود أغلبية مستفيدة ، لم يكن أمامها سوى التطوع بنقل الأخبار يوما بيوم ، وكان ذلك مقلقا للعناصر النظيفة التي أوجدتها ظروف العمل داخل الجهاز وظلت تسعى لتقديم خدمة جيدة وموقف سليم في مقدمة هؤلاء علي حمزة ذلك الرجل الذي التحق بالقطاع بعد غيبة طويلة بمصر ، فعاد في المرة الأخيرة ليستلم مجلة الإذاعة ، إلى جانب العمل الإداري المتقدم الذي أمكنه

بواسطته أن يقف على ما كان يرتكب من أفعال الوشاية والاستعداء من قبل ذوي المصالح الشخصية ، فكانت رغبته الصادقة في إنهاء كل مظاهر الخلاف لقطع الطريق على المتاجرين بالثقافة . فقد كان هؤلاء لا يملكون أي شيء يمكنهم من قضاء مصالحهم سوى الوشاية ، بما قيل اليوم وأمس ، لقد كان رأيه مقنعا ، وربما شرع في خطوة للتطبيق ، غير أن صدور المنشورات في عقب سفر الملك أتاح مجالا جديدا لتقوية الاتهامات حول المجموعة ، بالرغم من أن هناك من ظل يشكك في هذه المسألة ، فقد كان المنشور باسم جهة عسكرية ولغته تحريضية للغاية بعيدة عن المجال الإعلامي ، لكن ذلك لم يمنع من تقوية الإشاعة والترويج بأن الطبع تم في وكالة الأنباء الليبية والبشير هو المنفذ ، لقد غادرت الباخرة منذ أيام وتحدث الكثيرون عن حجم الأمتعة التي نقلت ، حتى إن (حرب) وهو يحل بالمقهى في ذلك المساء لم يتردد من القول :

- زعم آخر مشية ؟

كان الرجل خفيف الدم حاضر النكتة ، لا يمكن أن يوحي لمحدثه بأنه على علاقة بأجهزة الأمن ، في حين أنه من الذين قضوا أعمارهم في ذلك السلك ، ولكن من خلال التعيش ، ولهذا لم يحقق أي تطور في مجال العمل ولم يحصل على نجمة الملازم سوى منذ فترة قصيرة ، حين أوفد إلى برقة للدراسة التأهيلية ، عندما استحدث نظام التأهيل ، لقد شكل وجوده

نافذة جيدة على الأدب الشعبي وعوالم النكت التي يزخر بها المغرب الكبير ، فالحاميد الذين ينتسب إليهم منتشرون بتونس والجزائر ، والأسرة في المدينة هي المركز وبالتالي فهو الراوي الأول ، لقد لفتت نظره الرحلة وجعلته يتكلم على غير العادة ، كان أحدث زواج تم في القصر مثار تعليق الكثيرين ، وكان الحضور الذي حرص عليه بعض الوطنيين لافتا للنظر أيضا .

لم تطل الجلسة معه كثيرا في تلك القيلولة ، إذ سرعان ما اقتضى الأمر التوجه إلى الصحيفة فاليوم هو الثلاثاء ولابد من تسليم المواد المتفق عليها ولا داعي إذن للذهاب إلى البيت فليكن المرور على «الجنان» .

ما تم الاستماع إليه ، جدير بالإعادة ، فجمال النكتة في روايتها ، وقيمة المعلومة في ما تثيره من التغلب على المأساة .

عند سحب الكرسي والجلوس إلى جانب المجموعة ، وحسب التقليد التحية والدخول في الموضوع مباشرة ، ومن خلال ما سمع من حرب ، بدأ الجو غير عادي فلم يلق ما أخذ يقص من نكت حرب أي اهتمام ، بما في ذلك ما علق به عن الرحلة ، تصور أن الأمر مجرد اشتباه أو خيال حل به حين اعتقد أن الأمر غير عادي ، فبادر بشير وبدون مقدمات وهو يشير إلى جهةما .

- سيارة لابستني ، من عند طلعت من الحوش ، في الأول حسبت روحي غالط ، لما تحركت وراي من الأربع شوارع .. لكن بعدين لفت في جرتي ، وأنا نشبح في المراية ، وقفت على

اليـمين وقـفت .. تحركت تحركت في جرتي .. قـدمت لدكـان إبراهيم ولد خالتي لحقتني .. خذيت شارع عمر المختار وراي .. غـيــرت الاتجـاه وراي ، لغـاية مـا وصلت هني خـذيت كـرسي وقعدت هاوينهم درسوا .

– في مـحـاولـة للدفع نـحـو رباطة الجـأش ، جـاء الـرد : بالك غالط يا راجل ممكن صدفة .

– أوينهم زوج مـقـعـمـزين ، كـل واحـد لابس نظارة الـطويل بشنب والثاني هكي .

– كوكل بالشـوية (انظر من تحت تجاه أحد الجـوانب) ذلك ما علق به الصديق ، وهو يخلط النظر بالإشارة مع توتر ظاهر .

– ممكن الواحد يتحرك وما يعطيش اهتمام .

– في حـزن ظاهر ووجـوم قـوي . علق بشـيـر ، وين تتحـرك ، كـان يبي يلبـسـك في كل مكـان ، الواحـد يتـحـمل المسـؤوليـة الخاصـة بيـه ، علاش يحـمل واحـد آخـر همـه . شـخـصـيا غـيـر مـسـتـعـد للحـركـة من مـكـاني سـتـكون طريقي واحـدة ، البـيـت العمل ، وكان لقيت وقت هناي وبالقدر اللي ما نضرش بيه سي علي ، حتى القهوة بتخدم . ابنادم ما يكونش أناني ، المراقبـة ما يبيهاش حد . وأنا ما نقطعش رزق الراجل وانضايق محله .

ظن الجـميع أن الأمـر سيـبقى خـاصا بين المجـموعـة ، لكن الذي حـدث أن مـعظـم الرواد أخـذوا علـما بما جـرى . وقـد يكون ذلك هو الوضـع الطـبـيـعي ، فـالذين يرتادون المقـهى مـعـروفـون لدى

الجميع . معظمهم من سكان الحي ، وبعضهم الآخر تربطه مصالح محددة وعلاقات محدودة . إن أكبر تجمع هو الذي تتكون منه المجموعة ، سواء الأصدقاء الدائمين ، أو الذين يترددون لزيارة هذا وذاك مما جعل المجموعة تعيش شيئا من التشتت إثر هذه الحادثة مباشرة وفي ذلك المساء تحديدا .

السيارة التي تولت المهمة من نوع (فولكس فاجن) ضبط رقم لوحتها من اليوم الأول ، لكنها في اليوم التالي تغيرت من حيث الرقم ولكن مع بقاء النوعية والطلاء ، العناصر نفس العناصر ومن اليوم الأول وطوال الأيام التي تليه صارت المجموعة تراقب السيارة وتتفحص وجوه الاثنين ، لأن الحضور دائم ومنضبط ولا يعرف الانقطاع أبداً .

ارتبكت الجلسة نسبيا ، ونقصت النكت ، وكل يطوف بعالمه ، لكن دون المساس بموعد اللقاء ، فإذا ما غربت الشمس وأقبل الليل مضى كل إلى سبيله بشير إلى البيت والبقية حسب التساهيل . لقد اختلفت التفسيرات ، عما إذا كانت المسألة مقصورة أم أن لها علاقة بقطاع الإعلام وحسب ؟ أم أن الأمر أكبر من ذلك ؟ إن اسماعيل على علاقة وطيدة ببعض الأصدقاء الذين أشاروا عليه بدخول الأمن حين كان يدرس بمصر وتعثرت دراسته ، وربما استطاع بعضهم أن يقدم له بعض الخدمات حين كان القرار بيده ، فلتكن المبادرة بالاتصال به والاستفهام منه عن طبيعة هذا الذي يجري فلنبادر بالاتصال به والاستفهام منه

عن طبيعة الأمر ، وهو على أي حال لن يبخل بإعطاء شيء من المعلومات لأصدقائه الخلص .

لكن الهواتف كلها غير مجدية ، ولا سبيل للاتصال بمن اختبرت صداقته وتأكد اهتمامه فليكن الصبر هو الزاد ، في الطريق إلى منزل «علي» الذي لم يمض كبير وقت على زواجه من خدوجة ، وسامي يتمرن على أغنية (ياقنديل) ، في الطريق، وجد رتلا من السيارات مصفوفة على يمين أحد المباني المستحدثة ، قيل أنها الإدارة الجديدة رقم إحداها 88111 وثمة أرقام أخرى قريبة من الرقم بعضها رآه أكثر من مرة لقد استقر الرأي على مواصلة الحياة بشكل اعتيادي ودون الاكتراث بما يجري في الجنان وستكون الحياة مقسمة بين لقاء يوسف اليومي أو المرور أمام الأوروا للقاء بقية المجموعة ، بالذات كامل ، وكثيرا ما يخرجان سويا إلى إحدى الجهات الخلوية ، أكثر من مرة لا تكاد السيارة تقف قرب الشاطىء حتى تصل سيارة أخرى من ذات الصنف تحمل اثنين من الناس ، يقترب أحدهما طالب ولاعة أو مفتاح الزجاجات أو أي شيء من هذا القبيل ، ومرة تساءلا عن سر قدوم هذين الاثنين ولكن دون أي توجس فقد كان التصور أن للاثنين لقاءهما الخاص . لم يخطر بالبال أن السيارة تقوم بمهمة ما ، فحين لا يكون ثمة محظور يرتكب فإن سوء الظن هو آخر ما يطرق البال . ومن يقدر غير ذلك ربما يكون مدعيا أو متبجحا . على أن الحركة كانت أكثر من ذي

قبل تنشيطا لعلاقات قديمة اتصالات متميزة مع المثقفين والمحامين ومحرري العقود وعديد التجار ، بمن في ذلك السيد عبدالعزيز الذي ترك البلدية منذ فترة وظل بمتجره في شارع الرشيد .

مرة قال بشير أنه لاحظ على السيارة شيئا من التحرك ، لكن المتفق عليه أن الملاحقة في الجنان بالذات ، استدعت الذاكرة قصة الطلبة بمصر مع الرقيب ، حيث لا يكون ثمة شيء مزعج مثل التحرك العفوي لأن الاستسلام للممنوع من شأنه أن يسهل مهمة الرقيب أما التحرك بعفوية وممارسة الحياة من دون تحفظ فهو من الأمور المتبِعة لمن يكلف بمهمة المتابعة المخجلة .

إن من أطرف ما اهتدى إليه بعض المسؤولين اعتبار النقد اللاذع الذي يوجه لبعض الأجهزة التنفيذية شاملا للنظام في عمومه ، حين قيل إن نقد السلطة يعني نقد الذات الملكية ! مما يوجب تعديل القوانين بحيث تأخذ هذا المعنى . ومع أن (ونيس) إلى الطيبة أقرب وإلى عدم التغيير في الثوابت أميل ، إلا أنه في النهاية موظف ولن يجرؤ على رفض أي توجيه قد يحصل ، وثمة أيادٍ قادرة تدفع بالأمور نحو هذا الاتجاه ، لهذا لا يستبعد أن تتخذ خطوة ما فهذه الرقابة لا يمكن أن تكون عادية ، وليس الإذن بها من الأمور السهلة . ترى هل هي مقدمة لإجراء ما الاجابة دائماً بلا ونعم .

ليكن البديل حملة من الإشاعات المضادة ، ولترتفع الأصوات أن الحكومة ستعدل ، ولتذكر أسماء معينة ، ولتنشر

الأخبار في مقاهي الجادة والخضراء و البريد ، وسيوالي رجب نقده اللاذع لأي مسؤول سعى إلى ممارسة لعبة المضايقة ، فهو مع أصدقائه وهو مع مقاومة الانحراف والوقوف إلى جانب الطرف الشعبي . لكن ترويج الإشاعات يحتاج إلى شيء من الانفاق ، فلابد من الجلوس بعض الوقت ، والدخل محدود حين حظر التعامل مع الإذاعة وتبدو الحيرة تحاصر .

- إياك أن تفكر في المسألة المادية ، فلتمر هنا كل يوم ، ما لدي لنا جميعاً . ومادام الموقف سليما فلتكن أكثر صلابة ، أقل ما أسهم به الوقوف مع المسألة العامة ، فما بالك ونحن أصدقاء ، مشاغلي أنت أدرى بها ومادمت اتخذت موقفا صلبا فلا تتراجع ولا تتوقف أمام المسألة المادية . ذلك ما قاله كامل عراب في تلك الليلة .

ضاعف الشباب ، في مقهى الجنان من تعاطفهم وعدم اكتراثهم ، وربما تحديهم أيضا ، وشكلت سيارة «الفيات 124» التي اقتناها محمد كشلاف حديثا منطلقا مهما لهم ففيها يتم اللقاء كل مساء ، عقب العشاء مباشرة ، كان أغسطس مقمرا ، فالشهر القمري الموافق هو رجب ، وفي نصفه الأول ، وحتى إن تأخر القمر بعض الوقت فالسهر الطويل كفيل بتحقيق التمتع به ، والمكان المفضل هو ذلك المجاور لميدان الغزالة ، والذي يطلق عليه اسم «صقالة الحلفاء» فقد كان إلى زمن قريب يصدر منه ذلك النبات «الحلفاء» ، مصدر رزق مهم للبلد قبل النفط .

يخرج كل من سالم الشاوش (الجبيلي) والصديق ونوري . وقد تتشكل المجموعة من نوري وإبراهيم ، على أنهم ينطلقون من المقهى حيث يمر الشقروني مازحا وربما الحاج حمد الذي ينفرد بابنه بعض الوقت وقد تتسع الدائرة لتشمل عناصر أخرى ، فالجنان للجميع ، والخروج بعد ذلك للجلسات الخصوصية يتم بالاتفاق ، فالأسرة تكبر وما يكفي الثلاثة يكفي الأربعة «واللي برك للستة يبرك للستين» كما يقول المثل في الغالب تكون هناك أكثر من سيارة أمام صقالة الحلفاء ، وفي الشعاب يكون العدد أقل ، وأمام كل التمزقات ، وأشكال الترهل تكون الكلمة قادرة على رفع المعنويات ، سواء قيلت بقصد أو عن حسن نية ، حتى وإن كانت مجرد تفريج عن النفس المأزومة .

كان الناس يتحدثون كثيرا عن حركة عسكرية وشيكة الوقوع ، قوامها أبرز ضباط الجيش المقربين من العهد ، والآراء تختلف حول صدق ذلك النبأ . ثمة من يستبعد ، وهناك من يؤكد ، والدليل هو ما كان يجري من تنقلات بين كبار الضباط فضلا عن تعدد الاستقالات ، والتفسير دائما هو إبعاد العناصر الأقدم يلاحظ على هؤلاء تعريفهم ببعضهم البعض ، هناك من يؤكد أن الترقيات الأخيرة التي جرت في عيد الجيش نفذت رغم موقف إدارة التنظيم ، وهناك من يقول إن التصفية للجميع والمسألة مسألة وقت فقط !

تبلورت فكرة طلب المقابلة ، وجرت مفاتحة أكرم في الخصوص ، فهو من شباب المدينة المعروفين ، واللقاء معه في أماكن كثيرة منذ سنين طويلة عندما كان يعمل بقصر الولاية ، وقد يترتب عن ذلك محاصرة بعض المضايقات ولدى مفاتحة (أكرم) رحب ترحيبا جما عندما جرى المرور على مكتبه ذات صباح .

في مكتب (أبو عامر) الذي استحدث أخيرا عند نقله ، قال كلمته المعهودة إن شاء الله مبحبح في حين تطوع لملوم بأن القضية خاسرة حسبما أكد نجاتي أحد أعضاء لجنة الخدمة المدنية ، بالنسبة للترقية الموقوفة ، جاء الرد أن ذلك ليس بالجديد ، ما يهم هو الموقف يوما حين نسير في الشوارع والفرق كبير بين من سينكس رأسه خجلا ومن سيفخر بموقفه ، علق الفقيه ، وهو ينتظر تمديد بعثته .

- حساب الربح والخسارة مستبعد حسب هذا المنطق ، والهدف هو الموقف ، بدا أن الفقيه أفلح في تجسيد الأمر ، فلم يكن واردا تحقيق أي نصر في الصراع ، لكن المؤكد أن انعدام الاستقرار لن يترك لأحد أن يفخر بانتصاره حتى ولو حقق الخصم أمله في الفوز بالمقعد الأمامي فالنهاية ستكون مقعدا في مقهى (البونبو نيرا) مأوى جميع الخارجين من السلطة ، النظام هو الآخر لا يضمن البقاء .

اللقاءات تتوالى .. والرقابة تزداد وردود الفعل تتولد بين

لحظة وأخرى .

مرة كان النقاش حادا والقلق يفوق الوصف . بدا أن الوضع قد انتهى ، لكن البديل هو موضع السؤال .

- يصرخ يوسف : أي بديل .

- ويضيف بشير ، بلا تحفظ ، لكنه يستغرب كيف يقال ذلك الجواب إنها المعطيات ليس غير . لم تكن ثمة معلومات . لم يكن هناك أي اتصال فقط الحدس . الرؤية التي وصلت إلى قلب الواقع وسط مشاعر الخوف والقلق والحزن ، عندما كانت السيارة تصر على البقاء حتى نهاية الجلسة في مقهى الجنان ، ومن دون أي ترتيب متفق عليه . وبدل الذهاب إلى الشعاب حسب العادة المتبعة أو أي مكان في الشاطىء البعيد . تم التوجه إلى الصقالة . لم تكن السيارة واحدة ولكنها مجموعة من السيارات . تذكر ما قاله أحدهم ذات مرة إن اجتماعات اليسار تتم في السيارات وليس في الأماكن المسقوفة في ذلك الجو الخريفي والدنيا المفعمة بالحميمية والمحبة . والكثير من القلق والتوتر بعيدا عن أي شكل من أشكال النظرة الفكرية الواحدة بل إن هناك من لا صلة له بالفكر إطلاقا . إنما هي صلة الجيرة والنشأة واللقاء اليومي الذي كثيرا ما يتجاوز علاقات الدم وأنواعا من التأطير السياسي . الذي يدفع إلى ارتداء الأقنعة وإخفاء الوجه الحقيقي . لقد تخلصوا الآن من «اليوكات» وهو المصطلح الذي أطلقوه على راكبي السيارة ، وهي كلمة تركية

مشتقة من (لا أمان) منذ بدأ رصد بشير من البيت إلى العمل والمقهى ، حين وصل الأمر إلى العمل ازداد القلق ، إن المواقف تختلف بين من يكتفي بالنظر شزرا ومن يلقي كلمة ذات معنى ومن يكثر الحركة هنا وهناك بهدف الإزعاج والإرباك .

معظم المصادر تؤكد أن الخوف قد طال الطرف المقابل أيضا ، وأن ثمة تذبذبا ظاهرا في تقدير الأمر بصدد الموقف من المنشورات وبينما تصل القناعة إلى أن الأسلوب يختلف وأن اللقاءات شخصية محضة ، ترتفع النبرة مرة أخرى في اتجاه تثبيت التهمة ، لأن من اشترك في نشاط قديم سيشترك مرة أخرى .

ومثلما كان الموقف من فزان سيكون الموقف من الدولة اليوم، كان رد المجموعة قطع التحية والمجاهرة بالعداوة والإصرار على اللقاء اليومي ، والمسألة الانضباطية في اللقاء صارت مزعجة للجميع .

لم يكن الفقيه وحده الذي رجع من البعثة ، فقد رجع «الزوي» أيضا ورأى أن يمدد بعثته هو الآخر في مجال الإخراج ، بمقتضى المشروع الإعلامي الكبير الذي شمل عديد البعثات ، وقد أمكنه بواسطة الاتصال وحسن العلاقة أن يقف على تأثير الأزمة السياسية فتوفرت معلومات اقتضت مزيدا من التحليل ، حين تبين أن الخوف بلغ حده لدى أعمدة السلطة في المجال الإعلامي ، حتى إن رغبته في تمديد البعثة اعتبرت ضربا من

الهـروب اتضـح أن الأزمـة وصـلت إلى هذا المسـتـوى ، لم يـكن ذلك بالأمـر المستـغرب فـأكـثر الناس تهـافـتـا أكثرهـم خـوفـا على المصـيـر . وبـدا الوضـع في حـكـم المتـعـادل فـكـمـا يـقـول الـشـيـخ منصـور الحسناوي (حين يعم الظـلم يعتـبـر عـدلا) والاسـتـواء في الخوف نعـمـة . لقـد جـثم الهم . لكن المكابرة تحلو ، والتـحـمـل أكـثـر ، كـان من المفـروض أن تتم مـقـابلة الطبـيـب هذا الـيـوم فـقـد بلغت «أم المؤمنين» شـهـرهـا الـسـادس في الحـمـل ولكن الأمـر تأخـر هذا الـيـوم ، مـا يجـري هـنا مـحـجـوب عن الـبـيـت بالكـامل فـذلك أوفـر للـراحـة ، لكن الأقـارب لا يتـركـون الأمـور كـمـا هي ، وقـد يتطوعـون بنقل المعلومات وربما ضاعـفـوا من تطوعـهـم بالنصح ، فـالسلطة محبوبة حتى وإن لم يأت عن صـاحبـهـا أي شيء مـفـيـد والطموح من خصـال الناس الضـعـفـاء ، السيارة معبأة بالأشـرطة . فـالتـسـجـيل يتم بواسطة القـسـم الفني بـالإذاعـة ، والقـسـم مملوك لمجـمـوعـة الجـنان ، الجـمـيـع يعـمـلـون هـنـاك إبراهيم ، نـورالدين ، الصـادق . ولا يقـطع الليل إلا المسجل ، غـيـر الأشـرطة ، الشـعـبـيـة خـصـيـصـا ، حـتى فـريد وعـبـدالحـليم وعـبـدالوهـاب ، لـم يعـودوا مسيطرين ، لقـد حققت الأغنية خطوات كـبـيـرة ، بعض الملحنين دخلوا القـلـب حين تعـفـفـوا عن تلحين أغـاني المدح . واتجـهـوا إلى النص المتـمـيـز ، أول هؤلاء وأقـربـهـم علي مـاهـر وبـلـد الطـيـوب ، الغناء للوطن وليس للأفـراد ذلك هو المطلوب والمحـبب والبـاقي . عـانق سـلام قـدري الثـريـا حين انشـد كلمـات الحـريري الخـالدة

عندما جاء بها نورالدين :

لو تومريني فوق نسمة نطير لو تطلبي عربون - قفطان غرزاته هدب العيون - وزرايرة طقات قلب حنون - نسهر عليه العمر ما هو كثير - وكان ما يسد نزيد لك مليون - يا ليبيا على محبتي تعبير .

- لقد أعاد اللحن الهدوء إلى الجلسة وأنهى المحادثات الثنائية التي أثرت في المكان ، وخرج الجميع من عوالمهم التي أدخلتهم منها حركة (اليوكات) ويثير القلق الآن التأخر في زيارة الطيب لا شيء يمكن أن يبقى سرا في البلاد ، تلك هي طبيعة المجتمع من بداياته الأولى حين تمنح سلفة بالصباح تظهر أخبارها في المساء ، وكذلك الأمر بالنسبة لدوائر الأمن فقد انتشرت الأخبار ، حتى وصلت إلى كل الموجودين هذه الليلة ، لم يكونوا متفقين في الأعمار ولا مجال العمل لكنهم جميعا يتفقون في القلق والاحساس بقرب شيء ما . يبدو كشلاف أكثر الناس رفضا لفكرة اللين ، بعكس الصورة التي يأخذها من رآه في البداية ، إن التحدي لدى البعض يولد التحدي وربما يكون الحوار الذي استمع إليه خلق الموقف المعاكس . سالم الشاوش يمثل دور «القبضيّ» في جميع مظاهره ، والصديق يخلط الكلمات العربية مع الإيطالية ، الأمل والتمني والتصادم كلمات تأتي على لسان الصديق إيطالية صرفة ، فهو يعشق مهنته في مجال الميكانيكا ويتطلع إلى مستقبل ، ويعلق كبير

الأمل على أصدقائه .

والليل يطول ، والقمر يحلو والأنغام التي يبعثها المسجل تحيي النفس تحملها نحو عوالم تتجاوز لحظات الكآبة التي تفرض نفسها كلما خطر خاطر من أحداث النهار والسيارة أمام المقهى . وسي علي الذي يخلط بين ضيقه من سعيد وطلبات البيت وبعض الزبائن الذين يجلسون الساعات الطويلة مكتفين بقهوة واحدة هو لا يقصد المجموعة بالطبع ، لكن لا بأس من أن يفهم الجميع أن الكراسي تحتاج إلى أكثر من طلب في حالة البقاء من العصر إلى المغرب مثلا ، وما يصرف بهذه الأماكن يفوق ما يصرف عند سي علي مئات المرات ، خاصة وأنه لا يتذكر مجيء «اليوكات» من أيام كبسة كمال الذي أضاع أوراقه في المقهى عبر هذه الظروف يختلس الصديق لحظة ليسأل في الأذن عما إذا كان قد أمكن الاتصال بأحد أصدقاء اسماعيل والاستفهام منه عن الموضوع وحين تكون الإجابة سلبية يحاول أن يتمالك نفسه ، فتخونه عيناه الشاردتان وشراهته في سحب الدخان من سيجارته مع تنهيدة مؤثرة .

ان الندى لا يسمح بالاستمرار في الجلسة . والامكانيات الصحية تخونه لأن البرد القديم ما يلبث أن يلعب لعبته ، إذ لم يعالج ولم يسمع نصيحة (كامبريري) ذلك العجوز الذي تربطه صداقة وطيدة مع المدير بوبكر ومختار الذي عاش إلى جانبه بعض الوقت ، لقد أجلت المحاولة والآن يدفع الثمن ، لكن

الدخان هو الآخر مؤثر مع أن تركه قد حصل منذ سنوات . حاول الصديق أن ينبش الذاكرة مشيرا إلى بيت من قصيدة «الحوتة» التي طالما استظهرها عليه فترة من الفترات حين صور الشاعر المبعد من بنغازي إلى أقاصي الشرق غربته قائلا :

لعل يوما يواتينا أقول لهم

هذا جزاء على أعمالكم فينا

لكن الاستجابة كانت متأخرة نسبيا لقد أخذت العناصر الغريبة تنسحب الواحد تلو الآخر ، ولم يبق سوى الخلص من أبناء الحي ، فكان اللجوء إلى الشعر الشعبي بوصفه الأبلغ في الرد على ما كان يكابد :

اصبر وروم الصبر حمله قله

عمرن قصر ما طولاته ذله

ـ زيد يا حسين ، تلك هي كلمة الصديق المعروفة وذلك هو نداؤه لمن يحب من الناس لابد من رفع الصوت قليلا :

اصبرلهن واصبر ، واعطي حكامك للكريم ايدبر

هوا كسر هوا عليه يجبر

وهو اللي يعز العبد بعد الذلا

الهدف بطبيعة الحال هو استنهاض الهمم ، التعزي بالتجربة القديمة ، تقوية روح التحمل ، طرد ملامح الانهيار والضعف . بدت الصورة فيما يشبه الحلم ، منتهية ، وإن تكن غير واضحة كانت الكلمات :

- والله معاش قاعدين كملو

- وراس خوي .

استغرب الحاضرون القطع . واستغرب من قال أيضا فقد خرج القول مرة أخرى وصرح به منذ أيام .. لم تكن هناك معلومات عن شيء سوى ما كان يشاع بخصوص التحرك التقليدي ، الذي خشي .. من إمكانية تحقيقه كثيرا ، لكنه أعطى مؤشرا إلى تجارب أخرى سابقة ، ربما تساءل عن البديل ، أكثر من مرة لكن الذي سيطر هو نهاية الوضع القائم . بعض الآذان تصغى لذلك الحديث ، وتلك الكلمات غير المسبوقة ، بالنسبة للحاضرين وبدأ كل شيء يقتضي العودة إلى البيت ، ومن المؤكد أن الجيران قد فرغوا من فرحهم ، فقد اختاروا أن يكون زفاف الفتاة في نهاية يوم الأحد ، كي يكون يوم الاثنين هو مفتتح دخول البيت ، فأهل الريف يتبعون هذا التقليد وشعبان صاحب العقار ينحدر من الساحل كما قيل ، ولعل المنطقة في عمومها غير محسوبة على المدينة فهي على كل حال نهاية (سكرة) التي كانت ذات يوم خارج سيطرة فرسان مالطا ، وبالتالي خارج سلطات كثيرة .

ولأن الحسم هو الأسلوب المفضل ، فلم تقبل طلبات إبراهيم وكشلاف بمواصلة السهرة ، ولم يبق إلا الوداع ، وكل ينطق الكلمة بما اعتاد فهي أولا وأخيرا تحية الوداع ، والوداع شيء غير محبب ، والسهر أحب إلى النفس مذ قال الوداني أبياته

الشهيرة :

من يشتري مني النهار بليلة لا فرق بين نجومها وصحابي

قبل أن يقف على اليمين ليفتح باب المستودع ويدخل السيارة وفقا لما عمل به مذ سكن هنا ، والأضواء تملأ الشارع ، رآهما يشيران إلى المبنى ، وقبل أن يقترب انطلقت السيارة التي ركباها فإذا بها بلحمها وشحمها ، نفس السيارة ونفس الرقم 88111 في حين كان شعبان ينادي من البيت القريب :

ـ تصبح على خير يا أستاذ .

نشوفك غدوة ، ضروري .

ـ كان عشنا .

كانت الكلمة التي سبقت ولوج باب البيت .

لم تكن ثمة رغبة في تناول أي شيء من الطعام ، فقد طالت السهرة وانتهت الشهوة ، الصباح رباح ذلك ما شكل نهاية الكلام والسؤال الملح ، ماذا يريد شعبان ، وماذا عن إشارة راكبي السيارة هل سئل عن شيء .. ؟ هل يريد أن يسأل ؟

وحد أن الاحتمال الثاني أقوى . لكن ترى هل كان سيصبر إلى الصباح وهو يريد أن يسأل عن شيء ما من المؤكد أن السؤال وجه إليه . لا شيء في هذه اللحظات سوى النوم ، وليؤجل كل شيء إلى الغد .

التنضيد والرقن الاليكتروني، ادارة التجهيز والطبع بالمؤسسة العامة للصحافة
الطبع ، مطابع الثورة العربية ـ طرابلس